في الأدب والنقد واللغة

ومقالات في الحركة الفكرية العربية المعاصرة

محمد دحروج



دار البداية ناشرون وموزعون

قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ
رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ
جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾

في الأدب والنقد واللغة

في الأدب والنقد واللغة

ومقالات في الحركة الفكرية العربية المعاصرة

محمد دحروج

الطبعة الأولى

٢٠١٥م /١٤٣٦ هـ



دار البداية ناشرون وموزعون

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠١٤/٦/٣٠٣٤)

٨١٠,٩

دحروج، محمد محمود

في الأدب والنقد واللغة ومقالات في الحركة الفكرية العربية المعاصرة/ محمد محمود دحروج، عمان، دار البداية ناشرون وموزعون، ٢٠١٤

( ) ص.

ر.أ.: ٢٠١٤/٦/٣٠٣٤

الواصفات: /الأدب العربي// النقد الأدبي// اللغة العربية/

* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية او اي جهة حكومية اخرى.



الطبعة الأولى

٢٠١٥م /١٤٣٦ هـ



دار البداية ناشرون وموزعون

عمان - وسط البلد - تلفاكس 4640679 6 962+

ص.ب 184248 عمان 11118 الأردن

info.daralbedayah@yahoo.com

خبراء الكتاب الأكاديمي

ISBN: ٩٧٨-٩٩٥٧-٨٢-٣٢٣-٨ (ردمك)

فـي
الأدب والنقد واللغة
وَمَقالاتٌ
فِى الحَرَكَةِ الفكريَّةِ
العَرَبِيَّةِ المُعَاصِرَةِ



دراســات أدبيّــة

لِلنَّاقِدِ الأَدِيب ..... الأُسْتَاذ

محمـد دحـروج

« المُسْتَشَارُ العِلْمِىُّ لِمُؤسَّسَة طَيْبَة القَاهِرِيَّة

المَسْئُولُ عَن قِسْمِ النَّقْدِ الأَدَبِىِّ وَتَارِيخِ الأَدَب »



«دراســات أدبيَّـة»

.....

٥ ـ تنبيه

كِتَـابٌ قَـدْ حَـوَى دُرَرَاً
بِعَيْنِ الحُسْـنِ [مَنْظُـورَهْ]
لِـهَـذَا قُـلْـتُ تَنْبِيهَـاً :
[سِهَـامُ الغَصْبِ مَحْظُورَهْ] (١)





(١) ـ مَا بَيْنَ المُعَقَّفَاتِ مِن كَلِمَات ؛ إِنَّمَا هِيَ مِن كِيسِي [نِـزَار شَاهِين المِصْـرِيّ] ـ وَهُوَ الاسْمُ المُسْتَعَارُ الَّذِى ظَهَرَ بِهِ الكَاتِبُ حِينَ إِصْدَارِهِ لأَعْمَالِهِ النَّقْدِيَّةِ الأُولَى ؛ وَالَّتِى نُشِرَت بِدَار أَطْلَس لِلنَّشْرِ وَالإِنْتَاجِ الإِعْلامِيّ ؛ كَمَا أَنَّهُ نَشَرَ فِى دَارِ البِدَايَةِ الأُرْدُنِيَّـةِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ عَمَلاً ؛ وَوَقَّعَهَا بِهَذِهِ الأَسْمَاء : مُحَمَّد مَحْمُود دَحْرُوج ؛ و : نِزَار شَاهِين المِصْرِى ؛ و : عُمَر إِيزِيل ؛ فَلْيُعْرَف ذَلِك .

.....

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ؛

وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى أَبَوَيْهِ

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيل ؛ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيراً





.....

۞ - إِهْـدَاء

.....

۞ أُمَّاهُ أَصْوَاتُ الذِّئَاب !!
تَجِىءُ مِن بَابٍ
لِبَاب !!
أُمَّاهُ شَيْطَانُ المَقَابِرِ
فِى الدُّرُوب !!
يَمْضِى طُـوَالَ اللَّيْلِ
فِى غَضَبٍ يَجُـوب !!
أُمَّاهُ إِنَّ الجِـنَّ فِى جَـوْفِ
البِحَـارِ أَو الكُهُـوف !!
تَخْرُج بِهَذَا اللَّيْلِ كَى
تُلْقِى المَنِيَّـةَ وَالحُتُوف !!
أُمَّاهُ أَصْوَاتُ الرُّعُـود !!
تَقُولُ إِنَّ غَرِيبَنَا يَوْمَاً
سَيَرْحَلُ إِنَّمَا لاَ لَن
يَعُـود !!

أُمَّاهُ صَرْخَاتُ العَوَاصِفِ
وَالرِّيَاح !!
تُخبِر بِأنَّ الغَيْبَ سَوْفَ
يَجِيءُ يَحْمِلُ كُلَّ أَجْبَالِ
المَآسِى وَالجِرَاح !!
أُمَّاهُ أنَّاتُ الثَّكَالَى وَالعَوِيل !!
مَعَ الظَّلامِ أتَت تَنُوحُ عَلَى
القَتِيل !!
يَأْتِى صَدَاهَا مِن بَعِيد !!
وَيَقُولُ إنَّ المَوْتَ يَمْحُو
فَرْحَةَ الطِّفْلِ الصَّغِيرِ إِذَا
غَدَا بِالأَرْضِ مَحْرُومَاً
وَحِيد !!
الصَّوْتُ يَأْتِى مِن هُنَالِكَ
فِى القُبُور !!
الجُثَّةُ الصَّرْعَى سَتُطْرَحُ ثُمَّ
فِى حَلَكِ الظَّلامِ هُنَاكَ
تَنْهَشُهَا النُّسُور !!
أُمَّاهُ مَا مَعْنَى إِذَا قِيلَ الفَتَى

وَلَّى وَمَـات !!

أُمَّاهُ هَـذَا الكَـوْنُ مَلْعُـونٌ !!

أُمَّاهُ مَـا أَقْسَى الحَيَاة !! .».(١).

.....

«إِلَى زَمَـنٍ لاَ يُسَالِمُ !!... ؛ وَإِلَى حَيَاةٍ

لاَ تَجُودُ !!... ؛ إِلاَّ بِالمِحَـنِ وَالجِـرَاحِ !! »

أُهْـدِى هَـذَا الكِتَـاب

.....

القَـادِمُ مِـنَ الـزَّمَـنِ المَجْهُـول

كُـولِـرِدْج العَـرَب

«مُحَـمَّـد مَحْمُـود دَخْـرُوج»

(1981ـ 2013)

مَـدِينَـةُ الـرِّيَـاض ..... الحَارَةُ العَتِيقَـة



(١) ـ مِن قَصَائِدِ دِيوَانِى «وَدَاعاً أَيُّهَا العُمْـر» .

.....

❁ـ تَصْوِير

.....

❮ إِن عِشْنَا فِى زَمَنِ التِّيه !!... ؛ إِن صَارَ العُمْرُ كَحُلْمِ خَدَّاعٍ قَد كَذِبَ وَغَر !!... ؛ إِن يَغْدُو الحُبُّ حَدِيثاً عَذْباً عَن عَهْدٍ قَد مَاتَ وَمَر !!... ؛ إِن تُصْبِح أَقْدَارُ المَرْءِ الحَالِمِ مَا بَيْنَ دُمُوع ... ؛ أَو دَرْبٍ مَحْتُومٌ أَن يَمْضِى عَلَيْهِ وَلَكِن مَجْهُولٌ كَيْفَ يَكُونُ العَوْدُ مُحَالٌ أَن يُؤْذَنَ لِلسَّائِرِ يَوْمَاً بِرُجُوع !!... ؛ إِن كَانَ حَرَامٌ أَن نُبْصِرَ وَعْدَ الحُلْمِ وَكَيْفَ يَكُونُ النَّصْر !!... ؛ إِن كَانَ العَيْشُ بِوَسْطِ سَرَابِ الوَهْمِ شِعَارُ الأَرْضِ وَنَامُوسُ العَصْر !! ... ؛ إِن أَضْحَى العَقْلُ وَكَانَ القَلْبُ وَصَارَ الحُبُّ بِضَاعَةَ وَالكُلُّ بِسِعْر !!... ؛ فَلْتُلْعَن كُلُّ حَقَائِقِ هَذَا العَالَمِ !!... ؛ وَلْيَبْقَ الشِّعْر !! ❯ . (١).



(١) ـ مِن قَصَائِدِ دِيوَانِى «وَدَاعَاً أَيُّهَا العُمُر» .

.....

✿ ـ مَدْخَل

.....

مَضَى الحُلْمُ وَلَم تَبْقَ
سِوَى ذِكْرَاهُ فِي نَفْسِي !!
أَخَافُ أَخَافُ مِن يَوْمٍ
يُمِيتُ فَرَاغُهُ حِسِّي !!
وَأَصْحُو فَوْقَ أَنْقَاضٍ
مِنَ الأَوْهَامِ وَالحَدَسِ !!
تُـذِلُّ الزَّهْوَ فِي حِدَقِي
وَتُلْقِي السُّمَّ فِي كَأسِي !! (١).



(١) ـ مِن قَصِيدَة «أَخَافُ أَن أَنْسَى !!» لِلأُستَاذ عُمَر النص .

.....

❁ـ كَلِمَةٌ قُبَيْلَ الشُّرُوعِ :

بسم الله الرحمن الرحيم



إِنِّى هُنَا !! ؛ مَازِلْتُ وَحْدِى فِي الطَّرِيق !! ؛ تَتَذَكَّرُ الدُّنْيَا جَمِيعَ بَنِيِّهَا ؛ وَأَنَا هُنَا دَرْبِى يَضِيق !! ؛ إِنِّى هُنَا !! ؛ رُوحٌ يُهَدِّدُهَا الفَنَاءُ وَلاَ أَمَل !! ؛ كُلُّ المَعَانِى لَم تَعُد شَيْئاً كُلُّ أَلْحَانِى أُغَنِّيهَا عَلَى دَرْبِ الكَآبَةِ وَالمَلَل !! ؛ لِى كِلْمَةٌ حَيْرَى أُرَدِّدُهَا بِكُلِّ حِكَايَةٍ تَأْتِى وَتَمْضِى لاَ أَقُولُ سِوَى الوَدَاع !! ؛ كُنَّا جَمِيعاً رُوحِىَ الظَّمْأَى وَآمَالِى الَّتِى نُسِجَت وَأُغْنِيَةٌ أُغَنِّيهَا ؛ وَهَا رُوحِى مُبَدَّدَةٌ هُنَا !! ؛ وَالكُلُّ ضَاع !! .

.....

هَذِهِ هِىَ أَقْدَارُ الشُّعَرَاءِ الصَّادِقِين !! ؛ وَالأُدَبَاءِ المُخْلِصِين !! ؛ الَّذِينَ أَعْطَوْا أَنْفُسَهُم كَهَدِيَّةٍ لِعَالَمِ الشِّعْرِ المُقَدَّسِ ؛ وَدُنْيَا الكَلِمَةِ العَبْقَرِيَّةِ الَّتِى تَجُودُ بِهَا قَرَائِحُ أَرْبَابِ البَيَان !! ؛ نَعَم !! ؛ هَذِهِ هِىَ أَقْدَارُ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَلُّوا فِي هَيْكَلِ الأَحْزَانِ !! ؛ وَضَحُّوا بِأَيَّامِ دَهْرِهِم مِن أَجْلِ هَذِهِ اللَّحَظَاتِ الَّتِى تَتَجَلَّى فِيهَا أَرْوَاحُهُم فِي صُورَتِهَا الحَقِيقِيَّةِ !! ؛ فَيُنْصِتُ رُهْبَانُ السَّمَاءِ لِتِلْكَ الكَلِمَاتِ الَّتِى تَهْبِطُ عَلَى أَقْلاَمِهِم مِن نَهْرِ الإِبْدَاعِ وَالخُلُود !! .

« إِنَّهَا الحِكْمَةُ قُدْسِيَّةٌ سَرْمَدِيَّةٌ وَرُوحٌ أَزَلِيَّةٌ !! ؛
تَمُدُّ العَالَمَ كُلَّهُ بِالحَيَاة !! ؛
فَلِكُلِّ كَائِنٍ لَحْنُهُ !! ؛ وَلِكُلِّ كَوكَبٍ وَحْيُهُ !! ؛
وَلِكُلِّ مَوْضِعٍ مَعْنَاه !! . » .

« مِن أَشْعَارِ لامرتين العَظِيم »

.....

إِنَّ لِي مَحْضُ نَفْسٍ تَنْشُدُ الجَمَالَ وَالسَّكِينَةَ !! ؛ إِلاَّ أَنَّ الحَيَاةَ أَتَت بِأَعْظَمِ صَخْرَةٍ مِن صُخُورِ جُحُودِهَا ؛ فَوَضَعَتْهَا عَلَى مَوْضِعِ الأَمَلِ مِن هَذِهِ النَّفْسِ التَّعِيسَةِ !!

« انْظُر هُنَا !! ؛ الصَّخْرَةُ السَّوْدَاءُ شُدَّت فَوْقَ صَدْرِي !!
بِسَلاَسِلِ القَدَرِ العَتِيِّ !!
بِسَلاَسِلِ الدُّنْيَا البَغِيِّ !!
انْظُر إِلَيْهَا كَيْفَ تَطْحَنُ تَحْتَهَا ثَمَرِي وَزَهْرِي !!
نَحَتَت مَعَ الأَيَّامِ ذَاتِي !!
سَحَقَت مَعَ الدُّنْيَا حَيَاتِي !!
دَعْنِي فَلَن تَقْوَى عَلَيْهَا !! ؛ لَن تَفُكَّ قُيُودَ أَسْرِي !!
سَأَظَلُّ وَحْدِي فِي انْطِوَاء !!
مَا دَامَ سَجَّانِي القَضَاء !!

دَعْنِي سَأَبْقَى هَكَذَا !! ؛ لاَ نُورَ ؛ لاَ غَدَ ؛ لاَ رَجَاء !!
الصَّخْرَةُ السَّوْدَاءُ ؛ مَا مِن مَهْرِبٍ ؛ مَا مِن مَفَر !!
عَبَثاً أُزَحْزِحُ ثِقْلَهَا عَنِّي بِنِسْيَانِي لِنَفْسِي !!
كَم خُضْتُ فِي قَلْبِ الحَيَاه !!
وَضَرَبْتُ فِي كُلِّ اتِّجَاه !!
أَلْهُو ؛ أُغَنِّي ؛ فِي يَنَابِيعِ الشَّبَابِ أَغُطُّ كَأْسِي !!
وَأَعُبُّ فِي نَهَمٍ شَدِيد !!
حَتَّى أَغِيبَ عَنِ الوُجُود !!
دُنْيَا المَبَاهِجِ كَم خَدَعْتُ بِحُضْنِهَا أَلَمِي وَبُؤْسِي !!
فَهَرِبْتُ مِن دُنْيَا شُعُورِي !!
وَرَقَصْتُ فِي نَزَقِ الطُّيُورِ !!
وَأَنَا أُقَهْقِهُ فِي جُنُونٍ ؛ ثُمَّ مِن أَعْمَاقِ يَأْسِي !!
يَرْتَجُّ فِي رُوحِي نِدَاء !!
وَيَظَلُّ يُرْعِدُ فِي الخَفَاء !! :
لَن تَهْرَبِي !! ؛ إِنِّي هُنَا !! ؛ لَن تَهْرَبِي !! ؛ مَا مِن مَفَر !!
وَيَهُبُّ طَيْفُ الصَّخْرَةِ السَّوْدَاءِ مَمْسُوخُ الصُّور !!
عَبَثاً أُزَحْزِحُهَا !! ؛ سُدَىً أَبْغِي الهُرُوبَ ؛ فَلاَ مَفَر !!
كَم جُسْتُ فِي أَرْضِ الشَّقَاء !!
أَشْتَفُّ إِكْسِيرَ العَزَاء !!

مِن شِقْوَةِ السُّجَنَاءِ أَمْثَالِي وَمِن أَسْرَى القَدَر !!
فَوَلَجْتُ مِن بَيْنِ الجُمُوع
حَيْثُ المَآسِي وَالدُّمُوع !!
حَيْثُ السِّيَاطُ تَؤُزُّ !! ؛ تَهْوِي فَوْقَ قُطْعَانِ البَشَر !!
فَوْقَ الظُّهُورِ العَارِيَه !!
فَوْقَ الرِّقَابِ العَانِيَه !!
حَيْثُ العَبِيدُ مُسَخَّرُونَ تَدَافَعُوا زُمَراً زُمَر !!
مِن كُلِّ مُنْسَحِقٍ غَرِق !! ؛
بِالدَّمْعِ ؛ بِالدَّمِ ؛ بِالعَرَق !!
وَبَقِيتُ أَلْتَمِسُ العَزَاءَ مِنَ الشَّقَاءِ ... ؛ وَلاَ مَفَر !!
فَالصَّخْرَةُ السَّوْدَاءُ لَعْنَةْ !!
وُلِدَت مَعِي لِتَظَلَّ مِحْنَةْ !!
بَكْمَاءُ ؛ تَلْحَقُنِي !! ؛ يُتَابِعُ ظِلُّهَا خُطُواتِ عُمْرِي !!
انْظُر هُنَا كَيْفَ اسْتَقَرَّت فِي عُتُوٍّ فَوْقَ صَدْرِي !!
دَعْنِي !! ؛ فَلَن تَقْوَى عَلَيْهَا !! ؛ لَن تَفُكَّ قُيُودَ أَسْرِي !!
سَتَظَلُّ رُوحِي فِي انْقِفَال !!
سَأَظَلُّ وَحْدِي فِي نِضَال !!
وَحْدِي مَعَ الأَلَمِ الكَبِيرِ !! ؛ مَعَ الزَّمَانِ !! ؛ مَعَ القَدَر !!

وَحْدِي وَهَـذِي الصَّخْرَةُ البَكْمَاءُ تَطْحَنُ ... ؛ لاَ مَفَر !! . ». (١) .

.....

القَادِمُ مِنَ الزَّمَنِ المَجْهُول

محمد محمود دحروج

الشَّهِيرُ بِـ:

«نِزَار شَاهِين المِصْرِى»

[1981ـ 2013]

وَالمَعرُوفُ فِى الأَوْسَاطِ الثقَافِيَّةِ الأُرْدُنِيَّةِ بِاسْم :

« عُمَر إِيزِيل »

وكَانَ الفَرَاغُ مِن تَقْيِيدِ هَذِهِ الكَلِمَات

بُعَيْدَ فَجْرِ اليَوْمِ المُؤَرَّخ بِـ: **2013 / 8 / 10**

بِالحَارَةِ العَتِيقَة

مَدِينَةُ الرِّيَاض ..... بِشَمَالِ الدِّيَارِ المِصْرِيَّة



(١)ـ قَصِيدَةُ « الصَّخْرَة » لِفَدْوَى طَوْقَان .

.....

❁- تَوْطِئَة :

بسم اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم



تَتَمَثَّلُ بِنْيَةُ هَذَا الكِتَابِ فِي عَدَدٍ مِنَ الأَبْوَابِ ؛ جَاءَ كُلُّ بَابٍ مِنْهَا مُشْتَمِلاً عَلَى عَدَدٍ مِنَ الفُصُولِ أَوْ المَبَاحِثِ أَوْ المَقَالاَت ؛ فَالبَابُ الأَوَّلُ يُنَاطُ بِالنَّقْدِ الأَدَبِيِّ ؛ وَالبَابُ الثَّانِى بِهِ دِرَاسَةٌ أَدَبِيَّةٌ فِي فُصُولٍ عَن الشَّاعِرِ الإِنْجِلِيـزِىِّ الشَّهِيرِ « بِيـرُون » ؛ وَالبَـابُ الثَّالِـثُ جَـاءَ لِيُنَـاقِشَ بَعْضَ مَسَائِلِ اللُّغَـةِ العَرَبِيَّةِ ؛ وَأَمَّا البَابُ الرَّابِعُ وَالأَخِيرُ : فَبِهِ مَقَالاَتٌ تُنَاقِشُ بَعْضَ قَضَايَا الوَاقِعِ الفِكْرِيِّ المُعَاصِرِ .

والله من وراء القصد

.....

القَادِمُ مِنَ الزَّمَنِ المَجْهُول

« مُحَمَّد مَحْمُود دَخْرُوج »

مَدِينَةُ الرِّيَاض ..... الحَارَةُ العَتِيقَة



البـاب الأوَّل

مـن فـصـول الـنـقـد
الأدبـى الـحـديـث



.....

مُساجلة أدبيَّة ومعركة قلميَّة

الدكاترة زكي مبارك والدكتور السباعي بيومي

.....

تُعَدُّ المُسَاجَلاَتُ الأَدَبِيَّةُ وَالمَعَارِكُ القَلَمِيَّةُ أَعْظَمَ مَيْدَانٍ مِن مَيَادِينِ النَّقْدِ الأَدَبِيِّ مِن جِهَةِ مَيْلِي وَنُزُوعِي ؛ لِمَا أَرَاهُ عَلَى أَرْضِهَا مِن حُرُوبٍ وَمَوَاقِعٍ قِتَالِيَّةٍ مُثِيرَةٍ !! ؛ حَيْثُ يَقِفُ الفُرْسَانُ العَبَاقِرَةُ فِي سَاحَةِ النِّزَالِ ؛ وَقَد جَهَّزَ كُلُّ فَارِسٍ نَفْسَهُ بِكَافَةِ أَسْلِحَتِهِ الَّتِي أَكْسَبَتْهُ إِيَّاهَا رِحْلَتُهُ مَعَ الأَدَبِ وَالعِلْمِ وَالثَّقَافَةِ ؛ فَنَرَى أَحْيَانًا - إِذَا مَا حَمِيَ وَطِيسُ المَعْرَكَةِ - مَا يَدْعُونَا إِلَى تَعْظِيمِ المُنَازِلِ ؛ أَوْ التَّعَاطُفِ مَعَهُ ؛ أَوْ الشَّفَقَةِ عَلَيْهِ ؛ أَوْ السُّخْرِيَةِ مِنْهُ ؛ أَوْ احْتِقَارِهِ أَحْيَانًا !!

.....

وَمَعْرَكَتُنَا هَذِهِ ؛ وَالَّتِي نَشِبَت بَيْنَ الدُّكَاتِرَةِ زَكِي مُبَارَك وَالدُّكْتُور السِّبَاعِي بَيُّومِي ؛ هِيَ أُمُّ المَعَارِكِ الَّتِي خَاضَهَا زَكِي مُبَارَك ؛ وَالَّذِي عَرَفَهُ التَّارِيخُ الأَدَبِيُّ بِكَثْرَةِ مَلاَحِمِهِ وَحُرُوبِهِ !! ؛ وَكَانَ الدَّاعِي إِلَيْهَا مَا أَثَارَهُ الدُّكْتُور السِّبَاعِي بَيُّومِي حَوْلَ الشَّيْخِ سَيِّد بْنِ عَلِيٍّ المَرْصَفِيِّ [ت ١٩٣١م] - العَالِمُ المِصْرِيُّ

الأَزْهَرِيُّ الكَبِيرُ ؛ وَبَاعِثُ الحَرَكَةِ الأَدَبِيَّةِ وَاللُّغَوِيَّةِ فِي العَصْرِ الحَدِيث ؛ كَانَ مِن جَمَاعَةِ كِبَارِ العُلَمَاءِ فِي الأَزْهَرِ ؛ وَقَد تَوَلَّى تَدْرِيسَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ بِهِ إِلَى أَن نَالَت مِنْهُ الشَّيْخُوخَةُ ؛ وَكُسِرَت سَاقُهُ ؛ فَاعْتَكَفَ فِي مَنْزِلِهِ بِالقَاهِرَةِ ؛ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ طُلَّابُ الأَدَبِ ؛ فَكَانَ يَعْقِدُ لَهُم المَجَالِسَ العِلْمِيَّةَ ؛ إِلَى أَن تُوُفِّيَ ـ .

.....

كَانَت طَلِيعَةُ المَعْرَكَةِ مَقَالاً كَتَبَهُ مُحَمَّد فَهِيم عُبَيْد فِي مَجَلَّةِ « الرِّسَالَةِ » بِعُنْوَان : « تِلْمِيذٌ يَجْرَحُ أُسْتَاذَهُ !! » ؛ قَالَ فِيه :

﴿ ألقى الأُستاذ السباعي بيومي بدار العلوم مُحاضرةً عن « أُسلُوب المُبرِّد في كامله » في مساء الثلاثاء السابع عشر من هذا الشهر .

ولقد عقَّب على هذه المُحاضرة أحد المُستمعين بمُلاحظاتٍ تُخالف ما ذهب إليه الأستاذ السباعي !! ؛ ويبدو أن المُعقِّب استقى آراءه مما كتب العلاَّمة المرحوم سيِّد بن عليٍّ المرصفيُّ ـ فتملَّكت الأُستاذ المُحاضر عاصفةٌ من الغضب الساخط !! ؛ لا على المُعقِّب ؛ ولكن على المرصفيّ !! ـ فقد وصفه بكثيرٍ من الأخلاق الذميمة !! ؛ كالغلِّ ؛ والحقدِ ؛ والحسدِ ؛ وسطحيَّة البحثِ ؛ والتطاول الذميم !! ﴾.

فَانْبَرَى الدَّكَاتِرَةُ زَكِي مُبَارَك لِلانْتِصَافِ لِشَيْخِهِ المَرْصَفِيِّ ؛ فَكَتَبَ مَقَالاً بِعُنْوَان : « إِلَى الأُسْتَاذ سبَاعِي بَيُّومِي » ؛ جَاءَ فِيهِ :

﴿ ... ؛ فإن كان ذلك الكلام لم يقع منك ؛ فانفه في العدد المُقبل ؛ وإن كان

وقع منك فسارع إلى الاعتذار - إبقاءً على ما بيني وبينك من وداد ؛ فما أستطيع السُّكُوت عن رَجُلٍ يتعرَّض لأخلاق الشيخ سيِّد المرصفيِّ بسُوءٍ !! ولو كان من أعزِّ الأصدقاء !! .

وإلى أن يثبت أنَّ الراوي افتري عليك ؛ أُعلن غضبي على ما بدر منك !! ﴾ .

إِلاَّ أَنَّ الدُّكْتُور السِّبَاعِي مَا رَدَّ وَمَا عَقَّبَ !! ؛ فَغَضِبَ مُبَارَك !! ؛ وَمَا لَبِثَ أَن خَرَجَ عَلَى النَّاسِ بِمَقَالَتِهِ الَّتِى كَانَت بِمَثَابَةِ البِدَايَةِ الحَقِيقِيَّةِ لِهَذِهِ المَعْرَكَةِ ؛ وَالَّتِى جَعَلَ عُنْوَانَهَا : « الهُجُومُ الآثِمُ عَلَى الشَّيْخِ سَيِّد المَرْصَفِى !! » ؛ وَقَد جَاءَ فِيهَا :

﴿ وقد زعم الأستاذ السباعي أن الشيخ المرصفيَّ سرق بعض أفكاره !! ؛ فليستعد للدفاع عن النظريَّة التي نهبها نهباً من كتاب « النشر الفنيّ » ونشرها في مجلَّة « السِّراج » !! . ﴾.

وَبِهَذَا فَقَد أَجْبَرَ الدُّكْتُور السِّبَاعِي عَلَى النُّزُولِ إِلَى سَاحَةِ المَعْرَكَةِ ؛ فَرَأَيْنَاهُ يَنْشُرُ مَقَالَهُ الأَوَّلَ بِعُنْوَانِ « خُصُومَةٌ أَدَبِيَّةٌ » ؛ وَمِمَّا جَاءَ فِيهِ :

﴿ وليعرف الملأ إذ ذاك - إن هو اجترأ على الكتابة بعد كلمتي هاتين - أيُّنا الجاني على الأدب بآثاره !! ؛ وأيُّنا القليل الاطِّلاع !! ؛ الطائش الأحكام في أبحاثه !! . ﴾ .

وَهَكَذَا بَدَأَت المَعْرَكَةُ فِي الاحْتِدَامِ الَّذِى يَدْعُو كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى إِفْرَاغِ كُلِّ مَا بِجُعْبَتِهِ مِن سِهَامٍ كَى لاَ يُفْتَضَحَ أَمَامَ قُرَّاءَ مَجَلَّةِ « الرِّسَالَةِ » النُّبَهَاءِ

الأَلِبَّاء !!

وَكَانَ المَقَالُ التَّالِي لِلدَّكَاتِرَةِ - « الهُجُومُ الآثِمُ عَلَى الشَّيْخِ سَيِّد المَرْصَفِي !! » - ؛ وَالَّذِى جَاءَ فِيهِ :

﴿ وكيف يخيفني تهديد الأستاذ السباعي وليس في ماضيه الأدبيّ غير نقل نصوص كتاب « الكامل » من مكانٍ إلى مكانٍ !! ؛ وتلك مُهمَّةٌ يقوم بها أحد النسَّاخين بدراهم معدودات ؟!! ﴾ .

وَبِهَذِهِ العَبَارَاتِ وَأَشْبَاهِهَا بَدَأَت المَعْرَكَةُ تَحْمِلُ عَلَى وَجْهِهَا مَلاَمِحَ الغَضَبِ وَالشَّرَاسَةِ وَالرَّغْبَةِ فِي الافْتِرَاسِ وَالنَّهْشِ !! ؛ وَقَد رَدَّ السَّبَاعِى بَيُّومِى عَلَى زَكِى مُبَارَكٍ بِمَقَالٍ جَاءَ فِيهِ :

﴿ وهأنت قد اغتررت !! ؛ فكتبت كلمةً ثانيةً تُؤذنني فيها بخصومةٍ تريدها أدبيَّةً ؛ والله أعلم بما تُريد !! ؛ وترميني فيها بفرية السرقة منك ؛ جاهلاً كما ستعلم في كلمتي الثانية أنك أنت الذي افتريت وسرقت !! .

وبعد - فإن وصاتي لك يا صديقي أن تتريَّث !! ؛ فإن في العجلة وبالاً عليك !! ؛ وألا تعود تغترّ بسكوتي عنك !! ؛ فما مثلي ومثلك فيه إلا كما قال الأول :

ما بال من أسعى لأجبُر عظمهُ
حفاظاً وينوي من تطاوله كسري
أظُنُّ خُطُوب الدهر بيني وبينهم
ستحملهم مني على مركبٍ وَعْرِ

وإنّي وإيّاهُم كمن نبَّهَ القَطَا

ولو لم تُنبِّه باتت الطيرُ لا تسري

أناةً وحلماً وانتظاراً بهم غداً

فما أنا بالواني ولا الضرع الغَمْرِ ﴾.

فَكَتَبَ زَكِي مُبَارَك تَحْتَ عُنْوَان «لِيَحْكُم رِجَالُ الأَدَبِ العَرَبِيِّ: السَّبَاعِي بَيُّومِي يَسْتُرُ جِنَايَةَ عَلَى المُبَرِّدِ بِجِنَايَةٍ عَلَى المَرْصَفِيِّ !!» ؛ وَكَانَ مِمَّا قَال:

﴿ وأنا لن أنتظر إلى أن يفرغ الأستاذ من تحبير مقالته الثانية ؛ فما كان أول باحثٍ سَرَق من كتاب «النثر الفنيّ» !! ؛ ولن يكون آخر باحثٍ يسرق من كتاب «النثر الفنيّ» !! ؛ فقد كتمتُ سرقته من كتابي أربع سنين ــ لأني أشعر بالارتياح كُلَّما تذكّرت أن عندي ذخائر يطّلع إليها الناهبون من الفُضَلاء !! .

لن أنتظر !! ؛ لن أنتظر !! ــ فليُواجهني إن استطاع !! ؛ وأنا ماضٍ إليه بقلمٍ أمضى من السيف وأعنف من القضاء !! ؛ ولن أتركه بعافيةٍ أو يعترف بأنه يستر جنايته على المُبرِّد بجنايته على المرصفيِّ !! .﴾ .

ثُمَّ قَال:

﴿ ... ؛ لا تشتمني يا سيِّد سباعي !! ؛ فحسبي ما أُعاني من البلوى بمحنة النقد الأدبيِّ !! ؛ ألا تراني أُحاور أُناساً لا أرتضيهم نُسَّاخاً لمقالاتي ومُؤلّفاتي ؟!!

لقد لامني الناصحون على ما اقترفت من التنازُل إلى مُساجلة بعض الناس !! ؛ فهل تعرف كيف كان جوابي ؟!!

لقد أجبت : بأن الأدب كالعلم ؛ والعالم يُشرِّح جسم الضفدعة كما يُشرِّح جسم الإنسان ـ فمن واجب الأديب أن يفهم أنْ لا عيب في أن يهتم بتشريح ما يُضاف إلى الأدب ؛ ولو صدر عن نكرات !! .

لا تشتمني يا سيِّد سباعي !! ؛ ولا تصفني بالغُـرُور والاجتراء !! ؛ فلو أنك رأيت الدُّنيا بعينيَّ لطاب لك أن تتخلَّق مثل أخلاقي ؛ فما اغتررت وما اجترأت إلا وأنا أعرف أنَّ في الدنيا ناساً أخفُّ وزناً من الهباء !! .

... ؛ لا تشتمني يا سيِّد سباعي !! ؛ فما أملك مُحاسبتك لو أردت الانتصاف لنفسي !! ؛ وماذا أقول في تجريحك ولستَ بشاعرٍ ولا كاتبٍ ولا مُؤلِّفٍ ولا خطيب ؟!! ﴾.

وَهَـكَذَا تَجَلَّى الطَّعْنُ الصَّرِيحُ الَّذِى لاَ يَحْمِلُ إِلاَّ عَلَى مُبَادَلَتِهِ بِمِثْلِهِ أَوْ أَشَدَّ منه !!

ثُمَّ أَحَسْنَ الدُّكْتُور زَكِي مُبَارَك صُنْعاً ؛ إِذ دَلَفَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ إِلَى النِّقَاشِ العِلْمِيِّ ؛ فَأَخَذَ فِي نَقْدِ « تَهْذِيب الكَامِل » لِلدُّكْتُور السَّبَاعِي ؛ فَقَال :

﴿ ١ ـ في « تهذيب الكامل » ؛ [جـ٢ / صـ ٢٦٢] ؛ قال الأخطل :

نازعتهم طيب الرَّاح الشمول ؛ وقـد

صاح الدجاج وحانت وقعة الساري

ولم يلتفت السباعي إلى التحريف في « نازعتهم » ؛ وقد التفت إليه المرصفيُّ ؛ فنصَّ على أن الصواب « نازعته » ؛ لأنَّ الأخطل يقول قبل هذا البيت:

وشاربٍ مزيجٍ بالكأس نادمني
لا بالحَصوُر ولا فيها بسوَّارِ

... ؛ ٩ ـ في « تهذيب الكامل » ؛ [جـ٢ / ص٣١٥] : قال رَجُلٌ من بني عبس يخُاطب عروة بن الورد :

لا تشتُمنِّي يا ابن وردٍ ؛ فإنني
تعود على مالي الحقوق العوائدُ
ومن يُؤثر الحقَّ النؤوب تكُن به
خصاصة جسمٍ وهو طيان ماجدُ
وإنِّي امرؤٌ عافى إنائي شِركةٌ
وأنت امرؤٌ عافي إنائك واحدُ
أُقسِّم جسمي في جُسُومٍ كثيرةٍ
وأحسو قراح الماء والماء باردُ

والسياق الذي أورده الأخفش وغفل عنه السباعيُّ يُوهم أن الأبيات الأربعة من شعر ذلك العبسيِّ ـ والصواب أن العبسيَّ لم يقُل غير البيتين الأولين ؛ أما البيتان الأخيران فهما جواب عروة بن الورد ؛ وقد نقل الشيخ المرصفيُّ [جـ١ / ص١٩٥] : أن عبد الملك بن مروان كان يحفظ لعروة الأبيات

الأخيرة ؛ وثانيها هذا البيت :

أتهـزأ منِّي أنْ سمنتَ وأن ترى
بجسمي شُحُوب الحقِّ ؛ والحقُّ جاهدُ ؟!!

فإن ارتاب الأُستاذ السباعي في تصحيح الشيخ المرصفيِّ ـ فليرجع إلى « ديوان الحماسة » : في باب الأضياف والمديح ؛ ليرى هذه الأبيات الأخيرة منسوبة إلى عروة بن الورد ؛ والمفهوم أن « ديوان الحماسة » مما يحفظه الطلبة بمدرسة دار العلوم !!

ثم أما بعد ـ فهذا هو المنهاج الذي سنسلكه في بيان فضل المرصفيِّ على السباعيِّ !! ؛ وعلى جميع من يقرأون « الكامل » للمُبـرِّد !! ؛ وسنرى فيما بعد غرائب وأعاجيب من غفلة السباعيِّ عن فهم أغراض المُبرِّد .

... ؛ وإن طال الشوط ـ وسيطول ـ : فسيندم السباعي على ما اجترح من ستر جنايته على المُبـرِّد بجنايته على المرصفيِّ !! . » .

ثُمَّ حَانَ مَوْعِدُ مَقَالِ الدُّكْتُور السِّبَاعِي ؛ فَرَأَيْنَاهُ أَعْرَضَ عَن مُنَاقَشَةِ مُبَارَك فِي مُؤَاخَذَاتِهِ وَكَأَنَّهُ مَا وَجَدَ جَوَابَاً يَرُدُّ بِهِ ؛ إِلاَّ أَنَّهُ نَاقَشَهُ حَوْلَ جَانِبٍ آخَرٍ مِن جَوَانِبِ اتِّهَامَاتِهِ ؛ وَكَانَ مِمَّا قَال :

« وجَّه إليَّ صديقي الدكتور زكي مبارك كلمةً بعدد « الرسالة » رقم [٣٩٦] ؛ كان مما ذكره فيها قوله :

« وقد زعم الأستاذ السباعي أن الشيخ المرصفيَّ سرق بعض أفكاره ؛ فليستعد للدفاع عن النظريَّة التي نهبها نهباً من كتاب (النثر الفنيّ) ونشرها

في مجلّة (السِّرَاج) .)) . !!

فهالني من صديقي أن يهفو تلك الهفوة !! ؛ بل أن يسقط تلك السقطة !! ـ لأنه بنى هذا الزعم الفاسد على شيءٍ سطحيٍّ ظاهريٍّ لا يأخذ به مُحَقِّقٌ ولا يغترُّ فيه باحثٌ !! ـ ذلكم هو أنه رأى تاريخ العدد الذي نشرت فيه تلك النظرية بمجلّة ((السِّراج)) لاحقاً لتاريخ نشر كتابه المذكور ؛ ناسياً أنها ثابتةٌ لي قبل تاريخ هذا النشر بزمنٍ طويلٍ !! ؛ فادَّعى أني نهبت وسرقت !! ؛ وهأنذا باسطٌ هذه المسألة للقارئين بسطاً يجعلهم يُوقنون أن صديقي هو الذي نهب وسرق !! ؛ ثم أبى إلا أن يصحب ذلك بجاهٍ عريضٍ من الادِّعاء والتطاول على رجالات الأدب قُدماء ومُحْدثين !! ـ وإلى حضراتهم البيان : ... ؛ ﴾ .

ثُمَّ قَال :

﴿ وليسمح لي صديقي أن أُعيد على مسمعه ما سبق أن رميته به من قلّة الاطلاع !! ـ فإن ذلك النصَّ التاريخيَّ لم يكُن هو الذي كشف عنه !! ؛ وكيف وقد كان نصّاً معروفاً مُتداولاً ؛ نقله كثيرٌ من الأقدمين تدليلاً على أن البديع لم يكُن المُنشئ الأول للمقامات ؛ كابن خلِّكان وياقوت في كتابيهما ((وفيات الأعيان)) و ((مُعجم الأُدباء)) ؛ وكالشريشيِّ في شرحه لمقامات الحريريِّ !!.

... ؛ ـ وأنه بهذا الكشف عن ذلك الكنز ((كنز توت عنخ آمون)) قد أصبح فارس ميدانٍ ؛ أو فارس الميدان !! ؛ وإذن : فليجل ويصل وليمش في الأرض

مرحاً حتى يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولاً !! ؛ ثم ليستمع الناس له مُرغمين ساكتين وهو يقول بعد القول الذي فنَّدناه :

« ولم أجد فيمن عرفتُ من رجال النقد من ارتاب في سبق بديع الزمان إلى هذا الفنِّ ـ وإنما رأيت من يُعلِّل سبقه بنزعته الفارسيَّة » .

جاهلاً أن رجال النقد يأبون عليه ذلك إن كان قد عرفهم !! ؛ فإن تلك النظرية التي يزعم كشفها بيده وتقديمها للأُدباء مُخترعةً ببحثه ـ معروفةٌ للأُدباء الحديثين ؛ ومدروسةٌ منهم للمُتأدِّبين !! ؛ وها نحن أولاء أبناء دار العلوم فتحنا عيوننا أول ما درسنا الأدب بتلك الدار على هذه النظرية المزعوم كشفها وتلقيناها على أيدي أساتذتها في العُشر الأول من هذا القرن الذي أوشك أن ينتصف ـ أي مُنْذُ أربعين من السنوات ـ !! .

... ؛ والذي لا شكَّ فيه بعد هذا البيان : أنك كذبت على القُدماء !! ؛ واغتصبت جُهُود المُحدثين !! ؛ ثم لم تتسلَّل لُواذاً ولم تخلص نجيَّاً كما يفعل السارقون !! ؛ ولكن أبيت إلا أن تُهلِّل وتُكبِّر !! ؛ وتتعالى وتتجبَّر !! ؛ ثم تُغنِّي بالزهو بنفسك !! ؛ واجتذاب الإعجاب بك من غيرك !! ؛ وإذا بالحقِّ يصرعك وينتقم للأدب والجماهير منك !! .

وإنِّي أستحلفك بالله يا صديقي صادقاً !! : كيف وصفت نفسك إزاء ما سمَّيتها نظريةً وهي من البدهيَّات بما وصفت ؟!! ؛ أكان ذلك عن جهلٍ منك إلى هذا الحدِّ ؟!! ؛ أم هو تغريرٌ وادِّعاءٌ ليس من بعده بعد ؟!!

... ؛ وبعد ـ فقد آن لي أن أكِرَّ راجعاً على كلمتك التي رميتني فيها

بالسرقة منك بعد أن قبضت عليك مُتلبِّساً بالسرقة التي ادَّعيت ؛ فأُعلِّق على باقي ما ذكرت فيها بعباراتٍ خاطفةٍ ـ إن شئتُ بسطتُ كُلَّ عبارةٍ منها في مقالٍ كالذي سمعت ـ :

١ ـ جعلت عنوان كلمتك « الهجوم الآثم على الشيخ سيِّد المرصفيِّ » ـ وهذا أمرٌ غبت عنه ولم تشهده !! ؛ فكيف أقدمت عليه قبل أن ينجلي لك ؟!!

وإذا سوغ لك تطاولك أن تُسمِّيه هجوماً ؛ فكيف وصفته مُتسرِّعاً بالآثم ؟!! ؛ فكنت الآثم بما وصفت !!

٢ ـ تزعم أن الخطابات قد كثُرت عليك في تحقيق ما ادَّعيته عليَّ في حقِّ الشيخ المرصفيِّ !! ؛ وأنا أجزم قاطعاً ؛ وأحلف غير حانثٍ : أنه لا خطابات !! ـ وإذا كانت ؛ فإنها لا تعدو ركب النُّميريِّ الذي قال فيه :

فلمَّا رأت ركب النُّميريِّ أعرضت
وكُنَّ من أن يلقينه حذراتِ

فلمَّا سُئِلَ فيما كُنْتَ ؟!! ؛ قال : والله إن كُنْتُ إلا على حمارٍ هزيلٍ ؛ ولي رفيقٌ على أتانٍ مثله !! .

٣ ـ تقول : « وكُنتُ ـ أي لولا تلك الخطابات ـ أغفلت هذا الموضوع عن عمدٍ ؛ لأن الأستاذ السباعي له عليَّ حُقُوق » .

وما كُنْتُ أفهم إلا أن تلك الحقوق ؛ إنما هي حقوق الصداقة ؛ فإني لا زلت بها حفيّاً وعليها حريصاً ؛ ولكنك جعلتها يا صديقي : « أنني كُنتُ

دائماً من أنصارك)) !! ؛ وليس لمثلي أن ينخدع بخُدعة الصبيِّ هـذه تسوقها إليه !! ؛ فالحقيقة المُرَّة التي أُسمعك إيَّاها الآن بعد أن طغيت زماناً ولم تُرَد : أنك ما كُنتَ في يومٍ زعيماً في الأدب حتى يصحَّ أن يكون لك أنصار !! وإنما زعامتك نسج عنكبوتٍ حكته من حولك !! ؛ وتركك الناس تلهو به وتلعب !! .

ثم زدت هذه العلَّة أُخرى تقول فيها : ((ولأنَّ مقام الشيخ المرصفيِّ أقوى من أن يُهدم بكلمةٍ جارحةٍ تُساق إليه في إحدى المُحاضرات)) .

وإنِّي أُحذِّرُكَ جريئاً على تحذيرك إن كُنت تُريدها خُصُومةً أدبيَّةً بيني وبينك : أن تترك الآن الشيخ المرصفيَّ !! ؛ فإن التحكُّك به لن يُغني عنك بالموضوع شيئاً !! ؛ وإذا ما صُفِّيَ الحساب بيننا عُدتُ أُبيِّن لك أن مكانة الشيخ المرصفيِّ لا تعلو على النقد !! ؛ وأن الذي يصفه ببعض ما وصف به المُبرِّد لا يكون قد عدا الحقيقة !! ؛ ولا تعدِّي على السلف الصالح !! ؛ فإنَّ المُبـرِّد على أيَّة حالٍ أعلم من المرصفيِّ علماً ؛ وآدب منه أدباً ؛ ثم هو أدخل منه في السلفيَّة الصالحة دُخُولاً يقوم شاهداً عليه عددٌ وافرٌ من القرون .

... ؛ أما رأيي لك عن الأمر الثاني ـ فقد أنبأتك آنفاً بإرجائه إلى ما بعد كلمتي هذه والسابقة ؛ لأنه موضع الخُصُومة ؛ وفيه سيكون النِّزال ؛ وإنِّي بهذه الخصومة لجدُّ مسرور !! ؛ أتدري لماذا ؟!! ؛ لأني سأعرضك فيها للجمهور على حقيقتك التي غشيتها ما غشيتها !! ؛ وتسامح الناس فيها معك ما تسامحوا !! .

وسيكون أول كشفٍ لك فيما عملت ؛ واقعاً على « زهر الآداب » - إن شاء الله - ؛ لأنه دُون سائر أعمالك أشبه بما عملتُ في « تهذيب الكامل » الذي عددته جنايةً أدبيَّةً !! ؛ حتى إذا ما أخرجتك بمقالاتي فيه مُعترفاً لي ببراءتي من هذه الجناية ؛ ومُعترفاً على نفسك بإجرامك على « الزهر » !! ؛ وصاحبه !! ؛ وعلى الأدب !! - انبريتُ إلى تصانيفك - التي لا شبه لها عندي إلا أفراخ البُغاث كثرة عددٍ وقلّة غناءٍ !! - أرُدُّ ما ليس لك فيها - وهو أكثرها - ؛ إلى مآخذه ؛ ذاكراً ما أُوقعت فيه من تحريفٍ ؛ وأُبيِّن زيف ما هو من صُنع يدك - وهو القليل - ؛ بما لا مخرج لك منه أمام الناس لا أمام نفسك !! .

... ؛ ٦- بقيَ قولك في نهاية كلمتك : إنك تكره البغي على أصدقائك ؛ وإن أمرك معهم لم يكُن إلا شبيهاً بأمر أكثم بن صيفيٍّ « إنَّ قول الحقِّ لم يدع لي صديقاً » .

وما كان أكثم لك بشبيهٍ !! ؛ فإنَّ الذي لم يدع لك صديقاً إنما هو دأبك على الباطل في كثيرٍ مما تبحث !! ؛ وبغيك على حقِّ الصديق في جُلِّ ما تنقُد !! ؛ حتى لقد أمللت ومللت !! .) .

وكَانَ هَذَا رَدّاً قَوِيّاً مِنَ الدُّكْتُور السَّبَاعِى !! ؛ جَعَلَ المُبَارَكَ يَشْعُرُ أَنَّهُ أَمَامَ خَصْمٍ قَوِىٍّ عَنِيفٍ ؛ وَإِن كَانَ هَادِئاً سَاكِنَاً فِي ظَاهِرِ أَمْرِهِ !!

وَجَاءَت مَقَالَةُ زَكِى مُبَارَك ؛ يَرُدُّ بِهَا ؛ يَنْفِى التُّهْمَةَ عَن نَفْسِهِ ؛ وَيُحَاوِلُ إِثْبَاتَ أَنَّهَا لاَ تَلْحَقُ إِلاَّ بِصَاحِبِهِ الَّذِى يُسَاجِلُهُ ؛ وَمِمَّا رَدَّ بِهِ :

(ثم ماذا ؟!! ؛ ثم وجدتَ الفُرصة للتخلُّص من تُهمة السرقة من كتاب

« النثر الفنيّ » فيما يتصل بنشأة فنِّ المقامات في الأدب العربيِّ ـ لأن كتاب « النثر الفنيّ » ظهر في سنة ١٩٣٤ ؛ وأنت ـ فيما تزعم ـ أعلنت هذا الرأي في سنة ١٩٣٣ ؛ فهل تُصدِّق في سريرة نفسك أنك نجوت من صولة الحقِّ ؟!!

وهل تظُنُّ أن الأسانيد المُدوَّنة في مقالاتي ومُؤلَّفاتي غير قديرةٍ على إلقاء تُهمة السَّرقة فوق منكبيك بصورةٍ لا تُبقي لك فُرصةً من فُرص المُكابرة والروغان ؟!!

إليك أسوق البراهين التي تقطع بأن الشيخ الإسكندريَّ نقل عني !! ؛ والتي تجزم بأنك سرقت من كتابي !!

والحمد لله الذي أتاح هذه الفُرصة !! ـ ليعرف تلاميذك بدار العلوم أنك تُقدِّم إليهم معارف أدبيَّةً لم تَشْقَ في تحصيلها لحظةً أو لحظتين !! ؛ وإنما نهبتها في الخفاء !! ؛ ولم تكُن تعلم ـ لسوء حظِّك ـ أن الحقوق تُرَدُّ إلى أصحابها ؛ ولو بعد حين !!

... ؛ ثم أذكر أن الأستاذ أحمد الزين أرسل إليَّ خطاب ثناءٍ بعد قراءة مقالي في « المقتطف » ؛ وأحمد الزين كان يُسمر كل ليلةٍ مع الشيخ محمد عبد المطلب ـ فلو كان من الصحيح أن أبناء دار العلوم كانوا يعرفون جليَّة هذا الأمر مُنْذُ بداية القرن العشرين : لكان من الواضح أن يفهم الأستاذ الزين أن مقالي في (المقتطف) لم يأت بجديدٍ حتى يستوجب خطاب ثناء !! .

... ؛ أتركُ هذا الجدال ـ لأُوجِّه الكلام إلى الدكتور عبد الوهَّاب عزَّام ـ وكان ألقى مُحاضرتين عن بديع الزمان في سنة ١٩٣٤ ـ فقد حدَّثني أمام

جماعةٍ من أساتذة الجامعة المصريَّة: أنه اعتمد على كتاب «النثر الفنيّ» في النظريَّة التي تقول: بأن بديع الزمان نقل فنَّ المقامات عن ابن دُريد؛ فكيف غاب عن الدكتور عزَّام أن أبناء دار العلوم نشروا هذه النظريَّة قبل عشرات السنين ؟!!

أما بعد ـ فقد ظهر أن الأستاذ السباعي بيُّومي سَرَق من كتاب «النثر الفنيّ» ما سرق !! ؛ وتبيَّن للجمهور أنه يُقدِّم لتلاميذه زاداً نهبه من كتابي بدون استئذان !! ؛ ولست من الملائكة حتى أسكت عمَّن يسرق منِّي مُنْذُ أكثر من أربع سنين !!

... ؛ لو كان يعقل لعرف أن السرقة من كتاب «النثر الفنيّ» لا تغُضُّ من أقدار الرِّجَال !! ؛ لأن كتاب «النثر الفنيّ» كالشمس !! ؛ يعيش في ضيائها أرباب الوفاء ؛ كما يعيش أصحاب العقوق !! .

السباعي يُهدِّد ويُهدِّد بنقد مُؤلَّفاتي !! ؛ وهو من فضلها يعيش !! ؛ فهل رأيتم أقبح وأشنع من هذا الكُفران ؟!! ﴾ .

وكَانَ هَـذَا رَدّاً قَوِيّاً أَيْضَاً ؛ إِلاَّ أَنَّ الدُّكْتُور السِّبَاعِي كَرَّ عَلَى المُبَارَكِ بِمَقَالٍ وَسَمَهُ بِـ: «خُصُومَةٌ أَدَبِيَّةٌ رَضِيتُ فِيهَا الأُدَبَاءَ حَكَمَاً: زَكِي مُبَارَك يَكْتُبُ كَثِيراً وَلا يَقُولُ شَيْئَاً» ؛ جَاءَ فِيهَا:

﴿ ويظهر يا دُكتور أن هذا الصديق من الخُبثاء الظُّرفاء الذين عرفوا فيك ما قرَّره ابن المُقفَّع: من أنَّ عُجب المرء بنفسه أرحب بابٍ يدخل عليه منه الضاحك عليه والمُضلِّل له !! .

فهو قد أضللك !! ؛ وضحك عليك بما تخيَّل فتحقَّق !! ؛ وما كان لشيءٍ من مقالاتك أن يكون من موضوعات الدروس في دار العلوم !! ؛ ولو حدث لما سُمِّيت « دار العلوم » !! .

... ؛ ثم إني لشاكرٌ لك جذبي إلى التحرير ؛ وغير طامعٍ في رفق أُسلوبك ؛ بل راغبٌ مُلِحٌّ في أن تُريني ما تزعمه لقلمك من أنه تطير من أسلاته شظايا الشدَّة والعُنف ؛ حتى أُعلِّمك - إن لم تكُن علمت - أن مثل قلمك أمامي مثل بنادق الأطفال - تسمع لطلقاتها دُويّاً ؛ ولا ترى لها كَلْمَاً !! .

... ؛ تقول أنك لن تصفح عنِّي - أو أشتغل مُحرِّراً مُتطوِّعاً بـ « الرسالة » ثلاث سنين ؛ وما هذا لي بالتهديد !! ؛ فما أنا ممن يضيرهم التحرير !! ؛ ولا ممن تعوَّدوا أخذ أجرٍ على ما يكتبون !! (١) ؛ لأني أكتب للكتابة ؛ لا طمعاً في مالٍ !! ؛ ولذلك يصدر ما أكتب في غير كلفةٍ ولا إكراه !! .

وتقول إن خصومتك لي محنةٌ صُبَّت عليَّ من شاهقٍ !! ؛ وتطلب منِّي أن أتحمَّلها صابراً !! ؛ وأنها لا تنتهي قبل بداية مايو .

وليس مثلك معي في هذا التهديد إلا مثل القُبـرَّة التي وقعت على رأس

---

(١) - قَوْلُهُ : « ولا ممن تعوَّدوا أخذ أجرٍ على ما يكتبون !! » ؛ يُعَدُّ مِن بَابَةِ الطَّعْنِ وَالتَّشْهِيرِ بِالدُّكْتُور مُبَارَك !! ؛ لأَنَّهُ كَانَ يَتَقَاضَى أَجْرَاً عَلَى مَقَالاَتِهِ فِي « الرِّسَالَة » .

فيل ؛ فلما أرادت أن تطير ؛ قالت له : إني مُخَفِّفَةٌ عنك وطائرةٌ ؛ فقال : والله ما علمت بك نازلةً حتى أشعر بتخفيفك طائرةً !! .

... ؛ وعلى هذا الغِرَار من قرع طبلك تقول عنّي :

(فليُواجهني إن استطاع وأنا ماضٍ إليه بقلمٍ أمضى من السيف وأعنف من القضاء !! .)) . !! .

ستعرف أيُّنا الذي يستطيع !! ؛ وأيُّنا الذي سيكون قلمه أمضى من السيف !! ؛ أما أن قلمك أعنف من القضاء !! ؛ فمعاذ الله أن أشاركك هذا الكُفران !! ؛ وقد علمت عن ابن دُريد الذي تحدَّثتَ عنه في نظريتك المزعومة : أن تلميذه أبا عليٍّ القالي ؛ قال : ((لَمّا أُصيب بالفالج ؛ كُنْتُ أدخل عليه ؛ فيتألّم من دخولي !! ؛ فأقول : إن الله تعالى لم يبتله بذلك إلا عقاباً على قوله يخُاطب الدهر ـ وليس الدهر إلا الله :

مارستُ من لو هَوت الأفلاك من

جوانب الجوِّ عليه ما شكا !! . !! .)) . !! .

... ؛ وأخيراً ـ تُكثر من هذه الجملة : ((لا تشتمني يا سيِّد سباعي !!)) ؛ مُعقِّباً إيَّاها بتعاليلٍ هي الأباطيل !! ؛ فالشاتم أنت !! ؛ وأنا عن الشتم بعيد !! ؛ وإذا كُنتَ تلحن لي في ذلك بأنك ((شتَّيم)) !! ؛ فأنا ألحن لك ((بأني بشر بن عوانة)) !! ؛ وهاك تعليلاً منها ليس من الشتم ؛ ولكن الشتم منه هو قولك لي : ((فما أملك محُاسبتك لو أردت الانتصاف لنفسي !! ؛ وماذا أقول في تجريحك ولستَ بشاعرٍ ولا كاتبٍ ولا مُؤلِّفٍ ولا خطيب !!)) !! ؛ وأنا أقول

إن لك في هذا أن تجُاب :

فأما الشعر ـ فلو رضيتُ لنفسي ما قُلته كما رضيت أنت ما قُلت ؛ لسويته ديواناً كما سوَّيت !! ؛ ولوقعت في الشَّرَك كما وقعت !! ؛ فقد اغتررت في طبع ديوانك بضحك من غرَّرُوا بك !! ؛ وخالفت قول من نصحوا لك !! وما ديوانك بشعر شاعرٍ !! ؛ ولكنَّه تجميع ناظم !! .

وأما الكتابة ـ فها نحن في ميدانها على صفحات « الرسالة » نجول ؛ وسيُصدر الجمهور ـ إن لم يكُن أصدر ـ حُكمه فيها عمَّا قريب !! .

وأما التأليف ـ فقد عرفت من عملي فيه « تهذيب الكامل » !! ؛ وستعرف غيره من مُؤلَّفاتي متى انتهيت منها ؛ وناقشنا فيه الآن ؛ فاثبت ولا تفـر من الميـدان !! .

أما الخطابة ـ فرأيي لك فيها يا دكتور أن نتلاقى في حلبتها أمام جمعٍ من الأُدباء وجمهرةٍ من السامعين ؛ ويُقترح على كلينا التكلُّم بُداهةً وارتجالاً في موضوعٍ عامٍّ من أدبٍ أو اجتماع ؛ فهُنالك ؛ وهُنالك فقط ـ ولست مُزكِّياً نفسي ؛ ولكني مُدافعٌ عنها ـ: تجد بحراً يغمرك !! ؛ وأمواجاً تقطعك وتبهرك !! ـ فتندم طالباً النجاة ؛ ولات حين مناص !! . ﴾ .

وَهُنَا بَاتَ النَّاسُ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ قُوَّةَ السِّبَاعِى تُجَاوِزُ قُوَّةَ الدُّكْتُور مُبَارَك ؛ وَتَجَلَّى ذَلِكَ حِينَمَا خَرَجَ الدُّكْتُور زَكِى مُبَارَك عَلَى القُرَّاءِ بِهَذَا المَقَال :
﴿

✿ ـ خُصُـومَـةٌ ... لا عَـدَاوَةَ !!

رأى جماعةٌ من كبار المُفتِّشين ؛ وهم الأساتذة : جاد المولى بك ؛ ومحمد علي مصطفى ؛ ومحمود محمد حمزة ؛ ومصطفى أمين ؛ وأحمد علي عبَّاس ـ رأى هؤلاء الأكابر بأخلاقهم وآدابهم أن أقف الجدال الذي أثرتُهُ في وجه الأستاذ السباعي بيُّومي ـ وَحُجَّتُهُم أنه وصل إلى درجاتٍ من العُنف تؤذي كرامة المُشتغلين بخدمة اللُّغة العربيَّة !! .

وأنا أُجيب هذه الدعوة ـ لأنها أوَّل دعوةٍ كريمةٍ صدرتْ لكفِّ الشَّرِّ بيني وبين من أُخاصمهم بقلمي لا بقلبي ؛ فلم أسمع مثل هذا الصوت يوم خاصمتُ رجالاً أعزَّاء لم يكُن يسُرُّني أن يفصم القلم ما بيني وبينهم من عُهُود !! .) .

.....

وَهَكَذَا نَرَى فِي الدُّكْتُورِ السَّبَاعِى فَارِسَاً صِنْدِيداً !! ؛ ظَلَّ مَعَ خَصْمِهِ يُسَاجِلُهُ وَيُبَارِزُهُ ؛ حتَّى رَأَيْنَا الدَّكَاتِرَةَ زَكِى مُبَارَك ـ وَلأَوَّلِ مَرَّةٍ ـ يَضْعُفُ أَمَامَ خَصْمِهِ !! ؛ ثُمَّ تَخُورُ قُـوَاهُ !! ؛ ثُـمَّ يَفِـرُّ مِـنَ المَيْـدَانِ مُعْلِنـاً أنَّـهُ لاَ طَاقَـةَ لَـهُ بِمُوَاصَلَةِ المُجَالَدَةِ !! ؛ بَيْنَمَا نَرَى قَرِينَهُ الَّذِى أُجْبِرَ عَلَى خَوْضِ المَعْرَكَةِ وَمَا كَانَ هُوَ الَّذِى دَعَا إِلَيْهَا مَا يَزَالُ صَامِداً ثَابِتاً لَم يَبْرَح مَوْضِعَه !! .

وَلَقَد تَبَيَّنَ مِن خِلاَلِ هَذِهِ المُسَاجَلاَتِ أَنَّ الدُّكْتُور السَّبَاعِى كَانَ أَفْصَحَ بَيَاناً ، وَأَقْوَى مَنْطِقاً ، وَأَطْوَلَ نَفَسـاً ، وَأَوْسَعَ صَبْـراً ؛ وَأَنَّهُ مَا كَانَ يُطِيـلُ فِـي الكَلاَمِ كَصَاحِبِهِ ؛ إِلاَّ أَنَّهُ كَـانَ يُقْنِـعُ وَيُرْدِعُ ؛ هَـذَا مَـعَ أَنَّنَـا لاَ نُنْكِـرَ مَـا كَـانَ لِلدُّكْتُور زَكِى مِن سِهَامٍ نَافِذَةٍ قَاتِلَةٍ ؛ فَهُوَ وَإِن سَقَطَ فِي النِّهَايَةِ ؛ إِلاَّ أَنَّ

فُرُوسِيَّتُهُ وَبُطُولَتُهُ فِي هَذِهِ المَعْرَكَةِ لاَ تُنْكَرُ وَلاَ تُدْفَعُ .

قَالَ أَنْوَرُ الجِنْدِي فِي كِتَابِهِ «المَعَارِكُ الأَدَبِيَّةُ»:

« هَذِهِ مَعْرَكَةٌ مِن أَقْسَى المَعَارِكِ الَّتِي خَاضَهَا الدُّكْتُور زَكِي مُبَارَك !! ؛ وَلأَوَّلِ مَرَّةٍ صَادَفَتْهُ الهَزِيمَةُ !! ؛ إِذْ وَاجَهَ لأَوَّلِ مَرَّةٍ [هُجُوماً] أَقْسَى وَعُنْفاً أَشَدَّ ـ مِن مُنَاظَرَةِ الأُسْتَاذِ السِّبَاعِي بَيُّومِي ؛ الَّذِي كَانَ قَوِيَّ العَارِضَةِ فِي مُوَاجَهَةِ سِجَالِ زَكِي مُبَارَك ؛ مِمَّا حَمَلَهُ عَلَى أَن يَفِرَّ سَرِيعاً مِنَ المَعْرَكَةِ وَيَلْجَأَ إِلَى الصُّلْحِ !! » . (١).



(١) ـ مكتبة الأنجلو المصريّة ؛ ط: ١٩٨٣م .

المقالات



.....

✿ - تِلْمِيذٌ يَجْرَحُ أُسْتَاذَهُ !!
- مُحَمَّد فَهِيم عُبَيْد -

.....

ألقى الأُستاذ السباعي بيومي بدار العلوم مُحاضرةً عن « أُسلُوب المُبرِّد في كامله » في مساء الثلاثاء السابع عشر من هذا الشهر .

ولقد عقَّب على هذه المُحاضرة أحد المُستمعين بمُلاحظاتٍ تخُالف ما ذهب إليه الأستاذ السباعي !! ؛ ويبدو أن المُعقِّب استقى آراءه مما كتب العلاَّمة المرحوم سيِّد بن عليٍّ المرصفيُّ - فتملَّكت الأُستاذ المُحاضر عاصفةٌ من الغضب الساخط !! ؛ لا على المُعقِّب ؛ ولكن على المرصفيِّ !! - فقد وصفه بكثيرٍ من الأخلاق الذميمة !! ؛ كالغلِّ ؛ والحقدِ ؛ والحسدِ ؛ وسطحيَّة البحثِ ؛ والتطاول الذميم !! ؛ ثم تعدَّاه إلى تجريح طوائف العُلماء على اختلاف مهنهم !! ؛ والحُكم بأن طبائع الحسد والحقد والغيرة لا تجد لها مراحاً خصيباً كالذي تجد من قُلُوب العُلماء !! .

ولست أدري ما الدافع إلى كُلِّ هذا ؟!! ؛ وكان يكفي الأستاذ أن يدفع الرأي بالرأي في هدوءٍ ؛ لا أن يتعرَّض لمثل ذلك الرَّجُل الجليل بمثل ما تعرَّض به له !! ؛ حتى لقد حكم بأن أخلاقه ذهبت بفضله كما تذهب الريح

(١) - العدد : ٣٩١ - بتاريخ : ٣٠ - ١٢ - ١٩٤٠ : البريد الأدبيّ .

العَصُوف بسحيق التُّراب !! .

وإنه ليحُـزنني جـدّ الحُـزن أن أرى مثل الأستاذ في علمه وفضله ومكانته يتناول السَّلف الصالح من الباحثين بمثل هذا الأسلوب العنيف من غير سببٍ ولا بيِّنةٍ !! ؛ فإن في هذا نُكراناً للجميل !! ؛ وجُحُوداً للفضل !! .



.....

✿ - إِلَى الأُسْتَاذ سِبَاعِي بَيُّومِي
- لِلدُّكْتُور زَكِي مُبَارَك -

.....

نشرت «الرسالة» كلمة بإمضاء «محمد فهيم عبيد» عن كلامٍ وقع منك وأنت تُحاضر عن المُبَرِّد بمدرسة دار العلوم - فقد تحدَّثت عن أخلاق الشيخ سيِّد المرصفيِّ بما لا يليق !! - فإن كان ذلك الكلام لم يقع منك ؛ فانفه في العدد المُقبل ؛ وإن كان وقع منك فسارع إلى الاعتذار - إبقاءً على ما بيني وبينك من وداد ؛ فما أستطيع السُّكوت عن رَجُلٍ يتعرَّض لأخلاق الشيخ سيِّد المرصفيِّ بسُوءٍ !! ؛ ولو كان من أعزِّ الأصدقاء !! .

وإلى أن يثبت أنَّ الراوي افتري عليك - أُعلن غضبي على ما بدر منك !! - فقد كُنْتُ أظنُّ أنك تعرف أن الشيخ سيِّد المرصفيِّ له تلاميذه الذين يحفظون عهده الوثيق !! .

وسنرى كيف تُجيب إن كُنْتَ قد وقعت في العدوان على ذلك الرَّجُلِ العظيم !! .



---

(١) - العدد : ٣٩٢ - بتاريخ : ٦ - ١ - ١٩٤١ : البريد الأدبيّ .

.....

۞ـ بَحْثٌ ... لا تَجْرِيح !!
ـ الأُستاذ عَبْدُ الرَّحْمَن أيُّـوب ـ

.....

عزيزي الأُستاذ الزيَّات:

بعد التحيَّة ـ أرجو أن يتسع عدد « الرسالة » القادم لردٍّ أطلعني عليه اليوم: عبد الرحمن أفندي أيُّوب الطالب بدار العلوم؛ على التعليق الذي نُشِرَ في عدد (الرسالة) الماضي على مُحاضرتي « أُسْلُوبُ المُبَرِّدِ فِي كَامِلِهِ » .

ولك الشكر

السِّبَاعِي بَيُّومِي

.....

مسألة المرحوم المرصفيِّ لم تبلُغ من الأمر ما وُصِفَ !! ؛ وبفرض ذلك ـ فَمُنْذُ متى كان المرصفيُّ من المُقدَّسين الذين لا تجوز تخطئتهم ولا نقدهم ؟!! ؛ وإذا كان لتقدُّمه في الزمن سلفاً صالحاً ـ كما يُعبِّرُ الكاتب ـ مبرأ من العيوب ؛ أفليس من بابٍ أولى أن يكون المُبرِّد ـ تبعاً لهذا القياس ـ أصلح منه وأقوى لُغةً وأدباً وعلماً كما هو الواقع ؟!! ؛ يُزيِّنُ كُلَّ هذا تواضعٌ واعترافٌ بأن هذا أمرٌ لا يعرفه إذا لم تكُن له به سابقة علمٍ ؛ بينما يُعبِّرُ المرصفيُّ بقوله: «كَذِبَ

.(١) ـ العدد: ٣٩٢ ـ بتاريخ: ٦ ـ ١ ـ ١٩٤١: البريد الأدبيّ .

المُبـرِّد في هذا)) ؛ و ((المُبـرِّد في هذا كاذب)) !! ؛ دُون تورُّعٍ عن هذا التعبير الجاف الجافي !! .

إن الأستاذ السباعي لم يقُل عن المرصفيِّ إلا أنه كان يملكه الغرور ؛ والمرصفيُّ ذاته يُسجِّل على نفسه هذا في كُلِّ ما كتب !! ؛ خاصَّـةً في مقدمة ((رغبة الآمل)) و ((أسرار الحماسة)) ؛ وكأنه لا يعترف لأحدٍ سواه بعلمٍ من المُتقـدِّمين أو المُتـأخِّـرين !!.

والأستاذ السباعي في حديثه عن المبرد وما يتصل به ـ إنما يصدر في ذلك عن دراسةٍ بعيدة الأمد ؛ فهو قـد كتـب ((تهـذيب الكامـل)) مـن أكثر مـن عشرين سنة ؛ ثم كانت طبعته الأولى سنة ١٩٢٣ ؛ فهـل يستطيع الزميـل أن يُريني مظاهر الأُستاذيَّة بعد أن يعلم أن الطبعة الأولى من ((رغبة الآمل)) كانت سنة ١٩٣٠ ؟!! ؛ وأن فهارس الكتاب وعناوينه تتفق إلى حدٍّ كبيرٍ مـع تلك التي كان أستاذنا السباعي أول من نظمها في كتابه الذي سبق كتـاب المرصفيِّ بنحو سبع سنين ؟!! ؛ أم أن الأمر لا يعدو أسبقيَّة الزمن !! ؛ فيحكم الزميل بهذه الأُستاذيَّة في سذاجةٍ سطحيَّةٍ ؟!! .

إنَّ الكمال العلميَّ لا يهتم كثيراً بالتوافه ؛ وإن السماحة الفكريَّة في دار العلوم تسمح بكُلِّ شيءٍ ـ إلا التهجُّم والنيل المستور بستارٍ من الغيرة أو الحماسة للعُلماء !! .



.....

✿ ـ الهُجُومُ الآثِـمُ عَلَى الشَّيْخِ سَيِّد المَرْصَفِى

ـ لِلدُّكْتُور زَكِي مُبَارَك ـ

.....

كثُرت الخطابات التي تَرِد إليَّ في تحقيق ما ادَّعاه الأُستاذ السباعي بيومي في حقِّ الشيخ سيِّد المرصفي !! ؛ وكُنتُ أغفلت هذا الموضوع عن عمدٍ ـ لأن الأستاذ السباعي له عليَّ حقوق ؛ فقد كان دائماً من أنصاري ؛ ولم آخذ عليه ما يريب ؛ ولأن مقام الشيخ المرصفي أقوى من أن يُهدَم بكلمةٍ جارحةٍ تُساق إليه في إحدى المحاضرات !! .

ولكن سكوت الأزهريين عن الانتصاف للشيخ المرصفيِّ أزعجني !! ؛ وكنت أرجو أن يكونوا درعاً واقيةً لذلك الشيخ الجليل !! ؛ وهو رَجُلٌ لم يَرَ مِثله الأزهر مُنذ أجيالٍ طُوال !!

فماذا أصنع ؟!!

مُضايقة الأستاذ السباعي بلاء !! ؛ لأنه صديقي ؛ والسكوت عن نُصرة الشيخ المرصفيّ بلاء !! ؛ لأنه أستاذي ـ فماذا أصنع ؟!!

---

(١) ـ العدد : ٣٩٦ ـ بتاريخ : ٣ ـ ٢ ـ ١٩٤١ .

سأنقل القضيَّة من وضعٍ إلى وضعٍ - فأصيِّرها قضيَّةً أدبيَّةً لا قضيَّةً شخصيَّةً ؛ وأبيِّن أن السباعي بيومي يستُر جنايته على المُبرِّد بجنايته على المرصفيّ !! .

ولكن كيف ؟!!

سيرى صديقنا السباعي أن تهذيب (الكامل) لم يكُن إلا جنايةً أدبيَّةً !! ؛ وسيعرف أن التطاول على مقام الشيخ المرصفيّ لا يذهب بلا عقاب !! .

وقد زعم الأستاذ السباعي أن الشيخ المرصفي سرق بعض أفكاره !! ؛ فليستعد للدفاع عن النظريَّة التي نهبها نهباً من كتاب « النثر الفنيّ » ونشرها في مجلَّة « السِّراج » !! .

ولكن على شرط أن يُؤمن في سريرة نفسه بأني أكره البغي على أصدقائي ؛ وأن أمري لم يكُن إلا شبيهاً بأمر أكثم ابن صيفيٍّ حين قال :

« إنَّ قَوْلَ الحَـقِّ لَم يَدَع لِي صَدِيقَـاً »

وإلى اللقاء في غير بغيٍ ولا عدوان ؛ فما أستبيح إيذاء أصدقائي ؛ ولو ظلموا أنفسهم فظلموني !! .

زَكِي مُبَارَك



.....

٥ ـ خُصُومَةٌ أَدَبِيَّةٌ
ـ لِلدُّكْتُور السِّبَاعِي بَيُّومِي ـ

.....

ما أحبَّها إلى نفسي خُصُومةٌ أدبيَّةٌ تقوم على صفحات ((الرسالة)) الغرَّاء بيني وبين صديقي زكي مبارك !! ؛ فإن في الخصومات الأدبيَّة للمُتخاصمين مجالاً واسعاً للبحث والتدقيق ؛ ولحضرات القارئين مجالاً أوسع للمُوازنة والتحكيم .

وإنِّي لأشكر لصديقي الدكتور إثارة هذه الخصومة ؛ وأُطمئنه على نزولي ميدانها عن طيبة خاطرٍ واستراحة فؤاد ؛ غير أنِّي قبل الخوض في هذه الخصومة أرى من حقٍّ نفسي وحق الموضوع عليَّ ؛ كما أرى من حقِّ ((الرسالة)) وقُرَّائها كذلك ـ أن تتسع صفحاتها في العددين المُقبلين لكلمتين اثنتين لي ـ فأما إحداهما فلوضع الأمر الأصيل في نصابه وتقريره على وجهه ؛ لأنه الذي دعا الدكتور إلى كلمته الأولى المنشورة في العدد ٣٩٢ ؛ وكنت أغفلت الرَّدَّ عليها عسى أن يتحرَّى الحقيقة ؛ ولكنه لم يفعل !! .

وأما الأُخرى فحول النظريَّة التي ادَّعى في العدد الأخير أني نهبتها من كتابه ((النثر الفنيّ)) ونشرتها في مجلة ((السِّرَاج)) ؛ حتى يعلم حضرات

---

(١) ـ العدد : ٣٩٧ ـ بتاريخ : ١٠ ـ ٢ ـ ١٩٤١ : البريد الأدبيّ .

القُرّاء أيُنا النَّاهب !! .

وأما الذي يُهدِّد به ويعتزم تبيينه ـ من أن تهذيبي «للكامل» لم يكُن إلا جنايةً أدبيَّةً !! ؛ ومن أن التطاول على مقام الشيخ المرصفيِّ لا يذهب بلا عقاب !! ـ فهو ما سيكون حلبة الخصومة ؛ وليعرف الملأ إذ ذاك ـ إن هو اجترأ على الكتابة بعد كلمتي هاتين ـ أينا الجاني على الأدب بآثاره !! ؛ وأينا القليل الاطِّلاع !! ؛ الطائش الأحكام في أبحاثه !! .

وإلى اللقاء



.....

۞ـ الهُجُومُ الآثِمُ عَلَى الشَّيْخِ سَيِّد المَرْصَفِي
ـ لِلدُّكْتُور زَكِي مُبَارَك ـ

.....

في العدد «٣٩١» نشرت «الرسالة» كلمةً بإمضاء محمد فهيم عبيد ـ جاء فيها: أن الأُستاذ السباعي بيومي وصف الشيخ المرصفيَّ «بكثيرٍ من الأخلاق الذميمة !! ؛ كالغلِّ؛ والحقدِ؛ والحسدِ؛ وسطحيَّة البحث؛ والتطاول الذميم !!»؛ وأنه «حَكَمَ بأن أخلاقه ذهبت بفضله كما تذهب الريح العَصوف بسحيق التراب !!.».

وفي العدد (٣٩٢) نشرت (الرسالة) ردًّا بإمضاء عبد الرحمن أيوب؛ مع كلمةٍ من الأستاذ السباعي بيومي ـ تشهد بأنه أقرَّ ما جاء بذلك الرَّدِّ؛ وهو يُلخَّص: في أن الأستاذ السباعي حكم بأن الشيخ المرصفي «كان يملكه الغرور»؛ وأن «الأستاذ السباعي في حديثه عن المُبرِّد وما يتصل به؛ إنما يصدُرُ في ذلك عن دراسةٍ بعيدة الأمد»؛ وأن كتابه ظهر في سنة ١٩٢٣؛ على حين لم يظهر كتاب الشيخ المرصفيِّ إلا في سنة ١٩٣٠؛ وأن فهارس كتاب الشيخ المرصفيِّ وعناوينه سُرِقَت من كتاب الأستاذ السباعي؛ وأن المرصفيَّ

(١) ـ العدد: ٣٩٨ ـ بتاريخ: ١٧ ـ ٢ ـ ١٩٤١ .

لم يكن أُستاذ السباعي !!.

وفي العدد نفسه ٣٩٢ نشرت لي « الرسالة » كلمة عتابٍ مُوجَّهةً إلى الأستاذ السباعي بيومي ؛ وقد جاء في تلك الكلمة : أن الأستاذ تحدَّث عن أخلاق الشيخ المرصفيِّ بما لا يليق ؛ « فإن كان ذلك الكلام لم يقع منك ؛ فانفِه في العدد المقبل ؛ وإن كان وقع منك ؛ فسارع إلى الاعتذار ؛ إبقاءً على ما بيني وبينك من وداد ؛ فما أستطيع السكوت عن رَجُلٍ يتعرَّض لأخلاق الشيخ المرصفيِّ بسوءٍ !! ؛ ولو كان من أعزِّ الأصدقاء !! . » .

ثم لقيني صديقٌ عزيزٌ ؛ فقال : لم يُرضني تحدِّيك للأستاذ السباعي بيومي !! ؛ فقد كان يتفق في أحيانٍ كثيرةٍ أن يجعل مقالاتك من موضوعات الدُّرُوس بدار العلوم ؛ وذلك من شواهد الإعجاب !! .

وعندئذٍ رجعت إلى نفسي ـ فحفظتُ للأستاذ هذا الفضل ؛ وآثرت الصمت ـ ولكن الأديب « علي محمد حسن » كتب إليَّ خُلاصة ما تجنَّى به السباعي على المرصفيِّ ؛ وأكَّد أنه قال :

« أنا أُحذِّرُكم من قراءة كتاب المرصفيِّ !! ـ فإن فيه من الخطأ أكثر ما يُتوهَّم أن يكون في كتاب الكامل من الخطأ !! ؛ وأنا أدعوكم مرَّةً أُخرى إلى إساءة الظنِّ بهذا الرَّجُلِ !! ؛ فقد كان مُمتلئاً غُرُوراً !! . » . !! .

وأكَّد هذا الأديب : أن الأستاذ السباعي لن يُنكر ذلك الكلام ؛ « وقد كان الحضور كثيرين من أساتذةٍ وطُلاَّب » .

ومع هذا ـ فقد كان في النيَّة أن أسكت عن الأستاذ السباعي ؛ لأنه

صـديق ؛ ولأن هجومه لـن يُقلقـل مركـز الـشيخ المرصـفيِّ وهـو أرزن مـن الجبال !! ؛ ولأن الأقدار قضت بأن يكون الأستاذ السباعي من زُملاء الأستاذ محمد هاشم عطية والأستاذ أحمد زكي صفوت ؛ وهذه الزمالة تمنحه عندي طوائف من الحقوق .

ثم ماذا ؟!! ؛ ثم رأيت أنه ليس من الصعب أن أدفع الشَّرَّ عن تاريخ الشيخ المرصفيِّ ؛ وأن أُقدِّم في الوقت نفسه خدمةً أدبيَّةً للأستاذ السباعي ـ ولـن يُخـدَم الأسـتاذ الـسباعي ـ وهـو صـديقٌ ـ إلا بجذبـه إلى الجـدل على صفحات « الرسالة » في أُسلُوبٍ رفيـقٍ ؛ لا يغُضُّ من مركزه بين تلاميذه بمدرسة دار العلوم .

وإنما نصصت على « الأُسلُوب الرفيـق » ؛ لأن أكثر الأُدباء يفرُّون من وجهي بحُجَّة أني لا ألقاهم إلا بقلمٍ تطير على أسلاته شظايا الشراسة وَالعُنْف !! .

وقد استجاب الأستاذ السباعي لهذه الدعوة ؛ وأعلن على صفحات « الرسالة » : أن الخصومات الأدبيَّة تُعَدُّ مجالاً واسعاً للبحث والتدقيق .

ومـا دام الأمـر كـذلك ـ فـأنـا أُقـدِّم الحقـائـق الآتـيـة :

أوَّلاً ـ قضى الشيخ سيِّد المرصفي شبابه في خدمة كتاب « الكامل » للمُبَرِّد ؛ وظفر من ذلك الجهاد بكتابٍ اسمه : (رغبة الآمل في شرح الكامل) ـ وقضى الأستاذ السباعي بيومي شبابه في خدمة كتاب « الكامل » للمبرد ؛ وظفر من ذلك الجهاد بكتابٍ اسمه : « تهذيب الكامل » .

فمـاذا كـانت النتيجة ؟

كانت النتيجة أن يكون الفرق بين (رغبة الآمل) و (تهذيب الكامل) ؛ كالفرق بين المرصفي والسباعي !! ؛ وهو بونٌ شاسعٌ جدًّا !! ؛ بحيث يعجز عن اجتيازه نوابغ الطيَّارين من الإنجليز والألمان ؛ ولو كانوا أقدر من بعض الناس على التحليق في أجواء الادِّعاء !! .

ثانِيَاً ـ أعلن الأستاذ السباعي أن كتاب الشيخ المرصفيِّ ظهر في سنة ١٩٣٠ ـ والصواب أنه ظهر سنة ١٩٢٧ ؛ وليس لهذا التاريخ أهميَّة ؛ وإنما الأهميَّة للتاريخ الذي أخذ فيه الشيخ المرصفي يشرح « الكامل » ؛ وهو تاريخٌ يرجع إلى أكثر من أربعين سنة ـ يوم أوصاه الشيخ محمد عبده بتدريس « الكامل » لطُلاَّب الأدب من الأزهريين ؛ ففي ذلك العهد ثار الشيخ الشنقيطيُّ وطلب إلغاء ذلك الدرس !! ؛ وكان مفهوماً عنده أن المُبرِّد أكبر من أن يتسامَى إلى نقده رَجُلٌ من المُحدَثين !! ؛ ولكن الشيخ محمد عبده تلطَّف فأرسل الشيخ إبراهيم عامر إلى الشيخ الشنقيطيِّ ومعه ملزمةٌ من شرح الشيخ المرصفيِّ ـ فَدُهِشَ الشيخ الشنقيطيُّ وسارع إلى الاعتذار !! ؛ ثم صارحَ الشيخ محمد عبده بأن المرصفيَّ لا يقلُّ علماً بأسرار اللُّغة عن المُبرِّد !! .

ثالِثَاً ـ كان كتاب « رغبة الآمل » كاملاً من جميع الجوانب في سنة ١٩١٥ ؛ وقد رأيته بعينيَّ في ذلك العهد ورآه معي الشيخ الزنكلونيُّ ـ طَيَّبَ الله ثَرَاه ـ !! .

ولن أنسى ما حييتُ تلك العبارة الشعريَّة التي صرخ بها الشيخ المرصفيُّ

وهو يُقدِّم إلينا شرحه على كتاب المُبرِّد !! ؛ لن أنساها أبداً !! ـ فقد قال شيخنا العظيم وهو يخاطب المُبرِّد:

«الله على أيّامك يا بَطَل !!» . !! .

والكتاب الذي كان كَمُلَ من جميع نواحيه حتى الفهارس قبل سنة ١٩١٥ هو الكتاب الذي سُرِقَت بعض فهارسه من كتابٍ ظهر في أواخر سنة ١٩٢٣ !! .

رَابِعاً ـ لم يكُن الشيخ المرصفيُّ يطّلع على شيءٍ من مُؤلّفات المُعاصرين ؛ فكيف اختصَّ الأستاذ السباعي بتلك العناية ؟!!

تلك والله إحدى الأعاجيب !! .

خَامِساً ـ كان الشيخ المرصفيُّ أوّل رَجُلٍ تسامَى إلى نقد مُؤلّفات الأكابر من القُدماء ؛ وكان أوّل رَجُلٍ أقرَّ « كُرسيّ الأدب » في الأزهر الشّريف ؛ وكان أوّل رَجُلٍ جعل للأديب مكاناً بين « جماعة كبار العُلماء » ؛ فكان بتلك الصفات أوحد عصره بلا جدالٍ !!.

فماذا صنع الأستاذ السباعي في دار العلوم ؛ ولن يكون إلا الرابع أو الخامس بين أساتذة تلك الدار ـ مع التسامح الشديد ـ ؟!!.

سَادِساً ـ برّأ الأستاذ السباعي نفسه وطهّر تاريخه من التلمذة للشيخ سيِّد المرصفيّ !! ؛ فأين هو من تلاميذ الشيخ المرصفيّ وكان منهم محمد إبراهيم هلال ؛ ومحمود حسن زناتي ؛ وأحمد حسن الزيّات ؛ وعلي عبد الرزّاق ؛ وطه حُسين ؟!!

سَابِعاً ـ ترك الشيخ المرصفيُّ ذخيرةً عظيمةً ؛ منها : (شرح الكامل) ؛ و (شرح الأمالي) ؛ و (شرح الحماسة) ؛ و (شرح العقد الفريد) ؛ و (شرح أراجيز رُؤية وأراجيز العجَّاج) ؛ ومنها : (التعقيب على لسان العرب) ؛ و (النَّصُّ على أغلاط صاحب المُفصَّل والكشَّاف) !! ؛ فماذا صنع الأستاذ السباعي ؛ وكان عمره موقوفاً على نقل نصوص « الكامل » من مكانٍ إلى مكانٍ ؟!!.

ثَامِنَاً ـ أثَّر المرصفيُّ في عصره أبلغ التأثير !! ؛ فكان الرَّجُلُ يتشرَّف بالانتساب إليه ؛ كما صنعتُ حين رثيته يوم وصل نعيه وأنا طالبٌ في جامعة باريس ـ فكم طالباً يسرُّهم أن يقولوا : إنهم تلاميذ السباعي بيومي ؟!!

تَاسِعَاً ـ كان تلاميذ المرصفيِّ يُقيِّدون جميع ما ينطق به ؛ ولو عن طريق المزاح !! ؛ وقد قيَّدتُ من كلامه ثلاثين كُرَّاساً !! ؛ فأين ما قيَّد تلاميذ السباعي من كلامه البليغ ؟!!

عَاشِراً ـ دخلتْ مُؤلَّفات الشيخ المرصفيِّ على القلوب بدون استئذانٍ !! ؛ ولم يدخل كتاب الأستاذ السباعي دار العلوم إلا بعد أن صار أُستاذاً بتلك الدار !! ؛ وبعد أن مات الشيخ عـلاَّم !! .

أما بعد ـ فهذه طلائعٌ لغزوةٍ شريفةٍ ؛ تنقل عقل الأستاذ السباعي من وضعٍ إلى وضعٍ ؛ وذلك فضلي عليه ؛ وهو واجب الصديق نحو الصديق ؛ وقد تلطَّف فأشار إلى أنه سيُخاصمني خُصُومةً أدبيَّةً ؛ وهي خُصُومةٌ أُرَحِّبُ بها كُلَّ الترحيب !! ؛ لأني أشعر شعوراً صادقاً بأني مُوكَّلٌ بإحياء العزائم

والقلوب !! .

وقد أسرف في الكرم ؛ فأعلن أني لن أجترئ على الكتابة بعد أن ينشر في «الرسالة» كلمتين !!.

وأقول : إني لن أصفح عنه ؛ أو يشتغل مُحرِّراً مُتطوِّعاً بمجلَّة «الرسالة» ثلاث سنين !! ؛ كما قهرت أخاً له من قبل على أن يشتغل مُحرِّراً مُتطوِّعاً بجريدة «البلاغ» ثلاث سنين !!.

وهي محنةٌ صُبَّتْ من شاهقٍ على الأستاذ السباعي !! ؛ فليتحمَّلها صابراً ؛ وليُوطِّن نفسه على أن الخصومة بيني وبينه لن تنتهي قبل بداية شهر مايو ؛ وهو الموعد الذي حدَّده الشيخ الأسيوطيُّ لنهاية الحرب بين الإنجليز والألمان !! .

وكيف يُخيفني تهديد الأستاذ السباعي وليس في ماضيه الأدبيِّ غير نقل نصوص كتاب «الكامل» من مكانٍ إلى مكانٍ !! ؛ وتلك مُهمَّةٌ يقوم بها أحد النسَّاخين بدراهم معدودات ؟!!

أمثلي يخاف من عواقب الجهر بكلمة الحقِّ وقد قضيت دهري مُتحَناً بعداوات الرجال ؟!!

الأستاذ السباعي يُهدِّد بمقالتين اثنتين !! ؛ وهو يعرف من نفسه أكثر مما أعرف !! ؛ فهل يتوهَّم أني سأُخلي له الميدان ليُخاطر نفسه كيف شاء ؟!!

لقد تلطَّفت معه أكثر مما يجب !! ؛ ولم يحفظ جميلي !! ؛ فكيف يراني أعطف عليه وقد تردَّى بثوب العُقُوق ؟!!

ثم أما بعد ـ فقد حكمت على الأستاذ السباعي بترك دُرُوسه في دار العلوم ليشغل نفسه بِمُخاطرتي ؛ وليقول : إن « تهذيب الكامل » أعظم من « رغبة الآمل » ؛ كما كان نجم الأرض أعظم من نجم السماء !!.

وماذا يمنع من أن يكون السباعي أعظم من المرصفيّ ؟!! ؛ ماذا يمنع وقد اختلّت الموازين وفسدت الدُّنيا إلى أبعد حدود الفساد !! ؛ حتى جاز للأستاذ السباعي أن يُهدِّدَ صديقه القديم !! .



.....

۞ ـ خُصُومَةٌ أَدَبِيَّةٌ

ـ ﴿ ١ ﴾ ـ

ـ لِلدُّكْتُور السَّبَاعِي بَيُّومِي ـ

.....

الدُّكْتُور زَكِي مُبَارَك

ـ ﴿ أولَى الكَلِمَتَيْن ﴾ ـ

.....

وعدتُ حضرات القُرَّاء في عدد « الرسالة » الأخير أني سأنشر في عدديها المُقبلين كلمتين اثنتين ـ أتوجَّه فيهما بالحديث إلى صديقي الدكتور زكي مبارك ؛ وهذي أولى الكلمتين ؛ وهي كما رسمت حين وعدت : ترمي إلى تقرير الموضوع الأصيل الذي من أجله كتب الدكتور :

ألقيت مُحاضرةً بِمُدرَّج على مُبارك باشا في دار العلوم عن «أسلُوب المُبرِّد في كامله » ؛ وعقب انتهائي منها طلب أحد مُستمعيها من طُلاَّب كُليَّة اللُّغة العربيَّة السماح له بكلمةٍ ؛ فأجبته إلى ما طلب ؛ وكانت كلمته أربعة أسئلةٍ ألقاها ـ رمي المبرد في رابعها بالغرور والادِّعاء !! ؛ وأنه كان لا يتحرَّى إذا أجاب !! ـ فرأيت الموقف يقضي عليَّ أن أرُدَّ عليه ؛ وفعلاً رددت ؛ وكانت

(١) ـ العدد : ٣٩٨ ـ بتاريخ : ١٧ ـ ٢ ـ ١٩٤١ .

إجابتي عن السؤال الأخير تتلخَّص في نفي تلك الصفات الذميمة عن المُبرِّد نفياً قاطعاً !! ؛ استدللت عليه بأمُور ـ منها : أن من شأن من لا يتحرَّز في إجابته ألا يُمسك إذا لم يتثبَّت ؛ وإنما يرمي بالقول جُزافاً ؛ ويخترع الإجابات اختراعاً ؛ وعهدنا بالمُبرِّد أنه غير ذلك !! ؛ فقد رأيناه في « كامله » إذا عرض له ما لا يعرفه اعترف بذلك ؛ خضوعاً لتلك الكلمة الجامعة التي لا ينزل على حُكمها إلا الثقات الأعلام ؛ وهي : « من قال لا أدري فقد أجاب » ؛ ثم أخرجت من « الكامل » شاهداً على ذلك أسمعته الحاضرين .

ومنها : أن من خالط قلبه الغرور وتملَّكه الادِّعاء لم يك في مقدوره أن يُخفي ذلك في مُصنَّفاته ؛ بل لابُدَّ أن يفضحه أسلوبه .

ومهما تكُن عند امرئٍ من خليقةٍ
وإن خالها تخفى على الناس ؛ تُعْلَمُ

وليس في « كامل » المُبرِّد على كثرة كسبه فيه ونسجه حول أصوله ؛ ما ينفي عنه صفة التواضع العلميِّ ؛ أو يُلقي على أبحاثه ولو ظلاً صغيراً من الكبرياء والادِّعاء .

ودعماً لهذا الاستدلال الأخير في أن أسلوب الكاتب يشفُّ عن خلائقه ؛ قُلْتُ للسائل ـ وقد ذكر أنه استقى ذلك من شرح الشيخ المرصفيِّ على « الكامل » ـ : إنَّ مُؤلَّفات المرصفيِّ هي التي تنُمُّ عن خُلُقِ الغرور والادِّعاء فيه ؛ كما يعلم ذلك من اطَّلع على هذا الشرح ومُقدِّمته ؛ وكذلك من اطَّلع على مثلهما فيما عمله بـ « ديوان الحماسة » !!.

وَقُلْتُ: وإنَّهُ لتأصُّل هذا الخُلُق فيه كان شديد التحامل على المُبـرِّد والتشهير به فيما يظُنُّ أن المُبرِّد أخطأ فيه !! .

ثم قُلْتُ: وكم كُنَّا نتمنَّى للشيخ المرصفيِّ أن يجُرِّد علمه من غروره؛ ويُسبل على تأليفه ثوباً ضافياً من التواضع والاعتدال؛ حتى يكون ذلك أبين لفضله وأدلَّ على نُبلهِ !! .

وأخيراً قُلْتُ: ولا يبعد أن تكون البيئة العلميَّـة التي عاش فيها المُبـرِّد قد تقوَّلت عليه ما تقوَّلت حسداً وبغياً؛ فإن عُلماء عهده ما كانوا يعهدون من عُلمائهم إمامةً في اللغة إلا في ناحيةٍ واحدةٍ منها؛ كناحية قواعدها؛ أو ناحية مُفرداتها؛ أو ناحية آدابها؛ ولكن المُبَرِّد كان إماماً ذا آراءٍ في هـذه النـواحي الثلاث جميعاً؛ فهم بما كانوا يتقوَّلُون عليه إنما يُريدون انتقاصه شفاءً لما دَبَّ في صُدُورهم عليه من حقدٍ وحسدٍ !! .

ولقد خِفْتُ أن يهجس في نفوس السامعين تنزيه قلوب هؤلاء العلماء من رذيلة الحسد؛ فأتبعت ما سبق بقولي لحضراتهم: ولا تستبعدون الحسد على العلماء؛ فإن من طبيعته أن يكون أقرب إلى الأدنين منه إلى الأباعد؛ وأسرع إلى قلوب العلماء منه إلى قلوب الجُهَّال؛ وإذا ما شئتم مزيداً في معرفة هذه الطبيعة - طبيعة الحسد - فاقرءوا رسالة الجاحظ فيه؛ وهي أكثر من اثنتي عشرة صفحة .

ذلك ما قرَّرته في إجابتي عن السؤال الأخير؛ بعد الذي قرَّرته في الإجابة عن الثلاثة قبله .

وما كان أشدَّه عجباً وأبعده غرابةً أن تُطوى صحيفة الإجابات الثلاث وقد سلختُ فيها نحو الساعة ؛ ثُمَّ تُشوَّهُ هذه الإجابة الأخيرة تشويهاً يمسخها مسخاً !! ؛ وإذا أنا أمام الواصل إليَّ منها كالذي يستمع إلى الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ ﴾ (١) ؛ دون ذكر هذه الجملة الحالية بعدها ﴿ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُون ﴾ !! ؛ فقد كان هذا الواصل : أنني وصفت الشيخ المرصفيَّ « بكثيرٍ من الأخلاق الذميمة !! ؛ كالغلِّ ؛ والحقدِ ؛ والحسدِ ؛ والسطحيَّة في البحث ؛ والتطاول الذميم !! » ؛ وأنني تعدَّيْتُ ذلك إلى « تجريح طوائف العلماء ؛ على اختلاف مهنهم ؛ وحكمت بأنَّ طباع الحسد والحقد لا تجد لها مراحاً خصيباً كالذي تجد من قلوب العلماء !!.» .!!

وا رحمتاهُ للأخبار من رُواتها !! ؛ فما كان منِّي عن الشيخ المرصفيِّ ـ علم الله ـ إلا أسفي على ما خالط مُؤلَّفاته من غُرُورٍ وادِّعاءٍ وتطاولٍ على المُبرِّد في أسلُوبٍ غير حميد !! ؛ ومازلت مُعتقداً هذا ؛ رضى الدكتور أم سخط !! ؛ وواثقاً أن كثيراً من أهل العصر يعلمونه علمي ؛ ويعرفون كيف يستدلُّون عليه استدلالي !! .

وكم كُنْتُ ـ كما قُلْتُ في إجابتي ـ أتمنَّى خُلوَّ مُؤلَّفات المرصفيِّ من غروره !! ؛ حتى لا يذهب هذا الغرور بفضله ؛ وما كان منِّي عن العلماء ـ شهد الله ـ إلا أنهم في بيئة المُبرِّد حسدوه على تنوُّع ثقافته وتعدُّد إمامته ؛

(١) ـ [سُورَةُ النِّسَاء / الآيَةُ : ٤٣] .

وأن هذا الحسد لم يكُ من شأن علمهم أن يُبعده عنهم ؛ لأن الحسد كما يقولون مُوكَّلٌ بالأدنى ؛ وهو كما ذكر الجاحظ في « رسالة الحسد » :

« قد صار العُلماء أكثر منه في الجُـهَّال ؛ وَدَبٌّ في الصالحين أكثر منه في الفـاسقـين !! . ».

وأنا بهذا الرأي لازلت ولن أزال أدين ؛ وافق الدكتور أم خالف !!.

هذا يا صديقي الدكتور هو الأمر الأصيل على جليَّته !! ؛ قد بسطته موضوعاً في نصابه مُقرَّراً على وجهه ؛ لا كما تطايرت به الإشاعات ؛ بل الإشاعات المُغرضة !! ؛ وأنت بما تُدخله روايات السُّوء على الأخبار جدُّ خبير !! ؛ وقديماً قالوا : « وما آفة الأخبار إلا رُواتها » !!.

ولعلَّك يا صديقي عتبت عليَّ أني لم أُجبك أول ما سُئِلْت !! ؛ وما كان لك أن تعتب !! ؛ فتلك عادة الناس فيك وموقفهم منك !! ؛ على أني أُخالف تلك العادة ؛ وأُجيبك ؛ عسى أن تستريح !! :

تعلمْ يا صديقي أن إغفال إجابتك ما كان إلا استبعاداً عليك أن تفهم ما فهمت !! ؛ وإلا أملاً أن يرُدَّك هـذا الاستبعاد إلى الحقيقة تستقيها بعيداً عنِّي!! ؛ من غير كاذبٍ فيها أو مُشوِّهٍ لها !! ؛ وشهود المُحاضرة كانوا ـ بحمد الله ـ كثيرين !! ؛ ولا أكتُمُك سبباً آخر قوَّى هذا الإغفال في نفسي ـ ذاك هو أمرك لي أن أُسارع إلى نفي ما سمعت إن كان لم يقع ؛ وإلى الاعتذار منه إن كان قد وقع !! .

وإسرافك في هذا الإسراع تطلبه في أوَّل عددٍ يصدر من « الرسالة » !! ؛

وثالثة الأثافي أن تقول لي : « إلى أن يثبت أنَّ الراوي افتري عليك ـ أُعلن غضبي على ما بدر منك !! . » .

سُبحانك اللَّهُمَّ وتعاليت !! ؛ فما كان لأحدٍ أن يقول : ﴿ وَمَنْ يَحْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾ (١). إلا أنت !! .

تلك الثلاث يا صديقي وغيرهن كُنَّ مُحَرِّضاتي على ترك أول عددٍ من « الرسالة » يصدر خلواً من نفيي واعتذاري ـ لأقف على ما في كنانتك من سهام !! ؛ ولأتذوَّق ما قد يصُبُّهُ غضبك في الجام !! .

وهأنت قد اغتررت !! ؛ فكتبت كلمةً ثانيةً تُؤذنني فيها بخصومةٍ تريدها أدبيَّةً ؛ والله أعلم بما تُريد !! ؛ وترميني فيها بفرية السرقة منك ؛ جاهلاً كما ستعلم في كلمتي الثانية أنك أنت الذي افتريت وسرقت !! .

وبعد ـ فإن وصاتي لك يا صديقي أن تتريَّث !! ؛ فإن في العجلة وبالاً عليك !! ؛ وألا تعود تغترّ بسكوتي عنك !! ؛ فما مثلي ومثلك فيه إلا كما قال الأول :

ما بال من أسعى لأجبُر عظمهُ
حفاظاً وينوي من تطاوله كسري
أظُنُّ خُطُوب الدهر بيني وبينهم
ستحملهم مني على مركبٍ وَعْرِ

(١) ـ [سُورَةُ طَه / الآيَةُ : ٨١] .

وإنّي وإيّاهُم كمن نبَّهَ القطا
ولو لم تُنبَّه باتت الطيرُ لا تسري
أناةً وحلماً وانتظاراً بهم غداً
فما أنا بالواني ولا الضرع الغَمْرِ



.....

✿ - لِيَحْكُم رِجَالُ الأَدَبِ العَرَبِيُّ :

✿ - السِّبَاعِي بيُّومِي
يَسْتُرُ جِنَايَةً عَلَى المُبَرِّدِ بِجِنَايَةٍ عَلَى المَرْصَفِيِّ
- لِلدُّكْتُور زَكِي مُبَارَك -

- ﴿ ١ ﴾ -

.....

عرف قُرَّاءُ « الرسالة » أن الأستاذ السباعي توعَّدني بمقالتين خطيرتين : الأولى : في تحديد ما قال في الشيخ المرصفيِّ ؛ والثانية : في دفع النظريَّة التي نهبها من كتاب « النثر الفنيّ » .

وكان يرجو أن أنتظر إلى أن يفرغ من المقالتين المُرتقَبتين ؛ لعلني أعتبر فلا أجترئ عليه ؛ وقد شاع أنِّي من كبار المُجترئين !! .

وقد نشر مقالته الأولى - فعرفنا أنه يُصِرُّ على اتهام الشيخ سيِّد المرصفيِّ بالغرور !! ؛ ولم يبق إلا أن ينشر مقالته الثانية ؛ وهي مقالةٌ عرفنا مضمونها مُقدَّماً ؛ فهو سيُثبت أنه لم يَسرق من كتاب « النثر الفنيّ » ؛ وإنما سَرَق منه مُؤلِّفُ « النثر الفنيّ » ؛ فكان حاله حال اللصِّ الذي رأى صاحب الدار

---

(١) - العدد : ٣٩٩ - بتاريخ : ٢٤ - ٢ - ١٩٤١ .

يمشي من بُعدٍ ؛ فصاح : « مين اللي ماشي هناك ؟!! » !!.

وأنا لن أنتظر إلى أن يفرغ الأستاذ من تحبير مقالته الثانية ؛ فما كان أول باحثٍ سَرَق من كتاب « النثر الفنيّ » !! ؛ ولن يكون آخر باحثٍ يسرق من كتاب « النثر الفنيّ » !! ؛ فقد كتمتُ سرقته من كتابي أربع سنين ــ لأني أشعر بالارتياح كُلَّما تذكَّرت أن عندي ذخائر يطَّلع إليها الناهبون من الفُضَلاء !! .

لن أنتظر !! ؛ لن أنتظر !! ــ فليُواجهني إن استطاع !! ؛ وأنا ماضٍ إليه بقلمٍ أمضى من السيف وأعنف من القضاء !! ؛ ولن أتركه بعافيةٍ أو يعترف بأنه يستر جنايته على المُبرِّد بجنايته على المرصفيِّ !! .

ولكن كيف جَنَى على المُبرِّدِ ــ وقد قضى شبابهُ في خدمة كتاب « الكامل » ؟!!

تلك هي النُّقطة ـ كما يقول لافونتين ـ !! .

اسمعوا كلمة الحقّ ؛ أيُّها النَّاس :

المُبرِّد دَانَ : اللغة ؛ والأدب ؛ والنحو ؛ والتصريف ؛ والتاريخ الإسلاميّ ـ بكتابٍ نفيسٍ اسمه « الكامل » !! ؛ وهذا الكتاب قد شرَّق وغرَّب ؛ فانتقل من يدٍ إلى يدٍ ؛ ومن بلدٍ إلى بلدٍ ؛ على اختلاف الأجيال ــ وبذلك تعرَّض للتصحيف والتحريف ؛ وإذاً : كان من الواجب ألا يتقدَّم لنشره من أبناء العرب غير من يملك القُدرة على إصلاح ما أفسدت تلك الأجيال .

فهل يكون السباعي بيومي هو المُصلح المنشود ؛ وما قال أحدٌ بأن الله

وهبه نعمة الذوق الأدبيِّ ؛ وهي نعمةٌ ساميةٌ لا يظفر بها من كُلِّ جيلٍ غير آحاد ؟!!

كان المُصلح المنشود لكتاب « الكامل » هو شيخنا العظيم : سيِّد بن عليّ المرصفيّ !! ؛ الذي قضى من عمره عشرين سنةً وهو يُراوح المبرِّد ويُغاديه ـ بالنظر الثاقب ؛ والفهم العميق .

ولكن المرصفيَّ مات ؛ وصار من حقِّ كُلِّ باغٍ أن يتقوَّل عليه كيف شاء ؛ ولو كان في منزلة السباعي بيومي !! ؛ وهو كما وصف نفسه : أُستاذٌ بدار العُلُوم !! .

هل سمعتم أشياء من أقوال الدكتور طه حُسين ؟!!

أتعب الدكتور طه نفسه في النَّيل من دار العلوم !! ؛ فكان يقول : هي مدرسةٌ عاقر ؛ ومن الواجب أن تُغْلَق بدون تسويف !! .

فهل غضب السباعي بيومي وهو « أُستاذٌ بدار العلوم » كما ذيَّل اسمه وهو يُحاورني بمجلّة « الرسالة » الغرَّاء ؟!!

وكيف يغضب والدكتور طه رَجُلٌ يضُرُّ وينفع ؟!! ؛ وهو يملك المحو والإثبات في أعضاء بعض اللجان بوزارة المعارف ؟!! ؛ والسباعي يطمع في أن يُعيَّن عضواً باللجنة التي تنقل كتاب « هانوتو » من الفرنسيَّة إلى العربيَّة ؟!!

أما الشيخ المرصفيُّ ـ فهو اليوم جسدٌ هامدٌ لا يملك دفع الضُّرِّ عن سُمعته ؛ ولو صدر عن باغٍ في منزلة السباعي بيومي !! .

الشيخ سيِّد المرصفيُّ مات ؛ وشبع من الموت ؛ وهو اليوم لا يملك دفع عادية الذُّباب !! .

مات المرصفيُّ ؛ ثم مات ؛ ولكن تلاميذه أحياء !! ؛ والويل كل الويل لمن يتعرَّض لشيخنا العظيم بكلمة سُوءٍ !! ؛ ولو كان من أعزِّ الأصدقاء !! .

أيُشتَم المرصفيُّ في مصر وهو قَرِيع الزمخشريّ والمُبرِّد ؟!!

ألم يكف المرصفيَّ أن يعيش غريباً ويموت غريباً ؟!!

لم يُوجد في الأزهر من يُدرك قيمة الشيخ سيِّد المرصفيِّ غير الشيخ محمد عبده !! ؛ وبموت « الأُستاذ الإمام » أصبح المرصفيُّ من الغُرباء !!.

وقد عرف المصريون قيمة الشيخ محمد عبده بعد الموت !! ؛ فكيف يجهلون قيمة الشيخ سيِّد المرصفيِّ بعد الموت ؟!!

السباعي بيومي هو الذي أراد الإعلان عن نفسه بالقدح في الشيخ المرصفيِّ !! ؛ فليدفع ثمن ذلك الإعلان بلا إمهال !! .

ولكن كيف يدفع ذلك الثمن ؟!!

إلى رجال الأدب العربيِّ أسوق الحديث :

أخرج السباعي كتاباً سمَّاه « تهذيب الكامل » في جزأين ـ أولهما : في المنثور ؛ ثانيهما : في المنظوم ؛ ومعنى ذلك : أنه قدَّم وأخَّر في نصوص « الكامل » ؛ ليقع المنثور في جانب ؛ والمنظوم في جانب !! .

فهل يرى القُرَّاء أن هذا عملٌ مطلوب ؟!!

وهل يرون أن المُبرِّد كان يعزُّ عليه أن يُصنِّف كتابه على هذا الوضع لو

أراد ؟!!

المُبرِّد رَاوَحَ بين المنثور والمنظوم لحكمةٍ تعليميَّةٍ ـ هي نقل الذهن من فنٍّ إلى فنٍّ ؛ ليُبعد عنه السآمة والملال .

وقد أضاع السباعي تلك الحكمة التعليميَّة بصنيعه « الجميل » !!

والفرق بين « الكامل » و « تهذيب الكامل » ـ هو الفرق بين رُوح المُبرِّد ورُوح السباعي !! ؛ فأنت حين تقرأ « الكامل » ـ تُواجه رُوحاً لطيفاً ؛ هو روح أبي العبَّاس ـ طَيَّبَ اللهُ ثَرَاه ـ ؛ وقد كان مثلاً رائعاً في صباحة الوجه ولطافة الرُّوح !! ؛ وحين تقرأ « تهذيب الكامل » ـ تُواجه رُوح السباعي بيومي !! ؛ وهو روح السباعي بيومي بلا نزاعٍ ولا جدال !!

ومهما يكُن من شيءٍ ـ فقد استطاع السباعي أن يُطارد المرصفيَّ !! ؛ المرصفيُّ شارح « الكامل » !! ؛ المرصفيُّ الذي أقام البراهين على أن مصر وُجِدَ فيها رَجُلٌ يُصاول المُبرِّد ؛ ويمشي إليه مَشْيَ البازل إلى البازل في شراسةٍ وكبرياء !!

استطاع السباعي أن يُحرِّم على شرح المرصفيِّ دخول دار العلوم ؛ ليجهل طلبة تلك الدار أسرار كتاب « الكامل » ؛ وليجهلوا مبلغ أُستاذهم السباعي من « العلم » بما وقع في « الكامل » من تحريفٍ وتصحيف !! .

أنا أعرف أن دار العلوم مدرسةٌ عاليةٌ لا يزورها أحدٌ من المُفتِّشين إلا إن ظمئ إلى فنجانٍ من القهوة يحتسيه في مكتب العميد أو مكتب الوكيل !! ؛ وإذاً : فمن العسير أن تسنح الفُرصة لمُحاسبة الأستاذ السباعي بيومي على ما

يصنع في تكوين الطلبة بتلك الدار ؛ وهم الجيل المُقبل من رجال التربية والتعليم !!

أعرف ذلك !! ؛ وأعرف أن الذوق نهاني عن زيارة دروس الأستاذ السباعي بالجامعة الأمريكيَّة - وأنا عن تفتيشها مسئول - ؛ لأنه لا يجوز ذوقاً أن أفتِّش على مدرس رأته وزارة المعارف صالحاً للمشاركة في إعداد المُدرِّسين !!

ولكن يظهر أن الأستاذ السباعي مُحتاج إلى من يُعاونه على إعداد دروسه بدار العلوم !! ؛ فقد رأيت أنه لم يفطن إلى ما في كتاب « تهذيب الكامل » من تصحيفٍ وتحريفٍ قضى بهما انتقال « الكامل » من يدٍ إلى يدٍ ؛ ومن بلدٍ إلى بلدٍ ؛ على اختلاف الأجيال !!

يُضاف إلى ذلك : أن كتاب « تهذيب الكامل » تسرَّب إلى « كُليَّة اللُّغة العربيَّة » ؛ وقد يتسرَّب إلى « كُليَّة الآداب » ؛ بحُجَّة أن الدكتور طه حسين قَرَنه بكتاب « مدامع العُشَّاق » في أحد فصول « حديث الأربعاء » !!

ماذا أُريد أن أقُول ؟!!

أنا أُريد النصَّ على الأغلاط التي عجز عن إدراكها ذهن السباعي ؛ وفطن لها عقل المرصفيِّ ؛ وهي أغلاطٌ ستُؤذي السباعي أعنف الإيذاء !! - لأنها ستُقنعه بأن ثناء الدكتور طه حُسين على صنيعه في كتاب « خدمة الكامل » ؛ لن يُنجيه من عذاب النقد الأدبيِّ ؛ وهو عذابٌ أليم !! .

سأقوم بهذا الواجب خدمةً لأبناء دار العلوم ؛ وخدمةً لجميع طُلاَّب

الأدب العربيّ ؛ وعلى الأستاذ السباعي أن يناقشني إن استطاع !! ؛ وهو لن يستطيع !! ؛ ولو ظاهره أُلوفٌ من المُعجبين بقُدرته على الاستهانة بفضائل التدقيق والتحقيق !! .

والأستاذ السباعي قد شتمني بمجلّة « الرسالة » مرّتين !! ؛ فليكُف عن شتمي - غير مأمورٍ - !! ؛ فإن الألسنة والأقلام لم تُبقِ في شتمي مزيداً لُمستزيد !! ؛ ولو حاسبَ الله أعدائي وخصومي على ما اجترحوا آثمين في إيذائي لسلّط عليهم شآبيب البلاء !! .

لا تشتمني يا سيِّد سباعي !! ؛ فحسبي ما أُعاني من البلوى بمحنة النقد الأدبيّ !! ؛ ألا تراني أُحاور أُناساً لا أرتضيهم نُسَّاخاً لمقالاتي ومُؤلّفاتي ؟!!

لقد لامني الناصحون على ما اقترفت من التنازُل إلى مُساجلة بعض الناس !! ؛ فهل تعرف كيف كان جوابي ؟!!

لقد أجبت : بأن الأدب كالعلم ؛ والعالم يُشرِّح جسم الضفدعة كما يُشرِّح جسم الإنسان - فمن واجب الأديب أن يفهم أنْ لا عيب في أن يهتم بتشريح ما يُضاف إلى الأدب ؛ ولو صدر عن نكرات !! .

لا تشتمني يا سيِّد سباعي !! ؛ ولا تصفني بالغُرُور والاجتراء !! ؛ فلو أنك رأيت الدُّنيا بعينيَّ لطاب لك أن تتخلّق مثل أخلاقي ؛ فما اغتررت وما اجترأت إلا وأنا أعرف أنَّ في الدنيا ناساً أخفُّ وزناً من الهباء !! .

لا تشتمني يا سيِّد سباعي !! ؛ فأنا رَجُلٌ « شَقيم » ؛ وذلك حرفٌ لا يخفى عليك !! .

لا تشتمني يا سيِّد سباعي !! ؛ فما أملك مُحاسبتك لو أردت الانتصاف لنفسي !! ؛ وماذا أقول في تجريحك ولستَ بشاعرٍ ولا كاتبٍ ولا مُؤلِّفٍ ولا خطيب ؟!!

ليس لك غير نقل نصوص « الكامل » من مكانٍ إلى مكان !! ؛ فهل فهمت أسرار « الكامل » ؟!! ؛ وهل « هذَّبت » أو « شذَّبت » تلك الغابة الشجراء ؟!!

ما أنت و « الكامل » أيها المفضال ؟!!

الأمر في ذلك لشيخنا العظيم سيِّد بن عليٍّ المرصفيِّ !! ؛ الشيخ الذي ربَّانا على الصراحة والصدق والاخلاص ؛ وهو المُنافس الأعظم للأساتذة الاماجد : محمد المهدي ؛ ومحمد الخُضري ؛ وإسماعيل رأفت ؛ ومنصور فهمي ؛ وأحمد ضيف ؛ وطه حُسين .

أما بعد ـ فقد آن للأستاذ السباعي أن يقرأ ما يُرضيه ؛ وعليه أن يُجيب ؛ إن كان يملك الجواب !! ؛ وهيهات !! ؛ ثم هيهات !! :

١ ـ في « تهذيب الكامل » ؛ [جـ٢ / صـ ٣٦٢] ؛ قال الأخطل :

نازعتهم طيب الرَّاح الشمول ؛ وقد

صاح الدجاج وحانت وقعة الساري

ولم يلتفت السباعي إلى التحريف في « نازعتهم » ؛ وقد التفت إليه المرصفيُّ ؛ فنصَّ على أن الصواب « نازعته » ؛ لأنَّ الأخطل يقول قبل هذا البيت :

وشاربٍ مزيجٍ بالكأس نادمني

لا بالحَصُور ولا فيها بسوَّارِ

٢ ـ في ((تهذيب الكامل)) ؛[جـ١ / صـ ٣٨] ؛ ورد قول الشاعر :

إذا ما حقبٌ جَالَ شددناه بتصديرِ

وهنا أتعب السباعيُّ نفسه !! ؛ فأثبت في الهامش نقلاً عن المُضاف إلى المتن أن هذا الشاعر هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ؛ وهذا خطأٌ ظاهرٌ ؛ وإنما الشعر ليزيد بن ضبَّة الثقفيِّ يمدح الوليد بن يزيد وقد أفضت إليه الخلافة .

ـ انظر تحقيق الشيخ المرصفيِّ ؛[جـ١ / صـ ١٠١] ؛ من ((رغبة الآمل في شرح الكامل)) .

وعُذر الأستاذ السباعي ـ أنه غير مسئولٍ عن التحقيق ؛ لأنه أُستاذٌ بدار العلوم !! .

٣ ـ في ((تهذيب الكامل)) ؛[جـ٢ / صـ ٣٠٧] ؛ قال المُبرِّد : رُوي لنا أن رَجُلاً من الصَّالحين كان عند إبراهيم بن هشام ؛ فأنشد إبراهيم قول الشاعر :

إذ أنت فينا لمن ينهاك عاصيةٌ

وإذ أجرُّ إليكم سادراً رسني

فقام ذلك الرَّجُل ؛ فرمى بشقٍّ ردائه وأقبل يسحبه حتى خرج من المجلس ؛ ثم رجع على تلك الحال فجلس ؛ فقال له هشامٌ : ما بك ؟!!! ؛

فقال: إني كُنتُ سمعت هذا الشعر؛ فاستحسنته؛ فآليت أن لا أسمعه إلا جررت ردائي كما سحب هذا الرَّجُلُ رَسَنه !! .

والشاهد في كلمة « رَجُل من الصالحين » ـ فقد أشقى الأستاذ السباعي نفسه بالنص في الهامش على أنه ابن أبي عتيق ـ نقلاً عمَّا أُضيف إلى متن « الكامل »؛ فهل سمع أحدٌ أن ابن أبي عتيق كان يُعَدُّ في الصالحين ؟!! ؛ ومُساعداته لعمر بن أبي ربيعة تشهد بأنه كان من أهل الخلاعة والمجون ؟!! ؛ لا يُطلَب من السباعي فهم هذه الدقائق !! ؛ فلنرض تحقيق الشيخ المرصفيِّ وقد نقل أن ذلك الرَّجُلَ الصالح هو أبو عُبيدة بن عمَّار بن ياسر ـ « رغبة الآمل »؛ [جـ١ / صـ١٥٥] .

٤ ـ في « تهذيب الكامل »؛ [جـ٢ / صـ ٣٠٨]؛ قال الشاعر:

فقُلتُ له تجنَّبْ كُلَّ شيءٍ
يُعاب عليك إن الحُرَّ حُرُّ

ثم قال المُبرِّد في التعقيب على هذا البيت:

فهذا كلامٌ ليس فيه فضلٌ عن معناه؛ وقوله « إن الحُرَّ حُرُّ »: إنما تأويله أن الحُرَّ على الأخلاق التي عُهدنَ في الأحرار؛ ومثل ذلك: أنا أبو النجم: « وشعري شعري »؛ أي شعري كما بلغك وكم كنت تعهد؛ وكذلك قولهم: « الناس الناس »؛ أي الناس كما كنت تعهدهم .

وتعقيب المُبرِّد سديد؛ ولكن الأستاذ السباعي ينقل في الهامش: أن من

هذا قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ (١). ؛ بدون أن يُدرك أن الأخفش الذي نقل عنه قد أخطأ الفهم !! ؛ فالآية ليست مما اتحد فيه المبتدأ والخبر لفظاً ؛ وإنما هو موصولٌ أُسند إليه فعلٌ جُعل مثله صلة ؛ للمُبالغة في التهويل .

- « رغبة الآمل » ؛ [جـ١ / ص: ١٥٥] .

وكان المأمول أن لا تغيب هذه المسألة البسيطة عن ذهن أُستاذٍ بدار العلوم !! .

٥ - في « تهذيب الكامل » ؛ [جـ٢ / ص٣٠٩] : تكلَّم المُبرِّد عن الخيل المحبوكة الأصلاب ؛ فقال : « المحبوك الذي فيه طرائق ؛ يُقال لطرائق الماء : حُبك ؛ واحدها حِباك » .

وبهذا سها المُبرِّد سهواً لم يفطن له السباعي !! ـ فقد فسَّر الكلمة بما لا يُراد منها في تركيبها ؛ والصواب أن يقول : فالمحبوك الذي أُحكم خَلقه ؛ من حبكت الثوب إذا أحكمت نسجه ؛ يُريد أن أصلاب الخيل مُوثقةٌ مُدمجة ؛ ثم يقول : والمحبوك أيضاً الذي فيه طرائق .

- « رغبة الآمل » ؛ [جـ١ / ص١٦١] ؛ وهو كتاب المرصفي المحكوم عليه بالغرور والادعاء !! .

٦ - في « تهذيب الكامل » ؛ [جـ٢ / ص٢١٢] : أنشد المُبرِّد قول حاتم

(١) - [سُورَةُ طَه / الآيَةُ : ٧٨] .

الطائيّ:

إنَّ الكريم من تلفَّت حولهُ

وإنَّ اللئيم دائم الطرف أقودُ

وقد غيَّر المُبرِّد لفظ البيت وروايته؛ بدون أن يتنبَّه السباعيُّ لذلك !!؛ والصواب:

فمنهم جوادٌ قد تلفَّت حولهُ

ومنهم لئيمٌ دائم الطرف أقودُ

لأن حاتماً يقول قبل هذا البيت:

كذاك أمور الناس راضٍ دنيَّةً

وسامٍ إلى فرع العُلا مُتورِّدُ

- راجع «رغبة الآمل»؛[جـ١ / ص١٧٧].

٧- في « تهذيب الكامل »؛[جـ٢ / ص٣١٢]: ورد قول الأشهب بن رُمَيْلَة:

أُسود شرىً لاقتْ أسود خفيَّةٍ

تساقوا على حردٍ دماء الأساودِ

وقد تفضَّل الأستاذ السباعي؛ فأثبت في الهامش أن رُمَيْلَة هي أم الشاعر؛ ولم يتعب الأستاذ في هذا التحقيق؛ فقد نقله عمَّا أضاف أبو الحسن إلى متن « الكامل »؛ فكيف يجيب لو سأله أحد طلبة دار العلوم عن أبي هذا الشاعر وهو قد عرف أمه وجهل أباه ؟!!

الجواب عند الشيخ المرصفي ((المغرور !!)) ـ فقد جاء في (رغبة الآمل) ؛ [جـ١ / ص١٧٩] : أن أبا هذا الشاعر : هو ثور بن أبي حارثة بن عبد الدار .

٨ ـ وفي ((تهذيب الكامل)) ؛ [جـ٢ /ص ٩٢] : ورد قول ابن الإطنانة :

وإجشامي على المكروه نفسي
وضربي هامة البطل المُشيح

وسكت السباعي عن ((الإطنابة)) ؛ فلم نعرف أهو اسم أُمِّ الشاعر أم اسم أبيه ؟!!! ؛ وإنما سكت السباعي لأنه لم يجد ما ينقله عن أبي الحسن !! ؛ فليعرف إن شاء : أن الإطنابة هي أم الشاعر ؛ أما أبوه فهو : عامر بن زيد مناة أحد أشراف الخزرج .

ـ ((رغبة الآمل)) ؛ [جـ٢ /ص٢٣] .

٩ ـ في ((تهذيب الكامل)) ؛ [جـ٢ / ص٣١٥] : قال رَجُلٌ من بني عبس يُخاطب عروة بن الورد :

لا تشتُمنِّي يا ابن وردٍ ؛ فإنني
تعود على مالي الحقوق العوائدُ
ومن يُؤثر الحقَّ النؤوب تكُن به
خصاصة جسمٍ وهو طيان ماجدُ
وإنِّي امرؤٌ عافى إنائي شِركةٌ
وأنت امرؤٌ عافي إنائك واحدُ

أُقسِّم جسمي في جُسُومٍ كثيرةٍ
وأحسو قراح الماء والماء باردُ

والسياق الذي أورده الأخفش وغفل عنه السباعيُّ يُوهم أن الأبيات الأربعة من شعر ذلك العبسيِّ - والصواب أن العبسيَّ لم يقُل غير البيتين الأولين ؛ أما البيتان الأخيران فهما جواب عروة بن الورد ؛ وقد نقل الشيخ المرصفيُّ [جـ١ / ص١٩٥] : أن عبد الملك بن مروان كان يحفظ لعروة الأبيات الأخيرة ؛ وثانيها هذا البيت :

أتهزأ منِّي أنْ سمنتَ وأن ترى
بجسمي شُحُوب الحقِّ ؛ والحقُّ جاهدُ ؟!!

فإن ارتاب الأُستاذ السباعي في تصحيح الشيخ المرصفيِّ - فليرجع إلى « ديوان الحماسة » : في باب الأضياف والمديح ؛ ليرى هذه الأبيات الأخيرة منسوبة إلى عروة بن الورد ؛ والمفهوم أن « ديوان الحماسة » مما يحفظه الطلبة بمدرسة دار العلوم !!

ثم أما بعد - فهذا هو المنهاج الذي سنسلكه في بيان فضل المرصفيِّ على السباعيِّ !! ؛ وعلى جميع من يقرأون « الكامل » للمُبرِّد !! ؛ وسنرى فيما بعد غرائب وأعاجيب من غفلة السباعيِّ عن فهم أغراض المُبرِّد ؛ فكيف ترونه يصنع ؟!! ؛ هل يُصِرُّ على القول بأن المرصفيَّ كان رَجُلاً مغروراً ؟!! ؛ وأن من الجريمة أن يدخل كتابه « دار العلوم » ؛ ليخلو الجوُّ لمن تفوتهم البسائط من الأغلاط ؟!!

لقد أنذرني الأستاذ السباعي !! ؛ فهل يجيب عن هذه المؤاخذات قبل أن ينفذ ذلك الإنذار الفظيع ؟!!

المُهِمُّ ـ هو أن ينظر أبناء دار العلوم في هذه المؤاخذات المُوجَّهة برفقٍ إلى نُسخة « تهذيب الكامل » ؛ لا إلى الأستاذ السباعي !! ؛ فما أجرؤ على الهجوم عليه !! ؛ وهو أديبٌ يراني ويرى أُستاذي من المغرورين المُجترئين !! .

المُهِمُّ هو الصدق في خدمة اللغة العربيَّة ؛ وأنا بهذه الدراسات أخدم لُغة العرب خدمةً يعجز عنها السباعي بيُّومي !! .

وإن طال الشوط ـ وسيطول ـ : فسيندم السباعي على ما اجترح من ستر جنايته على المُبرِّد بجنايته على المرصفيِّ !! .

إنَّ قلبي ليكتحل بالغُبار الذي يُثيره قلمي !! ؛ فمن طاب له أن يلقاني في ميدان النقد الأدبيِّ ؛ فليُوطِّن نفسه على مكارهٍ لا يصبر على لأوائها غير الخناذيذ !! .

وَإلى اللقاء ؛ فللحديث شُجُونٌ وَشُجُون !! .

زَكِي مُبَارَك



.....

✪ ـ خُصُومَةٌ أَدَبِيَّةٌ

ـ ﴿ ٢ ﴾ ـ

ـ لِلدُّكْتُور السِّبَاعِي بَيُّومِي ـ

.....

إِلَى الدُّكْتُور زَكِي مُبَارَك

ـ ﴿ كَلِمَتِى الثَّانِيَة ﴾ ـ

.....

معذرةً يا صديقي الدُّكتور !! ؛ فقد حملني ما ظهر في كلمتك السالفة من مُخالفة الرِّفق الذي تطلبه قولاً وتنبُذه عملاً أن أقسو عليك في عبارة هذه الكلمة بعض القسوة ؛ ولدينا مزيد !!

ـ ﴿ كَلِمَتِى الثَّانِيَة ﴾ ـ

أيُّنا الذي نهب وادَّعى ؟!!

وجَّه إليَّ صديقي الدكتور زكي مبارك كلمةً بعدد « الرسالة » رقم [٣٩٦] ؛ كان مما ذكره فيها قوله :

« وقد زعم الأستاذ السباعي أن الشيخ المرصفيَّ سرق بعض أفكاره ؛

---

(١) ـ العدد : ٣٩٩ ـ بتاريخ : ٢٤ ـ ٢ ـ ١٩٤١ .

فليستعد للدفاع عن النظرِيَّة التي نهبها نهباً من كتاب (النثر الفنيّ) ونشرها في مجلّة (السِّرَاج) .)) . !!

فهالني من صديقي أن يهفو تلك الهفوة !! ؛ بل أن يسقط تلك السقطة !! - لأنه بنى هذا الزعم الفاسد على شيءٍ سطحيٍّ ظاهريٍّ لا يأخذ به مُحقِّقٌ ولا يغترُّ فيه باحثٌ !! - ذلكم هو أنه رأى تاريخ العدد الذي نشرت فيه تلك النظرية بمجلّة ((السِّراج)) لاحقاً لتاريخ نشر كتابه المذكور ؛ ناسياً أنها ثابتةٌ لي قبل تاريخ هذا النشر بزمنٍ طويلٍ !! ؛ فادَّعى أني نهبت وسرقت !! ؛ وهأنذا باسطٌ هذه المسألة للقارئين بسطاً يجعلهم يُوقنون أن صديقي هو الذي نهب وسرق !! ؛ ثم أبى إلا أن يصحب ذلك بجاهٍ عريضٍ من الادِّعاء والتطاول على رجالات الأدب قُدماء ومُحدثين !! - وإلى حضراتهم البيان :

قال الدكتور في كتابه ((النثر الفنيّ)) من كلامه على نشأة المقامات :

((وكان المعروف أن بديع الزمان الهمذانيَّ هو أول من أنشأ المقامات ؛ ولم أجد فيمن عرفت من رجال النقد من ارتاب في سبق بديع الزمان)) .

ثم قال :

((وقد وصلت إلى أن بديع الزمان ليس مبتكر فنِّ المقامات ؛ وإنما ابتكره ابن دُريد المتوفى سنة ٣٢١ ؛ وإلى القارئ النص الذي اعتمدت عليه في تحرير هذه المسألة)) .

وهنا ساق النَّصَّ الآتي :

((قال أبو إسحاق الحُصريُّ حين عرض لكلام بديع الزمان : كلامه غض

المكاسر ؛ أنيق الجواهر ؛ يكاد الهواء يسرقه لُطفاً ؛ والهوى يعشقه ظرفاً .

ولمّا رأى أبا محمد بن الحسن بن دُريد الأزديّ أغرب بأربعين حديثاً ؛ وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ؛ واستنخبها من معادن فكره ؛ وأبداها للأبصار والبصائر ؛ وأهداها للأفكار والضمائر ؛ في معارضٍ عجميّة ؛ وألفاظٍ حُوشيّة ؛ فجاء أكثر ما أظهر تنبو عن قبوله الطباع ؛ ولا ترفع له حُجُبها الأسماع ؛ وتوسّع فيها ؛ إذ صرف ألفاظها ومعانيها ؛ في وُجُوهٍ مُختلفة ؛ وضروبٍ متصرفة ـ عارضها بأربعين مقامةٍ في الكُدية ؛ تذوب ظرفاً ؛ وتقطر حُسناً ؛ ولا مناسبة بين المقامتين لفظاً ولا معنى ؛ وعطف مُساجلتها ؛ ووقف مناقلتها : بين رَجُلين : سمّى أحدهما عيسى بن هشام ؛ والآخر أبا الفتح الإسكندريّ ؛ وجعلهما يتهاديان الدُّر ؛ ويتنافثان السحر ؛ في معانٍ تُضحك الحزين ؛ وتُحرّك الرصين !! ؛ يتطلع منها كل طريفة ؛ ويُوقف فيها على كل لطيفة !! ؛ وربما أفرد أحدهما بالحكاية ؛ وخصّ أحدهما بالرّواية » . انتهي النص .

وأنا أؤكّد لحضرات القارئين أن قول الدكتور : « وكان المعروف أن بديع الزمان الهمذانيّ هو أول من أنشأ المقامات » ـ لم يكن المعروف ؛ وإنما كان المُنكر الذي يُنكره التاريخ ؛ ويبرأ منه الأدب قديماً وحديثاً !! ؛ وإنما هي مُقدّمةٌ ساقها الدكتور باطلةً ؛ ليبني عليها تلك النظريّة التي طنطن بها وعج !! .

وليسمح لي صديقي أن أُعيد على مسمعه ما سبق أن رميته به من قلّة الاطلاع !! ـ فإن ذلك النصّ التاريخيّ لم يكُن هو الذي كشف عنه !! ؛

وكيف وقد كان نصّاً معروفاً مُتداولاً ؛ نقله كثيرٌ من الأقدمين تدليلاً على أن البديع لم يكُن المُنشئ الأول للمقامات ؛ كابن خلّكان وياقوت في كتابيهما « وفيات الأعيان » و « مُعجم الأُدباء » ؛ وكالشريشيِّ في شرحه لمقامات الحريريِّ !!.

ولولا ضيق « الرسالة » في هذى الظروف ؛ لنقلت نصوص هؤلاء الأعلام ؛ ثم لذكرت غيرهم وأتيت على نصوصهم ــ في سبيل نقض الدعوى التي ادَّعاها الدكتور ؛ تلك التي أخجلُ أن أُسمِّيها « دعوى » بالمعنى المعروف !! ؛ لأنها ظاهرة الفساد والبُطلان ؛ وليس للخصومة بشأنها أيّ مجال !! ؛ ولكن صديقي حين صادفه هذا النصُّ وهو يقوم بما يقوم به في « زهر الآداب » ـ بتكليفٍ من طابعه الحاج مصطفى محمد صاحب المكتبة التُّجاريَّة ؛ ولولاه ما كان عثر ـ : اعتقدَ أنه عثر على ما لم يعثر عليه إنسان !! ـ وأنه بهذا الكشف عن ذلك الكنز « كنز توت عنخ آمون » قد أصبح فارس ميدانٍ ؛ أو فارس الميدان !! ؛ وإذن : فليجل ويصل وليمش في الأرض مرحاً حتى يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولاً !! ؛ ثم ليستمع الناس له مُرغمين ساكتين وهو يقول بعد القول الذي فنَّدناه :

« ولم أجد فيمن عرفتُ من رجال النقد من ارتاب في سبق بديع الزمان إلى هذا الفنِّ ــ وإنما رأيت من يُعلِّل سبقه بنزعته الفارسيَّة » .

جاهلاً أن رجال النقد يأبون عليه ذلك إن كان قد عرفهم !! ؛ فإن تلك النظرية التي يزعم كشفها بيده وتقديمها للأُدباء مُخترعةً ببحثه ـ معروفةٌ

للأُدباء الحديثين ؛ ومدروسةٌ منهم للمُتأدِّبين !! ؛ وها نحن أولاء أبناء دار العلوم فتحنا عيوننا أول ما درسنا الأدب بتلك الدار على هذه النظرية المزعوم كشفها وتلقيناها على أيدي أساتذتها في العُشر الأول من هذا القرن الذي أوشك أن ينتصف - أي مُنْذُ أربعين من السنوات - !! .

هذه هي الحقيقة ناصعة !! ؛ ولكن ليس لي أن أتركها من غير دليلٍ أُقدِّمه لصديقي الدكتور ؛ بعد الذي قدَّمه عن نفسه ؛ من أنه لا ثقة للناس في اطلاعه ؛ ولا علم لهم باتساع أُفقه - وإذن فليتلق هذا الدليل من إحدى مُذكِّرات المرحوم الشيخ أحمد الإسكندريّ ؛ فقد كان يُدرِّس تلك النظريَّة لطلبة دار العلوم قبل أن يكون الدُّكتور شيئاً !! :

قال - رَحِمَهُ اللهُ - في الصفحة ٣١٠ من مُذكِّرةٍ مطبوعةٍ في الأدب العبَّاسيّ لطُلَّاب السنة المكتبيَّة ١٩٢٩ - ١٩٣٠ طبعة أخيرة ؛ وهو يتكلَّم على المقامات في ترجمة البديع ما نصه :

« وكان ممن أعجبته هذه الطريقة - يعني طريقة المقامات - : ابن دُريد ؛ فأراد أن يُلقِّن نابتة زمانه اللُّغة والأدب في هذا النوع من الكلام .

قال أبو إسحاق الحُصريُّ في كتابه (زهر الآداب) - وقد ذكر أبا الفضل الهمذانيَّ بديع الزمان - : وهذا اسمٌ وافق مُسمَّاه ؛ ولفظٌ طابق معناه ؛ كلامٌ غض المكاسر ؛ أنيق الجواهر » ؛ إلى آخر هذا النصِّ الذي ادَّعى كشفه الدُّكتور ؛ ثم نقله في « نثره » مُعجباً به أيما إعجاب !!.

أصدَّقتَ إذن يا صديقي أنك كنت في قولك : « ولم أجد فيمن عرفت من

رجال النقد من ارتاب في سبق بديع الزمان إلى هذا الفنّ » أجرأ منك في قولك السابق : « وكان المعروف أن بديع الزمان هو أول من أنشأ المقامات » !! .

صدَّق صدِّق يا دكتور !! ؛ ثم أُخل إلى نفسك ؛ واحسب عدد من درسوا في دار العلوم على هذا العالم الجليل حقبةً تقرب من ثُلث القرن ؛ وما كان متوسط عدد كُلِّ فرقةٍ على سنيه ينقص عن الستين ؛ فإذا ما حسبت ـ علمت أنَّ من يعرفون تلك النظريَّة من خريجي دار العلوم وحدهم ـ فما بالك بغيرهم ـ يُناهزون الألفين !! ؛ بل يزيدون !! .

ثم اذكر يا صديقي : أن هؤلاء الخريجين يُدرِّسُون ذلك لتلاميذهم في مُختلفات المدارس ؛ وفيهم من درَّسُوها لطُلاَّب دار العلوم وطُلاَّب كُليَّة اللُّغة العربيَّة ؛ ودوَّنُوا هذا في مُذكِّراتهم مُفصَّلاً مبسوطاً ؛ قبل أن تدونه أنت في كتابك موسوماً بسمة الاختراع !! ؛ وأنا أحد من فعل ذلك لطُلاَّبي في المعهدين المذكورين مُنْذُ أن بدأت دراسة الأدب فيها سنة ٣٢ ـ ٣٣ ؛ وكتابك لم يطبع إلا سنة ٣٤ !! ؛ وكذلك فعل زميلي وابن دار العلوم الأستاذ محمود مُصطفى في كُليَّة اللُّغة العربيَّة التي لا يزال فيها إلى الآن !! .

الحقُّ يا صديقي أنك كُنْتَ جريئاً ؛ إن صحَّ أن يُسمَّى جراءةً هذا الادِّعاء !! ؛ والحقُّ أن الخجل كان قد رُفِعَ حينما زهوت بهذا الكشف المزعوم زهو الطاووس ؛ فقُلتَ أنك حين اطلعت عليه المسيو مرسيه بباريس ـ دُهِشَ وعجب كيف اتفق الناس مع هذا على أن بديع الزمان هو مُنشئ فنِّ

المقامات ؟!! ؛ وأنه أتحفك بهذه العبارة بقولها لك من باب الإطراء ؛ وهي : « يظهر أنه ضاع علينا من تاريخ الأدب العربيِّ شيءٌ كثير !! » ؛ ثم زدت في الزهو ؛ فنسبت إلى الدكتور طه حسين من العجب والدهش مثل ما نسبت إلى المسيو مرسيه !! ؛ وأنه جال معك في حديثٍ ألهمه إيَّاه نبأ هذا الاختراع !! ـ ولم يك باقياً عليك إلا أن تذيع أخبار هذا الكشف على تيَّارات البرق وموجات الأثير !! .

والآن ـ أفما كان الأجدر والأولى بالأُستاذ الإسكندريِّ وأمثاله من المُحدثين الذين سبقوا إلى هذا الكشف بسنين أن يدَّعوه لأنفسهم إن كان هناك اختراع ؟!! ؛ ولكن حاشا لهم وهم ممن يحترمون الحقيقة ولا يتغفَّلُون السَّواد أن يدَّعُوا دعواك ؟!!

وأما كان لي أن أرميك ـ إذ رميتني بالسرقة والنهب !! ـ أنك أنت الذي افتريت ومنِّي نهبت ؟!! ؛ ولكن حاشا ونحن كأساتذتنا نحترم الحقائق ولا نتغفَّل السَّواد أن نفعل ما فعلت !! ؛ فإنما الأمر مفهومٌ معروف !! ؛ وأنت فيه المُتأخِّر المسبوق !! .

والذي لا شكَّ فيه بعد هذا البيان : أنك كذبت على القُدماء !! ؛ واغتصبت جُهُود المُحدثين !! ؛ ثم لم تتسلَّل لُواذاً ولم تخلص نجيًّاً كما يفعل السارقون !! ؛ ولكن أبيت إلا أن تُهلِّل وتُكبِّر !! ؛ وتتعالى وتتجبَّر !! ؛ ثم تُغالي بالزهو بنفسك !! ؛ واجتذاب الإعجاب بك من غيرك !! ؛ وإذا بالحقِّ يصرعك وينتقم للأدب والجماهير منك !! .

وإنّي أستحلفك بالله يا صديقي صادقاً !! : كيف وصفت نفسك إزاء ما سمَّيتها نظريةً وهي من البدهيَّات بما وصفت ؟!! ؛ أكان ذلك عن جهلٍ منك إلى هذا الحدِّ ؟!! ؛ أم هو تغريرٌ وادِّعاءٌ ليس من بعده بعد ؟!!

وبعد ـ فقد آن لي أن أكِرَّ راجعاً على كلمتك التي رميتني فيها بالسرقة منك بعد أن قبضت عليك مُتلبِّساً بالسرقة التي ادَّعيت ؛ فأُعلِّق على باقي ما ذكرت فيها بعباراتٍ خاطفةٍ ـ إن شئتُ بسطتُ كُلَّ عبارةٍ منها في مقالٍ كالذي سمعت ـ :

١ ـ جعلت عنوان كلمتك «الهجوم الآثم على الشيخ سيِّد المرصفيِّ» ـ وهذا أمرٌ غبت عنه ولم تشهده !! ؛ فكيف أقدمت عليه قبل أن ينجلي لك ؟!!

وإذا سوغ لك تطاولك أن تُسمِّيه هجوماً ؛ فكيف وصفته مُتسرِّعاً بالآثم ؟!! ؛ فكنت الآثم بما وصفت !!

٢ ـ تزعم أن الخطابات قد كثُرت عليك في تحقيق ما ادَّعيته عليَّ في حقِّ الشيخ المرصفيِّ !! ؛ وأنا أجزم قاطعاً ؛ وأحلف غير حانثٍ : أنه لا خطابات !! ـ وإذا كانت ؛ فإنها لا تعدو ركب النُّميريِّ الذي قال فيه :

فلمَّا رأت ركب النُّميريِّ أعرضت
وكُنَّ من أن يلقينه حذراتِ

فلمَّا سُئِلَ فيما كُنْتَ ؟!! ؛ قال : والله إن كُنْتُ إلا على حمارٍ هزيلٍ ؛ ولي رفيقٌ على أتانٍ مثله !! .

٣ ـ تقول : « وكُنتُ ـ أي لولا تلك الخطابات ـ أغفلت هذا الموضوع عن عمرٍ ؛ لأن الأستاذ السباعي له عليَّ حُقُوق » .

وما كُنْتُ أفهم إلا أن تلك الحقوق ؛ إنما هي حقوق الصداقة ؛ فإني لا زلت بها حفيّاً وعليها حريصاً ؛ ولكنك جعلتها يا صديقي : « أنني كُنتُ دائماً من أنصارك » !! ؛ وليس لمثلي أن ينخدع بخُدعة الصبيِّ هذه تسوقها إليه !! ؛ فالحقيقة المُرَّة التي أُسمعك إيَّاها الآن بعد أن طغيت زماناً ولم تُرَد : أنك ما كُنتَ في يومٍ زعيماً في الأدب حتى يصحَّ أن يكون لك أنصار !! وإنما زعامتك نسج عنكبوتٍ حكته من حولك !! ؛ وتركك الناس تلهو به وتلعب !! .

ثم زدت هذه العلَّة أخرى تقول فيها : « ولأنَّ مقام الشيخ المرصفيِّ أقوى من أن يُهدم بكلمةٍ جارحةٍ تُساق إليه في إحدى المُحاضرات » .

وإنِّي أُحذِّرُكَ جريئاً على تحذيرك إن كُنت تُريدها خُصُومةً أدبيَّةً بيني وبينك : أن تترك الآن الشيخ المرصفيَّ !! ؛ فإن التحكُّك به لن يُغني عنك بالموضوع شيئاً !! ؛ وإذا ما صُفِّيَ الحساب بيننا عُدتُ أُبيِّن لك أن مكانة الشيخ المرصفيِّ لا تعلو على النقد !! ؛ وأن الذي يصفه ببعض ما وصف به المُبرِّد لا يكون قد عدا الحقيقة !! ؛ ولا تعدِّي على السلف الصالح !! ؛ فإنَّ المُبرِّد على أيَّة حالٍ أعلم من المرصفيِّ علماً ؛ وآدب منه أدباً ؛ ثم هو أدخل منه في السلفيَّة الصالحة دُخُولاً يقوم شاهداً عليه عددٌ وافرٌ من القرون .

٤ ـ ورابعاً : تقول : « ولكن سكوت الأزهريين عن الانتصار للشيخ

المرصفيٍّ أزعجني !! ؛ وكُنتُ أرجو أن يكونوا درعاً واقيةً لذلك الشيخ الجليل ؛ وهو رَجُلٌ لم ير مثله الأزهر مُنْذُ أجيالٍ طُوال !! » .

وأنا أصدقك القول يا صديقي بغضٍّ النظر عن نصيب هذا التفضيل الذي أسبغته على الشيخ من الحقيقة والواقع : بأن عبارتك هذه من باب الاستعداء الذليل وَالمَلَقِ الرخيص الذي يُنقص منك ولا يزيد فيك !! ؛ فقد فاتك أن الأزهريين يُقدِّسُون حُريَّة البحث في دراساتهم أول ما يُقدِّسُون !! وأنهم يرثون المُبرِّد قبل أن يرثوا المرصفيَّ !! ؛ وأن دينهم في ماضيهم وحاضرهم يأبى عليهم إجابتك إلى ما تطلب ـ لما يحُسُّونه في طِلْبَتِك من غرضٍ وهوىً !! ؛ ولأنه إذا كانت هناك حقيقةٌ اعتُدِي عليها ؛ كان من شأن هذا الاعتداء أن يحُفِّزهم على نُصرتها من دُون صُراخ لك فيها ولا استعداء منك بشأنها !! .

٥ ـ وخامساً : تعتبر مُضايقتي بلاءً لصداقتي ؛ والسكوت عن المرصفيِّ بلاءً لأُستاذيته ـ ثم تخرج من هذه الحيرة بنقل القضيَّة من وضعٍ إلى وضعٍ !! ؛ لتُصيِّرها أدبيَّةً بعد أن كانت شخصيَّةً !! ؛ ثم تُعلن عن هذه الخُصُومة ؛ فإذا هي أمران ـ أحدهما : زعمك أني زعمت أنَّ الشيخ المرصفيَّ قد سرق بعض أفكاري ؛ وإهابتك بي أن أستعد للدفاع عن النظريَّة التي نهبتها من كتابك « النثر الفنيّ » ونشرتها في مجلّة « السِّرَاج » ـ والآخر : أنني أستر جنايتي على المُبرِّد بجنايتي على المرصفيِّ ؛ وأنك ستُعرِّفني أن تهذيبي « للكامل » لم يكُن إلا جنايةً أدبيَّةً ؛ وأن التطاول على مقام الشيخ المرصفيِّ لا يذهب بلا

عقـاب !! .

ورأيي لك يا صديقي في الأمر الأول ـ أمر سرقتي من « نثرك » إلى مجلّة « السراج » : قد سمعت فيه كلمتي الثانية هذه التي سُقتها إليك بشأنه ؛ واثقاً أن لك فيها دواءً ناجعاً من الادِّعاء !! ؛ وشفاءً شافياً من الغرور !! ؛ وراجياً أن تكون أهلاً لثقتي هذه فيك !! .

أما رأيي لك عن الأمر الثاني ـ فقد أنبأتك آنفاً بإرجائه إلى ما بعد كلمتي هذه والسابقة ؛ لأنه موضع الخُصُومة ؛ وفيه سيكون النِّـزال ؛ وإنِّـي بهـذه الخصومة لجدُّ مسرور !! ؛ أتدري لماذا ؟!! ؛ لأني سأعرضك فيهـا للجمهـور على حقيقتك التي غشيتها ما غشيتها !! ؛ وتسامح الناس فيها معك ما تسامحوا !! .

وسيكون أول كشفٍ لك فيما عملت ؛ واقعاً على « زهر الآداب » ـ إن شاء الله ـ ؛ لأنه دُون سائر أعمالك أشبه بما عملت في « تهذيب الكامـل » الذي عددته جنايةً أدبيَّـةً !! ؛ حتى إذا ما أخرجتك بمقالاتي فيه مُعترفاً لـي ببراءتي من هذه الجناية ؛ ومُعترفاً على نفسك بإجرامك على « الزهـر » !! ؛ وصاحبه !! ؛ وعلى الأدب !! ـ انبريتُ إلى تصانيفك ـ التي لا شبه لها عندي إلا أفراخ البُغاث كثرة عـددٍ وقلّة غنـاءٍ !! ـ أَرُدُّ مـا لـيس لـك فيهـا ـ وهـو أكثرها ـ ؛ إلى مآخذه ؛ ذاكراً ما أُوقعت فيه من تحريفٍ ؛ وأُبيِّن زيف ما هو من صُنع يدك ـ وهو القليل ـ ؛ بما لا مخرج لك منه أمام الناس لا أمام نفسك !! .

٦ ـ بقيَ قولك في نهاية كلمتك : إنك تكره البغي على أصدقائك ؛ وإن

أمرك معهم لم يكُن إلا شبيهاً بأمر أكثم بن صيفيٍّ « إنَّ قول الحقِّ لم يدع لي صديقاً » .

وما كان أكثم لك بشبيهٍ !! ؛ فإنَّ الذي لم يدع لك صديقاً إنما هو دأبك على الباطل في كثيرٍ مما تبحث !! ؛ وبغيك على حقِّ الصديق في جُلِّ ما تنقُد !! ؛ حتى لقد أمللت ومللت !! ؛ ولقد حدَّثتني نفسي أن أكون فيما بغيتَ عليَّ عاملاً بالآيةِ : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (١). كما فعل كثيرٌ ـ ولكنني رأيت في بعض وجوه الحزم ـ وأنت عالمٌ بالوجه الذي رأيت ـ أن أحيد في مُعاملتك عن تلك الآية السمحة إلى هذه الآية العادلة ﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (٢). ؛ وحقّاً لا تثريب عليَّ ولا سبيل ؛ ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ : أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣). .

وإليك يا صديقي سلامي حتى ألقاك في مقالي المُقبل بالدفع العنيف لما كتبتَ في العدد الماضي ؛ مصحوباً بالهجوم الأعنف على ما صنعت بـ « زهر الآداب » .



(١) ـ [سُورَةُ الشُّورَى / الآيَةُ : ٤٣] .

(٢) ـ [سُورَةُ الشُّورَى / الآيَةُ : ٤١] .

(٣) ـ [سُورَةُ الشُّورَى / الآيَةُ : ٤٢] .

.....

✿ - لِيَحْكُم رِجَالُ الأَدَبِ العَرَبِيِّ :

✿ - السَّبَاعِي بَيُّومِي
يَسْتُرُ جِنَايَةً عَلَى المُبَرِّدِ بِجِنَايَةٍ عَلَى المَرْصَفِيِّ
- لِلدُّكْتُور زَكِي مُبَارَك -
- (٢) -

.....

ما الذي يُوجب أن تشعر يا سيِّد سباعي بمثل لسع العقرب كُلَّما لوَّحتُ لك باسم الشيخ المرصفيِّ ؟!!

ما المُوجب لهذا الفزع وقد مات المرصفيُّ ؛ ومات ؛ ثم مات ؟!!

السبب أوضح من أن يحتاج إلى من يُنَبِّه إليه القُرَّاء !! - وهو عرفانك بأني سأقهرك على الاعتراف بأن كتابك « تهذيب الكامل » لن يظهر سليماً من الأغلاط يوم تطبعه للمرَّة الثانية ؛ إلا وأنت مدينٌ أثقل الدَّيْنِ لكتاب « رغبة الآمل في شرح الكامل » ؛ وهو الكتاب الذي دعوتَ الناس إلى الصُّدُوف عنه ليخفي عليهم فضل مُؤلِّفه عليك !!.

وشبح الشيخ المرصفيِّ سيُلاحقك في يقظتك ومنامك !! - لأن كتابك لن

---

(١) - العدد : ٤٠١ - بتاريخ : ١٠ - ٣ - ١٩٤١ .

يُطبع بعد اليوم قبل أن تشهد كُلُّ صفحةٍ من صفحاته بأنك استعنت بتحقيقات الشيخ المرصفيِّ !! ؛ وقبل أن تعترف علانيةً بأنك خضعت لجبروت الحقِّ ؛ بعد أن طال جدالك فيه !! .

ولو كان الله منحك نعمة الذوق ـ لقدَّرت قيمة التعصُّب لِرَجُلٍ ميِّتٍ لا أنصار له ولا أشياع !! ؛ ولا يُنتظر أن يكون للتعصُّب له بارقةٌ من بوارق الثواب !! ؛ وقد عاش ما عاش وهو مُعدوم السِّناد من العصبيَّات ؛ فما استهانتك بالوفاء وهو معنىً لا يُقيم له الميزان غير أحرار الرِّجال ؟!!

ثم ماذا ؟!! ؛ ثم وجدتَ الفُرصة للتخلُّص من تُهمة السرقة من كتاب « النثر الفنيّ » فيما يتصل بنشأة فنِّ المقامات في الأدب العربيِّ ـ لأن كتاب « النثر الفنيّ » ظهر في سنة ١٩٣٤ ؛ وأنت ـ فيما تزعم ـ أعلنت هذا الرأي في سنة ١٩٣٣ ؛ فهل تُصدِّق في سريرة نفسك أنك نجوت من صولة الحقِّ ؟!!

وهل تظُنُّ أن الأسانيد المُدوَّنة في مقالاتي ومُؤلَّفاتي غير قديرةٍ على إلقاء تُهمة السِّرقة فوق منكبيك بصورةٍ لا تُبقي لك فُرصةً من فُرص المُكابرة والروغان ؟!!

إليك أسوق البراهين التي تقطع بأن الشيخ الإسكندريَّ نقل عني !! ؛ والتي تجزم بأنك سرقت من كتابي !!

والحمد لله الذي أتاح هذه الفُرصة !! ـ ليعرف تلاميذك بدار العلوم أنك تُقدِّم إليهم معارف أدبيَّةً لم تَشْقَ في تحصيلها لحظةً أو لحظتين !! ؛ وإنما نهبتها في الخفاء !! ؛ ولم تكُن تعلم ـ لسوء حظِّك ـ أن الحقوق تُرَدُّ إلى أصحابها ؛

ولو بعد حين !!

أنت قُلْتَ في كلمتك الثانية : أني التفتُّ إلى نص « زهر الآداب » مُصادفةً ؛ حين قُمتُ بتصحيحه في سنة ١٩٢٥ !!.

وهذا حقٌّ ؛ فالمُصادفة هي التي هدتني إلى النص الذي يجعل بديع الزمان مُتأثِّراً بابن دُريد في إنشاء المقامات ؛ ولكن كيف رأيتُ لهذا النص قيمةً تستحق التسجيل؟!! ؛ إنما كان ذلك لأن الدكتور «أحمد ضيف » كان حدَّثنا في مُحاضراته بالجامعة المصريَّة أن فنَّ بديع الزمان في المقامات مُستوحىً من الآداب الفارسيَّة ؛ ولولا ذلك لكان من الجائز أن يُمرَّ نص « زهر الآداب » بدون أن ألتفت إلى قيمته في تاريخ الفنون الأدبيَّة .

وقد حدَّثت الدكتور أحمد ضيف عن هذا النصِّ ؛ فأجاب بأنه لا يزال عند رأيه الأول ؛ ثم حدَّثت الدكتور طه حُسين عن هذا النص ؛ فجادلني فيه ؛ وانتهينا إلى رأيٍ سجلته فيما بعد بالتفصيل .

وفي سنة ١٩٢٧ شرعت في تأليف كتاب « النثر الفنيّ » باللُّغة الفرنسيَّة ؛ وأثبتُّ فيه النص الذي اهتديتُ إلى قيمته في « زهر الآداب » ؛ ومعنى ذلك : أني حرَّرت هذه المسألة قبل أن يلتفت إليها الشيخ الإسكندريُّ في سنة ١٩٣٠ !! .

ولكن كتاب « النثر الفنيّ » لم يظهر في مكاتب باريس إلا في سنة ١٩٣١ ـ فكيف يصحُّ القول بأن الشيخ الإسكندريَّ نقل عنِّي ؟!!

لم ينقل الشيخ الإسكندريُّ في سنة ١٩٣٠ عن كتابٍ ظهر بالفرنسيَّة في

سنة ١٩٣١ ؛ فذلك غير معقولٍ !! ؛ وإنما نقل الشيخ الإسكندريُّ عن كتابٍ نشره زكي مبارك في سنة ١٩٢٩ ؛ وهو الطبعة الثانية من « زهر الآداب » ؛ ففي هامش الصفحة ٣٠٧ ؛ قال زكي مبارك في التعليق على عبارة الحُصريِّ ما نصه بالحرف :

« مُؤدَّي هذا الكلام : أن بديع الزمان ليس مُبتكر فنِّ المقامات ؛ وأنه حاكى ابن دُريد في أحاديثه ؛ وقد استغللتُ هذا النصَّ في كتابي الذي وضعته بالفرنسيَّة عن (النثر الفنيّ في القرن الرابع) ؛ وقد دهش المسيو (مرسيه) لهذه الفكرة !! ؛ وعجب كيف اتفق الناس على أن البديع هو مُنشئ فنِّ المقامات ؟!! .

ولكنِّي من جانبٍ آخرٍ أذكر أني لم أر مثل هذا الكلام في غير (زهر الآداب) ؛ ولا أزال أتلمَّس له مصدراً آخر ؛ ولم أعثر على شيءٍ إلى اليوم ؛ ويزيد في الدهشة أن صاحب (زهر الآداب) يروي المسألة على أنها مقبولةٌ معروفةٌ لم تُمسَّ بنقضٍ ولا تكذيبٍ !! ؛ وقد نقلها عنه ياقوت في مُعجم الأُدباء . » .

ذلك ما جاء في هامش الجزء الأول من كتاب « زهر الآداب » ؛ وقد ظهرت طبعتُه الثانية سنة ١٩٢٩ ؛ وكان الشيخ الإسكندريُّ يقتني جميع الطبعات كما حدَّثني غير مرَّةٍ رحمه الله .

ومع ذلك لم تقف المسألة عند كلامٍ أُحدِّث به أساتذة الأدب العربيِّ ثم أثبته في هامش كتابٍ يظهر في سنة ١٩٢٩ ـ فقد نشرتُ مقالاً رنَّاناً في مجلَّة

« المقتطف » - عدد أبريل سنة ١٩٣٠ - ؛ نشرته وأنا مزهُوٌّ زهو الطاووس !! ؛ تحت عنوان : « إصلاح خطإٍ قديمٍ مرَّت عليه قُرُونٌ في نشأة فنِّ المقامات !! »

وكان من أثر ذلك المقال الرنَّان - أن تثور بيني وبين المرحوم مصطفى صادق الرافعيِّ معركةٌ قلميَّةٌ على صفحات المُقتطف .

فهل من المعقول أن تثور معركةٌ قلميَّةٌ بين زكي مُبارك ومصطفى الرافعيِّ ولا يصل صداها إلى الشيخ الإسكندريِّ ؟!! ؛ وكان من المُشتركين في « المُقتطف » ؟!! ؛ وهي في موضوعٍ يتصل بدروسه في دار العلوم ؟!!

من الكلام الذي نشرته في سنة ١٩٢٩ بهامش الطبعة الثانية من « زهر الآداب » ؛ والمقال الذي نشرته في « المُقتطف » سنة ١٩٣٠ - أخذ الشيخ الإسكندريُّ فكرة القول بأن بديع الزمان نقل فنَّ المقامات عن ابن دُريد ؛ وإلا فكيف سكت الشيخ الإسكندريُّ عن هذه المسألة في كتابه « تاريخ الأدب العربيِّ في العصر العبَّاسيِّ » الذي ظهر سنة ١٩١٣ ؟!! ؛ وكتابه الموسوم بـ « الوسيط » الذي شاركه في تأليفه الشيخ مصطفى عناني وقد ظهر قبل سنة ١٩٢٥ ؟!!

لماذا أجَّل الشيخ الإسكندريُّ هذه المسألة إلى المُذكِّرات التي ظهرت في سنة ١٩٣٠ ؛ وهي المُذكِّرات التي حدَّثتنا أنها « طبعة أخيرة » ؟!!

إنما اهتدى الشيخ الإسكندريُّ في « الطبعة الأخيرة » بما قرأ لزكي مبارك في هامش « زهر الآداب » سنة ١٩٢٩ ؛ وبما نشر زكي مُبارك في « المقتطف » سنة ١٩٣٠ !! ؛ ولك أن تُغيِّر هذه الوقائع إن استطعت !! ؛ ولن تستطيع !! .

ثم أذكر أن الأستاذ أحمد الزين أرسل إليَّ خطاب ثناءٍ بعد قراءة مقالي في « المقتطف » ؛ وأحمد الزين كان يُسمر كل ليلةٍ مع الشيخ محمد عبد المطلب ـ فلو كان من الصحيح أن أبناء دار العلوم كانوا يعرفون جليَّة هذا الأمر مُنْذُ بداية القرن العشرين : لكان من الواضح أن يفهم الأستاذ الزين أن مقالي في « المقتطف » لم يأت بجديدٍ حتى يستوجب خطاب ثناء !! .

وأنا أتحدَّاك أن تُثبت أن شخصاً واحداً من أبناء دار العلوم تحدَّث عن هذه المسألة في كتابٍ مطبوعٍ - أو مخطوطٍ !! - قبل أن أتحدَّث عنها في هامش « زهر الآداب » سنة ١٩٢٩ !! .

انتهت قصة الشيخ الإسكندريِّ !! .

فما قصتُك أنت ؟!!

لا تقُل إنك قرأت مُذكِّرات الشيخ الإسكندريِّ في طبعتها الأخيرة سنة ١٩٣٠ !! ؛ ولكن قُل إنك كُنتَ ناظراً لإحدى مدارس المُعلِّمين الأوليَّة ؛ وهي مدرسةٌ يدخلها في كل شهرٍ ثلاث نُسخٍ من أعداد « المقتطف » ـ فهل يكون من المُمكن أن تثور معركةٌ قلميَّةٌ بين زكي مُبارك ومصطفى الرافعيِّ على صفحات تلك المجلَّة ؛ ولا يلفتك إليها أحدٌ من الأساتذة أو الطُّلاَّب ؟!!

اسمع أيُّها الأُستاذ المفضال :

أنت لم تُقدِّم نصَّاً يشهد بأنك سجَّلت كلمتك في عبارة « زهر الآداب » قبل ظهور الطبعة العربيَّة من كتاب « النثر الفنيِّ » سنة ١٩٣٤ ؛ فلم يبق إلا النص المُسجَّل عليك في مجلَّة « السِّراج » سنة ١٩٣٧ ـ وهو قاطعٌ بأنك

سرقت من كتاب « النثر الفنيّ » !! ؛ وإليك القرائن :

أوّلاً ـ من المفهوم عند جميع الباحثين ـ أن الباحث يُشير إلى الطبعة الأخيرة من الكتاب الذي ينقل فقرةً من فقراته ؛ فكيف تُشير أنت إلى طبعة « زهر الآداب » القائمة على هامش « العقد الفريد » ؛ وقد انقرضتْ من الأسواق ؟!! ؛ ولا تُشير إلى طبعة زكي مبارك التي ظهرت في سنة ١٩٢٩ ؟!!

أليس ذلك شاهداً على أنك تخشى أن يفطن القُرَّاء إلى أنك انتهبت عبارة زكي مُبارك ؟!!

ثانياً ـ أنا لم أُعيِّن النظريَّة التي انتهبتها من كتاب « النثر الفنيّ » حين هدَّدتك بكشفها أمام قُرَّاء « الرسالة » ؛ فكيف عرفتَ أن هذه النظرية هي المقصودة بالذات؟!! ؛ ومن أدراك ـ أيُّها الأستاذ ـ أنها سِكِّين ؟!!

ثالثاً ـ أشقيت نفسك في التهوين من هذه النظريَّة !! ؛ فما المُوجب لذلك التهوين لو كانت من مُبتكراتك أو مُبتكرات أحد أساتذتك بدار العلوم ؟!!

إنك تُهوِّن من شأن هذه النظريَّة ـ لأنها من مُبتكرات زكي مبارك !! ؛ فهي عندك شيءٌ عديم القيمة !! ؛ لا يستوجب أن يُزَهى به الرَّجُلُ زهو الطاووس !!

هذه القرائن هي حُجَّتي عليك ؛ وهي البُرهان القاطع على صحَّة العبارة التي تقول :

« يكاد المُريب يقول خُذُوني !! » !!

ما المُوجب لأن تقول إن كشف هذه النظريَّة لا يُساوي كشف مقبرة توت

عنخ آمون ؟!!

إنما مَثَلُكَ مَثَلُ اللصِّ الذي يُهوِّن شأن ما سَرَقَ لينجو من العقاب !! ؛ وأنت تُدرك الخطر الملفوف في هذا الملحظ الدقيق !!

وهُناك نظريَّةٌ أُخرى مُتَّصلةٌ بالمقامات ـ وهي نظريَّةٌ فاتني النصُّ عليها في النُّسخة الفرنسيَّة التي ظهرت سنة ١٩٣١ ؛ ولم تفتني في النُّسخة العربيَّة التي ظهرت سنة ١٩٣٤ ـ فهل ترى لها « خبراً » في « الطبعة الأخيرة » من مُذكِّرات الشيخ الإسكندريِّ ؟!! ؛ وهل تُراك حدَّثت بها قُرَّاء مجلَّة (السِّراج) في سنة ١٩٣٧ ؟!!

وهُناك نظريَّةٌ ثالثةٌ مُتَّصلةٌ بالمقامات ـ وفيها ردٌّ على المرحوم الشيخ محمد عبده ؛ وهي مُثبتةٌ في كتاب « ليلى المريضة في العراق » ؛ فهل تعرف هذه النظريَّة ؟!!

وهُنالك تحقيقٌ مُتَّصل بالمقامات ـ وهو موضوع مقالٍ حدَّثت به صاحب « الرسالة » مُنْذُ أكثر من عامين ؛ ولم أُقدِّمه لمجلَّة « الرسالة » إلى اليوم ـ لأنه يفرض الرُّجُوع إلى عادياتٍ ؛ بعضها في النجف ؛ وبعضها في بغداد ؛ فهل تعرف موضوع ذلك التحقيق؟!! ؛ وهل تعرف ما بقي مطويّاً من أسرار المقامات ؟!!

أتركُ هذا الجدال ـ لأُوجِّه الكلام إلى الدكتور عبد الوهَّاب عزَّام ـ وكان ألقى مُحاضرتين عن بديع الزمان في سنة ١٩٣٤ ـ فقد حدَّثني أمام جماعةٍ من أساتذة الجامعة المصريَّة : أنه اعتمد على كتاب « النثر الفنيّ » في

النظريَّة التي تقول: بأن بديع الزمان نقل فنَّ المقامات عن ابن دُريد؛ فكيف غاب عن الدكتور عزَّام أن أبناء دار العلوم نشروا هذه النظريَّة قبل عشرات السنين ؟!!

أما بعد ـ فقد ظهر أن الأستاذ السباعي بيُّومي سَرَق من كتاب « النثر الفنيّ » ما سرق !! ؛ وتبيَّن للجمهور أنه يُقدِّم لتلاميذه زاداً نهبه من كتابي بدون استئذان !! ؛ ولست من الملائكة حتى أسكت عمَّن يسرق منِّي مُنْذُ أكثر من أربع سنين !!

والأستاذ السباعي يُبالغ في شتمي عامداً مُتعمِّداً ليقهر أصدقائنا على وقف هذه الخُصُومة الأدبيَّة ؛ عساه ينجو من بطش قلمي !!

وأقُول: إنِّي لم أكُن أعرف أن اللُّغة العربيَّة غنيَّةٌ بألفاظ الهجاء قبل أن أقرأ كلمته الثانية !! ؛ وأنا من الذين يدينون بوجوب طلب العلم من المهد إلى اللحد ؛ فمن واجبي أن أرحِّب بمن يُعلِّمُني طرائق السِّبَاب !! ؛ ومن أجل هذا أرفض كُلَّ الرفض أن ينتهي ما بيني وبينه بالصُّلح ـ ولو صدر عن الرَّجُل الكريم الذي أسرَّ في أذني عبارات ونحن بوزارة المعارف ـ !! .

لقد شتمني هذا الرَّجُل ليصرفني عن تسجيل ما سَرَق مني !! ؛ فهل نجا من تطويقه بتلك السَّرقة البلقاء ؟!!

لو كان يعقل لعرف أن السرقة من كتاب « النثر الفنيّ » لا تغُضُّ من أقدار الرِّجَال !! ؛ لأن كتاب « النثر الفنيّ » كالشمس !! ؛ يعيش في ضيائها أرباب الوفاء ؛ كما يعيش أصحاب العقوق !! .

السباعي يُهدِّد ويُهدِّد بنقد مُؤلَّفاتي !! ؛ وهو من فضلها يعيش !! ؛ فهل رأيتم أقبح وأشنع من هذا الكُفران ؟!!

والسباعي يُكاثرني بأبناء دار العلوم !! ؛ فأين كان يوم دفعتُ عنها طُغيان كُليَّة الآداب وأنا مُدرِّسٌ بكُليَّة الآداب ؟!!

وكيف يُنكَر جميلي في حماية تلك الدار من البغي والعُدوان ؟!!

وفي الأسبوع المُقبل يسمع الأستاذ السباعي كلاماً لم يخطر له في بال !!



.....

✿ ـ خُصُومَةٌ أَدَبِيَّةٌ رَضِيتُ فِيهَا الأُدَبَاءَ حَكَماً :

ـ لِلدُّكْتُور السِّبَاعِي بَيُّومِي ـ

.....

زَكِي مُبَارَك

يَكْتُبُ كَثِيراً وَلا يَقُولُ شَيْئَاً

ـ «٣» ـ

ما كُنْتُ أُحِبُّ لك يا دكتور أن تكتب شيئاً مما سوَّدت به مقال العدد ٣٩٨ !! ؛ ومعظم مقال العدد ٣٩٩ !! ؛ بل كُلّه كما ستعلم !! ـ لأنه ليس من الخصومة !! ؛ ولا الخصومة منه !! ؛ وليس بذي فائدةٍ للقارئين !! .

وما كُنْتُ أُحِبُّ أن أجول معك في هذا الخروج لضيق الصفحات الأربع ـ المحدودة في « الرسالة » ـ عن أن تتّسع له !! ؛ ولما أوعدت به من الهجوم عليك في « زهر الآداب » ـ لولا ما تعتقده من أنه في صميم الخصومة !! ؛ وما أخشاه من أن تُزيِّن لك نفسك أنك به قد انتصرت !! .

ولقد كان واجباً عليك وخيراً لك أن تنتظر كلمتيّ السابقتين ثم تكتب في الموضوع !! ؛ ولكنك تعجّلت ولم تستطع معيَ صبراً !! .

---

(١) ـ العدد : ٤٠١ ـ بتاريخ : ١٠ ـ ٣ ـ ١٩٤١ .

والآن ـ فالق جزاء تسرُّعك في الرَّدِّ على ما ذكرت بمقاليك مما لم تتناوله كلمتاي ؛ مشفوعاً بطلبي منك ألا تعود إلى هذا الخروج ؛ حتى نفرغ للخصومة الأدبيَّة بالمعنى الذي تحمل ويُريده الجمهور !! .

تدَّعي أن صديقاً عزيزاً قال لك : ((لم يُرضني تحدِّيك للأستاذ السباعي !! ـ فقد كان يتفق في أحيانٍ كثيرةٍ أن يجعل مقالاتك من موضوعات الدروس بدار العلوم ؛ وذلك من شواهد الإعجاب !! .)) .

وأنك حفظت لي هذا الفضل ؛ وآثرت الصمت ـ لولا أن أديباً أثارك بما كتب إليك !! .

ويظهر يا دُكتور أن هذا الصديق من الخُبثاء الظُّرفاء الذين عرفوا فيك ما قرَّره ابن المُقفَّع : من أنَّ عُجب المرء بنفسه أرحب بابٍ يدخل عليه منه الضاحك عليه والمُضلِّل له !! .

فهو قد أضللك !! ؛ وضحك عليك بما تخيَّل فتحقَّق !! ؛ وما كان لشيءٍ من مقالاتك أن يكون من موضوعات الدروس في دار العلوم !! ؛ ولو حدث لما سُمِّيت ((دار العلوم)) !!.

وتدَّعي أنك مع هذا كُنتَ على نيَّة السُّكوت لصداقتي ؛ ولأن هجومي لن يُقلقل مركز الشيخ المرصفيِّ ؛ ثم لأني من زُملاء الأُستاذين هاشم وصفوت ؛ ولهما عليك حقوق .

فأمَّا ـ الصداقة فما ينبغي أن تحول دون محاورة الصديقين فيما يفيدهما ويفيد الناس !! .

وأما أن هجومي لن يُقلقل من مركز الشيخ المرصفيِّ ـ فعمَّا قريبٍ ستعلم أثره !! .

وتذكَّر أنك في سبيل دفع الشَّرِّ عن الشيخ المرصفيِّ ستُقدِّم لي خدمةً أدبيَّةً بجذبي إلى الجدل على صَفحات « الرسالة » ؛ وأنا مُرحِّبٌ بدفع هذا الشَّرِّ عن الشيخ ؛ ولكن فيما صوَّبت أنا إليه .

ثم إني لشاكرٌ لك جذبي إلى التحرير ؛ وغير طامعٍ في رفق أُسلوبك ؛ بل راغبٌ مُلِحٌّ في أن تريني ما تزعمه لقلمك من أنه تطير من أسلاته شظايا الشدَّة والعُنف ؛ حتى أُعلِّمك ـ إن لم تكُن علمت ـ أن مثل قلمك أمامي مثل بنادق الأطفال ـ تسمع لطلقاتها دُويّاً ؛ ولا ترى لها كَلْمَاً !! .

أما القلم الذي ستُواجه مني ـ فهو مُسدَّسٌ ذو طلقاتٍ ؛ تُميت في غير جلبةٍ ولا ضوضاء ؛ وها أنت ذا قدحت زنده ؛ فاصل شرره !! .

وتقول : إن المرصفيَّ قضى شبابه في خدمة « الكامل » ؛ وأنني قضيت شبابي في خدمته كذلك ؛ وإني لأكاد أُكذِّبك في الأولى ؛ لأنك غير صادقٍ في الثانية قطعاً !! ؛ فما قضيت في تهذيب « الكامل » إلا ثلاث سنواتٍ لا تستغرق شباباً ولا بعض شباب !! .

ثم تتظرَّف وتحكم بأن الفرق بين « الرغبة » و« التهذيب » ـ كالفرق بين المرصفيِّ والسباعي !! .

وإنه لَحُكمٌ أعاد إلى ذاكرتي هذا البيت :

كأننا والماء من حولنا   قومٌ جُلُوسٌ حولهم ماءُ

ثم تُكذِّب ما قاله الطالب « أيُّوب »ـ من أن كتاب المرصفيِّ ظهر سنة ١٩٣٠ !! ؛ وتقول إنه ظهر سنة ١٩٢٧ ـ فتكون سطحيًّا أمام طالبٍ !! ؛ لأنك أخذت تاريخك من غُلاف أول جُزءٍ في الكتاب ؛ والطالب أخذه من غُلاف آخر جُزءٍ منه !! ؛ فارجع إلى هذا الجُزء رجوع الغافل الذي دَلَّ على أنه لم ير الكتاب : تجد عليه سنة١٩٣٠ !! ؛ وهو التاريخ الحقُّ الذي لا يُعتبر في مجال الاحتجاج سواه !! .

على أنك شعرت بتفاهة ما لحظت !! ؛ لأن كتابي ظهر سنة ١٩٢٣ ؛ فقُلتَ : « وليس لهذا التاريخ أهميَّة » !! ؛ ولكنك عُدت فوقعت !! ؛ إذ زعمت أن شرح المرصفيِّ يرجع إلى أكثر من أربعين سنة ؛ وأنه كان كاملاً من جميع الجوانب حتى الفهارس قبل سنة ١٩١٥ ؛ وأنك رأيته بعيني رأسك ؛ ورآه معك الشيخ الزنكلونيُّ !! .

وما رأيك يا دُكتور أن المرصفيَّ نفسه يُكذِّبك في ذلك ـ بعبارته المُدوَّنة في آخر جُزءٍ من أجزاء « الرغبة » عن إتمامه الشرح ؛ فما بالك بالفهارس ؟!! ؛ وهي بنصها :

« وقد انتهى شرح كتاب (الكامل) والحمد لل : ليلة ١١ رجب سنة ١٣٤٠ من الهجرة ».

وهذه تُوافق سنة ١٩٢٣ ؛ أي أن الشرح وحده دُون الفهارس لم ينته إلا سنة ١٩٢٣ لا قبل سنة ١٩١٥ !! ؛ أليست هذه العبارة تُفهم بصريح العبارة أنك كذبت على عيني رأسك !! ؛ وإذا كان لنا أن نتركك حُرًّا تكذب على

نفسك ؛ أفلا نُؤاخذك أن تكذب على غيرك ؟!!

ولكنك يا دُكتور كنت لَبِقاً !! ـ إذ تخيَّرت هذا الغير ممن انتقلوا إلى جوار ربِّهم !! ؛ وأنا جدُّ واثقٍ أن الشيخ الزنكلونيَّ لو امتدَّ به الأجل إلى حيث كتبت ما كتبت ؛ لأشهدت غيره من الأموات !! ـ سامحك الله !! ـ.

ثم إنَّ هذه النقطة حشوٌ لا علاقة لها بالتواريخ !! ؛ ولا هي من العبارات الشعريَّة ـ كما تقول ـ !! ؛ تلك هي قولتك :

« ولن أنسى ما حييت تلك العبارة الشعريَّة التي صرخ بها الشيخ المرصفيُّ وهو يُقدِّم إلينا شرحه على كتاب المُبرِّد ـ لن أنساها أبداً !! ـ ؛ فقد قال شيخنا العظيم وهو يخاطب المُبرِّد : (الله على أيَّامك يا بطل !!) . » .

وبعد ذلك تقول :

« والكتاب الذي كَمُلَ من جميع نواحيه حتى الفهارس قبل سنة ١٩١٥ ـ هو الكتاب الذي سرقت بعض فهارسه من كتابٍ ظهر في أواخر سنة ١٩٢٣ » .

فلتسمح لي يا دكتور أن أتركك وأُخاطب الناس :

أيُّها الناس !! ؛ يعجب الدكتور من أن الطالب أيُّوب لا يستبعد على المرصفيِّ أن يكون قد استعان في كتابه الذي ظهر سنة ١٩٣٠ بكتابي الذي ظهر سنة ١٩٢٣ ؛ زاعماً أن كتاب المرصفيّ كان كاملاً من جميع نواحيه حتى الفهارس قبل سنة ١٩١٥ ؛ بالرغم من تكذيب المرصفيِّ له كما سبق ؛ ومُؤيِّداً هذا الزعم بآخرِ حطٍّ من قدر المرصفيِّ ـ إن كان حقّاً ـ ؛ هو أن المرصفيَّ لم

يكُن يطّلع على شيءٍ من مُؤلّفات المُعاصرين !! ؛ فكيف اختصَّ الأستاذ السباعي بتلك العناية ؟!!

هذا ما يقوله الدكتور أيُّها الناس !! ؛ وليس لي من تعليقٍ عليه إلا الجُملة التي ختم بها ما قال ؛ وهي : «تلك والله إحدى الأعاجيب !! » .

ويقول الدكتور عنِّي بعد جعله المرصفيَّ أوحد عصره بلا جدال : «إنني الرابع أو الخامس بين أساتذة دار العلوم ـ مع التسامح الشديد!! ـ» .

ونحن أساتذة اللُّغة العربيَّة بهذا العدد تقريباً في الدار ؛ فكأنه جعلني الأخير !! .

والحقيقة يا دكتور أنك في تدخُّلك هذا غريب !! ؛ فما أنت فينا والفاضل والمفضول والأول والأخير ؟!! ؛ أولئك إخوانٌ فضلهم فضلي ومكانهم مكاني !! ؛ وكُلُّنا أعرف بحقِّ صاحبه منه بحقِّ نفسه !! .

وتقول أنَّ الشيخ المرصفيَّ أثّر في عصره ؛ وتُعدِّد له ذخائر كثيرة .

وليس لي رَدٌّ على الشيء تعرفه أنت ويجهله غيرك !! ؛ إني لا أعرف للمرصفيِّ إلا ما عرف الناس ؛ ولا أدَّعي لنفسي من آثارٍ إلا ما لمسوه ؛ فسلهم لتعلم منهم أنَّ عُمُري لم يكُن موقوفاً على التهذيب ؛ ثم سل تلاميذي الذين تتحدَّث عنهم يخُبروك بما يُفحمك مُخلصين صادقين ؛ وفخورين بتلمذتهم لي فخري بأُستاذيتي لهم في غير زهوٍ ولا إعجابٍ .

ذاك ما جعلته طلائع غزوةٍ !! ؛ وبه تُباهى !! ؛ فهل لازلت على هذه المُباهاة بعد تفسيقي لما ذكرت !! ؛ وردِّي على ما سوَّدت !! .

ومع هذا ـ فإليك رأيٌ في تلك المُباهاة نفسها :

تقول أنك لن تصفح عنِّي ـ أو أشتغل مُحرِّراً مُتطوِّعاً بـ ((الرسالة)) ثلاث سنين ؛ وما هذا لي بالتهديد !! ؛ فما أنا ممن يضيرهم التحرير !! ؛ ولا ممن تعوَّدوا أخذ أجرٍ على ما يكتبون !! ؛ لأني أكتب للكتابة ؛ لا طمعاً في مالٍ !! ؛ ولذلك يصدر ما أكتب في غير كلفةٍ ولا إكراه !! .

وتقول إن خصومتك لي محنةٌ صُبَّت عليَّ من شاهقٍ !! ؛ وتطلب منِّي أن أتحمَّلها صابراً !! ؛ وأنها لا تنتهي قبل بداية مايو .

وليس مثلك معي في هذا التهديد إلا مثل القُبـرَّة التي وقعت على رأس فيل ؛ فلما أرادت أن تطير ؛ قالت له : إني مُخَفِّفَةٌ عنك وطائرةٌ ؛ فقال : والله ما علمت بك نازلةً حتى أشعر بتخفيفك طائرةً !! .

أما الموعد الذي ضربته ـ فهو أُمنيةٌ تتمنَّاها وتُشفق ألا تكون !! ؛ ولست أدري أؤوافقك عليها مُطمئناً ؛ أم أتجاوزها إلى ما بعدها مُزعجاً !! ؛ لن أُبيِّن لك حتى أتركك حيناً تتعزَّى بالأجل ؛ إشفاقاً عليك وآخر تجزعٍ لطول الأمد تهديداً لك !! .

وسأُعلمك في حاضري ومُستقبلي : أن ماضيَّ لم يكُن قائماً على خدمة ((الكامل)) وحده !! ؛ وأن تهذيبي له لم يكُن عملاً يقوم به أحد النسَّاخين بدراهم معدودات !! ؛ وذلك بما أَقِفُكَ عليه من أنه كان خدمةً يعرفها العارفون !! .

وتزعم أنك قضيت دهرك مُمتحناً بعداوات الرجال !!

ورجائي أن تكون رَجُلاً فيما أصبت به من عدائي !! ؛ وأن تغالي في عدم العطف عليَّ !! ؛ ذلك الذي أزمعت تركه لأني ترديت لك ثوب العقوق !! .

والحقيقة يا دكتور : أنه لا عطفٌ منك عليَّ !! ؛ ولا عُقُوقٌ مني إليك !! ـ وإنما هو نقاشٌ وحسابٌ يتطلَّبُ منك أن تكون الجَلِدَ الصَّبُور !! .

ثم تقول إنك حكمت عليَّ بترك دروسي في دار العلوم لأشغل نفسي بمخاطرتك !! .

ويلُوح لي يا دكتور : أنك ما قُلْتَ ذلك إلا لعقيدتك أن مُخاطرتي لك تشغلني كما تشغلك مخاطرتك لي!! ؛ ولكن عقيدتك هذه ـ وهمٌ باطلٌ!! ؛ وظنٌ خاطئٌ !! ؛ فإنَّ هُجُومي عليك وصدِّى لك لا يشغل منِّي كُلَّ أسبوعٍ إلا الوقت يجري فيه القلم غير متوقِّفٍ إلى حيث ينتهي المقال !! ؛ وهو وقتٌ يسيرٌ في زمن اليوم لا الأسبوع !! ؛ ثم هو لذيذ الوقع ترتاح لصريره النُّفُوس !! .

وبعد ـ فها أنذا مُرْقِلٌ نحو مقالك الأخير !! ؛ فماذا أرى ؟!!

رأيتك قد سوَّدت أكثر من نصفه بأشياء خرجتَ فيها عن الجادَّة !! ؛ وجمعت بينها على الإكراه والقسوة !! ؛ فبينا تبدؤه بالرَّدِّ على كلمتي الثانية قبل ظهورها بهذه الجُملة التي لا تُقدِّمُ ولا تُؤخِّرُ في الموضوع !! ؛ فتقول عني في تبرئة نفسك من السرقة التي ألبستك طوقها :

« فكان حاله حال اللصِّ الذي رأى صاحب الدار يمشي من بُعْدٍ فصاح : مين اللي ماشي هناك !!. » .

ثم تُعقِّب هذه بقولك :

« إني أشعر بالارتياح كُلّما تذكّرت أن عندي ذخائر يتطلّع إليها الناهبون من الفُضلاء !!.» . !! .

سُبحان المنّان الوهّاب !! .

وعلى هذا الغِرار من قرع طبلك تقول عنّي :

(فليُواجهني إن استطاع وأنا ماضٍ إليه بقلمٍ أمضى من السيف وأعنف من القضاء !! .» . !! .

ستعرف أيُّنا الذي يستطيع !! ؛ وأيُّنا الذي سيكون قلمه أمضى من السيف !! ؛ أما أن قلمك أعنف من القضاء !! ؛ فمعاذ الله أن أُشاركك هذا الكُفران !! ؛ وقد علمت عن ابن دُريد الذي تحدَّثتَ عنه في نظريتك المزعومة : أن تلميذه أبا عليّ القالي ؛ قال : « لمّا أُصيب بالفالج ؛ كُنْتُ أدخل عليه ؛ فيتألّم من دُخُولي !! ؛ فأقول : إن الله تعالى لم يبتله بذلك إلا عقاباً على قوله يخاطب الدهر – وليس الدهر إلا الله :

مارستُ من لو هَوت الأفلاك من

جوانب الجوِّ عليه ما شكا !! . !! .» . !! .

إذا بك تنتقل إلى أنَّ « كامل » المُبرِّد على ما به من فضلٍ ؛ قد حُرِّفَ وَصُحِّفَ ؛ وصار في حاجةٍ إلى إصلاحٍ ؛ وأني لن أكون المُصلح المنشود !! ؛ لأني لم أُوهب نعمة الذوق الأدبيِّ التي لا يظفر بها من كُلِّ جيلٍ إلا آحاد !! .

وأنت طبعاً من هؤلاء الآحاد !! ؛ إن لم تكُن أوحدهم !! .

ثم تقول : كان المُصلح المنشود له شيخُنا العظيم سيِّد بن عليٍّ المرصفيّ .

وهو طبعاً من الآحاد الذين رُزِقُوا نعمة الذوق الأدبيِّ !! .

والآن أُقدِّم للجمهور شيئاً من أشياء أعرفها للشيخ المرصفيِّ ـ بُرهاناً واضحاً على أن الذوق الأدبيَّ كثيراً ما خانه في أبسط مظاهره !! ـ ذلك الشيء هو أبيات جاء بها المُبرِّد في الهجاء المُوجع ؛ فجعلها المرصفيُّ في شرحه من المدح البالغ !! .

ولو كان المُبرِّد يعلم أن ذوقه إلى هذا الحدِّ !! ؛ لأنقذه وصرَّح بأنها هجاء !! .

وها هي الأبيات وتحتها شرح الشيخ من غير تعليق [صفحة ١٣٢ / جـ ٤]:

قال أبو العبَّاس المُبرِّد : ومما يُستحسن من شعر إسحاق هذا ـ يريد ابن خلف ـ قوله في الحسن بن سهل :

بـابُ الأمير عـراءٌ ما بـه أحـدٌ

إلا امـرؤٌ واضـعٌ كفّاً على ذقـنِ

قـالـت وقـد أملت مـا كُنْتُ آمُلُهُ

هـذا الأمير ابن سهلٍ حاتم اليمنِ

كفيتك الناس لا تلقي أخا طلبٍ

بفيء دارك يستعدي على الزمنِ

إن الرَّجاء الذي قد كُنْتُ آمُلُهُ
وضعته ورجاء النَّاس في كفنِ
في الله منه وجدوى كفِّهِ خلفٌ
ليس السدى والندى في راحة الحسنِ

وإلى القارئين كل ما قال الشيخ المرصفيُّ في شرحها بنصه وصورته ؛ قالَ ـ وقاه الله شرَّ تلميذه الدكتور زكي مُبَارك ـ :

(في الحسن بن سهل) بن عبد الله السرخسيِّ ؛ وزير المأمون بعد أخيه الفضل بن سهل (باب الأمير) ؛ كأنه يريد أميراً غير الحسن (لا تلقي أخا طلبٍ إلخ ..) تريد إن استجديته أغناك ؛ فلا تجد غريماً يطلبك (ليس السدى) يريد إلا رجاء السدى ؛ وهو ندى الليل ؛ (والندى) : ندى النهار ؛ ضربهما مثلاً لجوده ؛ وقد أخَّر هذا الاستثناء عن موضعه فَثَقُلَ .

انتهى شرح الشيخ .

فما رأيك فيه يا دكتور إن كُنْتَ ممَّن وُهِبُوا نعمة الذوق الأدبيِّ ؟!!

وهل لا تزال مُصِراً على أن المرصفيَّ قضى حياته يُراوح المُبرِّد ويُغاديه بالنظر الثاقب والفهم العميق ؟!!

أم أني أتقوَّل على المرصفيِّ لأنه مات ؛ وشبع من الموت ؛ وهذا لا ينبغي !! .

فهي دعوى لو عُمِلَ بها في الأدب ـ لمات الأدب وشبع من الموت كما تقول ؟!!

وإذا بك تُقحم الدكتور طه حُسين في الموضوع ـ بأنه أتعب نفسه في النيل من دار العلوم !! ؛ ولم أغضب ـ مع أني أستاذٌ بها ـ !! .

وهذا غير ما كان يا دكتور !! ؛ فقد كتبتُ في الصحف والمجلاَّت ؛ ولكنك لم تقرأ !! ؛ كما لم تعرف ما ضحَّيته ومازلت مُستعدًّا لتضحيته في سبيل الدفاع عن دار العلوم !! .

ثم تُوغل في الإقحام ـ فتدَّعي أن علّة سُكُوتي هي أن الدكتور طه يضُرُّ وينفع !! ؛ ويملك المحو والإثبات في أعضاء بعض اللجان !! .

وردِّي على هذه الأكذوبة عنِّي وعن الدكتور : أني لم أسكت !! ؛ ومع هذا كُنتُ عضواً في اللجان !! ؛ وما ذنبي إذا كنت أُدعى وتُترك !! ؛ وأُعرف وتُنكر ؟!!

فإذا بك تغادر الدكتور طه إلى الأزهريين ـ تحُطُّ من قدرهم إذا لم ينصروك !! ؛ وتسلبهم ـ كاذباً في الاثنتين ـ أبسط ما يعرف العلماء من أقدار الرجال !! ؛ فتقول :

« لم يوجد في الأزهريين من يُدرك قيمة الشيخ المرصفيِّ غير الشيخ محمد عبده ؛ وبموت الأستاذ الإمام أصبح المرصفيُّ من الغُرباء !!. » .

ثم تعود إليَّ تتهمني بأني أُريد الإعلان عن نفسي بالقدح في المرصفيِّ !! ؛ وتُطالبني بدفع ثمن هذا الإعلان بلا إمهالٍ !! .

وما كان هذا القدح ولا ذاك الإعلان لي بمُراد !! ؛ أما الثمن !! ـ فأنا على نقده لك عاجلاً ـ كما تقول ـ ؛ ولكن فيما يُبصِّر الناس بقدرك !! .

ثم تشرد يا دكتور !! ؛ فتقول :

« أنا أعرف أن دار العلوم مدرسةٌ عاليةٌ ؛ لا يزورها أحد من المُفتِّشين إلا إن ظمئ إلى فنجان من القهوة يحتسيه في مكتب العميد أو مكتب الوكيل !! . » .

وتخرج منه إلى أنَّ محُاسبتي لذلك من العسير !! .

والحقُّ أني لستُ فاهماً ما تعني بهذا الشرود !! ؛ أتُريد أن يُغيِّر نظام التعليم ؛ فيدخل التفتيش إلى التعليم العالي قلباً لأبسط مبادئ التعليم ؟!! ؛ أم تأمل إذا انقلبت الأوضاع أن تكون المُفتِّش لدار العلوم ؟!! ؛ وإذا كُوِّرت الشمس وكان ما تريد ؛ فهل تحملك رجلاك لتقوم بهذا الحساب؟!! ؛ أظنُّك على علمٍ في كل هذه الأسئلة بالجواب !! ؛ كما أنك على جهلٍ بأن الدرس الذي أُعطيه في الجامعة الأمريكيَّة إنما هو في قسمٍ من أقسامها العالية - ولولا ذلك لم أعطه - ؛ هو قسم الصحافة والأدب !! ؛ وشأنه في ذلك شأن دار العلوم وسائر المعاهد العالية التي يُشرف على الدراسة فيها : ضمير الأساتذة ورقابة الطُّلاَّب ؛ وهما أدقُّ تفتيشٍ !! .

وأخيراً - تُكثر من هذه الجملة : « لا تشتمني يا سيِّد سباعي !! » ؛ مُعقِّباً إيَّاها بتعاليلٍ هي الأباطيل !! ؛ فالشاتم أنت !! ؛ وأنا عن الشتم بعيد !! ؛ وإذا كُنتَ تلحن لي في ذلك بأنك « شتِّيم » !! ؛ فأنا ألحن لك « بأني بشر بن عوانة » !! ؛ وهاك تعليلاً منها ليس من الشتم ؛ ولكن الشتم منه هو قولك لي : « فما أملك محُاسبتك لو أردت الانتصاف لنفسي !! ؛ وماذا أقول في

تجريحك ولستَ بشاعرٍ ولا كاتبٍ ولا مُؤلِّفٍ ولا خطيب !! » !! ؛ وأنا أقول إن لك في هذا أن تجُاب :

فأما الشعر ـ فلو رضيتُ لنفسي ما قُلته كما رضيت أنت ما قُلت ؛ لسويته ديواناً كما سوَّيت !! ؛ ولوقعت في الشَّرَك كما وقعت !! ؛ فقد اغتررت في طبع ديوانك بضحك من غرَّرُوا بك !! ؛ وخالفت قول من نصحوا لك !! وما ديوانك بشعر شاعرٍ !! ؛ ولكنَّه تجميع ناظم !! .

وأما الكتابة ـ فها نحن في ميدانها على صفحات « الرسالة » نجول ؛ وسيُصدر الجمهور ـ إن لم يكُن أصدر ـ حُكمه فيها عمَّا قريب !! .

وأما التأليف ـ فقد عرفت من عملي فيه « تهذيب الكامل » !! ؛ وستعرف غيره من مُؤلّفاتي متى انتهيت منها ؛ وناقشنا فيه الآن ؛ فاثبت ولا تفر من الميدان !! .

أما الخطابة ـ فرأيي لك فيها يا دكتور أن نتلاقى في حلبتها أمام جمعٍ من الأُدباء وجمهرةٍ من السامعين ؛ ويُقترح على كلينا التكلُّم بُداهةً وارتجالاً في موضوعٍ عامٍّ من أدبٍ أو اجتماع ؛ فهُنالك ؛ وهُنالك فقط ـ ولست مُزكِّياً نفسي ؛ ولكني مُدافعٌ عنها ـ: تجد بحراً يغمرك !! ؛ وأمواجاً تقطعك وتبهرك !! ـ فتندم طالباً النجاة ؛ ولات حين مناص !! .

إلى هُنا أقف ـ وقد طال الكلام ـ ؛ مُرجئاً الرَّدَّ على ما وازنت فيه بين « الرغبة » و« التهذيب » ؛ وكل ما يتعلق بهما في المقال ـ وذلك لأن دفعه ـ كما ستعرف ـ لابُدَّ أن يُسبق بكلمةٍ منِّي عن الكتابين ؛ تُريك سُوء ما

زيَّنت !! ؛ وهنيئاً لك الآن نفاد الصفحات دُون بقيَّة الرَّدِّ والهُجُوم !! .



.....

٭ ـ خُصُومَةٌ ... لا عَدَاوَة !!

ـ لِلدُّكْتُور زَكِي مُبَارَك ـ

.....(١)

رأى جماعةٌ من كبار المُفتِّشين؛ وهم الأساتذة: جاد المولى بك؛ ومحمد علي مصطفى؛ ومحمود محمد حمزة؛ ومصطفى أمين؛ وأحمد علي عبَّاس ـ رأى هؤلاء الأكابر بأخلاقهم وآدابهم أن أقف الجدال الذي أثرْتُهُ في وجه الأستاذ السباعي بيُّومي ـ وَحُجَّتُهُم أنه وصل إلى درجاتٍ من العُنف تؤذي كرامة المُشتغلين بخدمة اللُّغة العربيَّة !! .

وأنا أُجيب هذه الدعوة ـ لأنها أوَّل دعوةٍ كريمةٍ صدرتْ لكفِّ الشَّرِّ بيني وبين من أُخاصمهم بقلمي لا بقلبي؛ فلم أسمع مثل هذا الصوت يوم خاصمتُ رجالاً أعزَّاء لم يكُن يسُرُّني أن يفصم القلم ما بيني وبينهم من عُهُود !! .

وإنصافاً لنفسي؛ أقول: إني كتبت ما كتبت وأنا أبتسم؛ فأنا قد أُخاصم؛ ولكني لا أُعادي !!؛ فما استطاعت الدُّنيا بأحداثها الفواتك أن تضيفني إلى أرباب الضغائن والحقود !!؛ وإلا فما هي البواعث التي تفرض أن أخُصَّ الأستاذ السباعي بالعداء؛ وهو صديقٌ قديمٌ ؟!!

---

(١) ـ العدد: ٤٠١ ـ بتاريخ: ١٠ ـ ٣ ـ ١٩٤١ .

أنا أُتَّهم بالقسوة والعُنف بغير حق !! ؛ فما كان من همِّي في كل ما أثرت من المجادلات إلا إيقاظ الرُّوح الأدبيِّ واللُّغويِّ ؛ أما إيذاء الأُدباء والباحثين ؛ فهو معنىً لا يمُرُّ بخاطري !! ؛ لأني أرجو دائماً أن يكون الهدم على عُنفه من صور البناء .

كان سبب الخلاف هو تبرئة الشيخ المرصفيِّ من تُهمة الغُرُور !! ؛ فما يكون الرَّجُل مغروراً إلا حين يدَّعي ما لا يملك ؛ والمرصفيُّ من أقران المُبرِّد ؛ وجهد المرصفيِّ في شرح « الكامل » قد يكون أعظم من جهد المُبرِّد في تأليف « الكامل » !! ؛ وستُعرف هذه الحقيقة يوم يُقام في هذه البلاد موازينٌ صحيحةٌ لأقدار المُفكِّرين في القديم والحديث .

أنا أدَّيت واجبي في صيانة سُمعة الشيخ المرصفيِّ ؛ فماذا صنع تلاميذ هذا الإمام الجليل ؛ وفيهم أحمد حسن الزيَّات ؛ ومحمود حسن زناتي ؛ وعلي عبد الرزَّاق ؛ وطه حُسين ؟!!

ولكن كيف يصنع أُولئك الأساتذة في البِرِّ بذلك الإمام الجليل ؟

أنا أدعوهم إلى تأليف لجنةٍ أدبيَّةٍ ـ يكون عملها إنقاذ مُؤلَّفات الشيخ المرصفيِّ من الضياع ؛ وأخُصُّ بالعناية : شرح المرصفيِّ على « أمالي القالي » ـ فقد أخذ من وقت شيخنا العظيم سبع سنين !! ؛ وهو لا يقلُّ عظمةً عن شرح « الكامل » ؛ وقد يفوقه في أشياء !! .

مُنْذُ نحو ثلاث وعشرين سنةٍ وقف الخُطباء والشُّعراء في المُدرَّج الذي أنشأه الوزير علي مُبَارك باشا في ديوان المعارف بدرب الجماميز ـ وقفوا

يرثون الشيخ حمزة فتح الله ؛ وكان فيهم : محمد الهراوي ؛ وعلي الجارم ؛ ومحمد الخُضري ؛ ثم وقف خطيبٌ خُتمت خطبته بالدمع !! ؛ فمن هو ذلك الخطيب ؟!!

هو الأستاذ الشيخ محمد المهدي بك : أول أستاذٍ تلقيت عليه دروس الأدب بالجامعة المصريَّة ؛ فقد كان في خُطبته : أن جماعةً من المُستشرقين أرادوا أن يشتروا مخطوطات الشيخ حمزة فتح الله ؛ وأنه أجاب : هذه المخطوطات ملكٌ لوطني !! .

وقد بكى الشيخ المهدي !! ؛ فأبكاني حين فاه بهذا التصريح النبيل !!

وأنا من جانبي أذكر أن الشيخ المرصفيَّ كان يُصلِّي العصر بالأزهر مُنْذُ نحو عشرين سنةٍ وبجانبه رَجُلٌ يترصَّدُهُ من جماعة الناشرين ؛ فلما انتهى الشيخ من صلاته أقبل الناشر يقول : أرجو فضيلة الشيخ أن يبيعنا حقَّ النشر لشرحه على « الأمالي » ؛ فصرخ الشيخ : هذا شرحٌ لا يشتريه إلا مَلِك !! .

وكان ذلك آخر العهد بشرح المرصفي على « الأمالي » ؛ ومصرُ لا تخلو من عقوقٍ إلا أن يتفضَّل أُستاذنا الشيخ محمد مصطفى المراغي ؛ فيشتري هذا الشرح من الورثة قبل أن يضيع كما ضاعت مئاتٌ وأُلوف من آثار أصحاب الفضل بهذه البلاد !! .

إن نفعتْ هذه الفُرصة بعض النفع في إنقاذ بعض مُؤلَّفات الشيخ المرصفيِّ - فسيكون من حقِّي نحو ضميري أن أتناسى الإيذاء الذي صوَّبته إلى الأستاذ السباعي بيُّومي ؛ وإلا فسأذكر أني أهنت رَجُلاً وادعاً بلا نفعٍ ولا

غناء !! ؛ فما آثرت ميدان النقد الأدبيّ إلا لغرضٍ نبيلٍ - هو إيقاظ الغوافي من العواطف والقُلُوب !! .

المُهِمُّ هو الظفر المُحقَّق لخدمة اللُّغة العربيَّة - فأين من يستمعون هذا الصوت فيُنقذون مُؤلّفات الشيخ المرصفيّ من الضياع ؟!! ؛ وأين من يذكرون أن الشيخ المرصفيّ كان أول رَجُلٍ أقام دولةً للأدب واللُّغة في مطلع العصر الحديث ؟!!

أما العبارات التي آذيتُ بها الأستاذ السباعي بيومي ؛ والتي استوجبتْ أن يتوسّط بيني وبينه أولئك الأكابر من المُفتّشين - وهم لي وله إخوان - : فأنا أراها عبارات هيِّنةً رقيقةً ؛ على شرط أن تُنبِّه الغافلين من تلاميذ المرصفيّ العظيم !! ؛ وإلا فهي إثمٌ اجترحتُهُ في بلادٍ لا تعرف حُقُوق الرِّجَال !! .

زكي مُبَارك



.....

✿ ـ خُصُومَةٌ ... لا عَدَاوَة !!
ـ الأُستَاذ سَيِّد قُطْب ـ

.....

قرأت في العدد الماضي من « الرسالة » كلمةً للدكتور زكي مبارك عن الجدل بينه وبين الأستاذ السباعي بيُّومي ؛ جاء فيها :

« رأى جماعةٌ من كبار المُفتِّشين ؛ وهم الأساتذة : جاد المولى بك ؛ ومحمد علي مصطفى ؛ ومحمود محمد حمزة ؛ ومصطفى أمين ؛ وأحمد علي عبَّاس ـ رأى هؤلاء الأكابر بأخلاقهم وآدابهم أن أقف الجدال الذي أثرتُهُ في وجه الأستاذ السباعي بيُّومي ؛ وحُجَّتهم : أنه وصل إلى درجاتٍ من العُنف تؤذي كرامة المُشتغلين بخدمة اللغة العربيَّة .

وأنا أُجيب هذه الدعوة ... ؛ إلخ » .

وقد رأيتُ في الصُّورة التي عرض بها الدكتور زكي مُبَارك هذه الوساطة ما دعاني إلى الاستفسار من حضرات من ذكرهم عن الصورة الدقيقة لتدخُّلهم ؟!! ؛ فعلمت منهم أن وساطتهم بين الأستاذ الدكتور كانت مُنصبَّةً على أُسلُوب الجدل لا على موضوعه !! ؛ وفي نظرهم أن مستوى المناقشة بين أديبين وَرَجُلَين من رجال التعليم يجب أن يرتفع عن هذه اللهجة !! ؛ أما

---

(١) ـ العدد : ٤٠٢ ـ بتاريخ : ١٧ـ ٣ ـ١٩٤١ .

الفحص عن الحقيقة وتصاول الأقلام في الموضوعات العلميَّـة والأدبيَّـة ؛ فليس لهم عليها اعتراض !! ؛ بل يسُرُّهم أن يُشجِّعُوا عليهما ويستزيدوا منهما !! .

هذا هو رأي حضرات الأفاضل الذين احتجَّ الدكتور بتدخُّلهم في الانسحاب من المعركة التي أثارها !! ؛ فإذا كان لدى الدكتور ما يقوله بالأسلوب اللائق فليستمر فيه غيـر ملومٍ من أحدٍ ولا مرجُوٍّ في الانسحاب !!

وما أبغي بهذه المُلاحظة تدخُّلاً في المعركة ؛ فليس من خُلُقي أن أتدخَّل في نزاعٍ فرعيٍّ ؛ ولو شئتُ معركةً ـ لاخترت ميدانها الأصيل .

سيِّد قُطب



.....

۞ ـ (الرِّسَالَة)

ـ البَرِيدُ الأَدَبِيُّ ـ

.....

أرسل إلينا الأستاذ السباعي بيُّومي مقاله الرابع ـ يهجم فيه على الدكتور زكي مبارك !! ؛ فهيَّأناه للنشر ـ ولكن بعض ذوي الرأي والفضل رغب إلينا أن نقف هذه المُناظرة العنيفة عند هذا الحدِّ بعد أن ألقى أحد المناظرين الفاضلين القلم إجابةً لدعوة زُملائه الكريمة .



(١) ـ العدد : ٤٠٢ ـ بتاريخ : ١٧ـ ٣ـ ١٩٤١ .

الباب الثانى

من روائع الدراسات الأدبية

« بيرون »



.....

✿ ـ بيرون (١)

ـ ﴿ ١ ﴾ ـ

.....

« ذَلِكَ العَبْقَرِيُّ المُتَمَرِّدُ !!... ؛ الَّذِي غَنَّى أَرْوَعَ أَنَاشِيدِ الحُرِيَّةِ !! ؛ وَلاقَى المَوْتَ فِي سَبِيلِ الحُرِيَّة !! . » .

.....

ـ نَشْأَتُهُ وَطُفُولَتُهُ :

ستمضي السُّنُون ؛ ويبقى بيرون في الغرب كالمُتنبِّي في الشرق !! ؛ يحمل النُّفُوس على الإعجاب به !! ؛ من أحبَّهُ ومن لم يُحِبَّهُ في ذلك سواء !! ؛ وستظلُّ عبقريَّة هذا الشاعر الشابِّ كالشُّعلة تنتقل من جيلٍ إلى جيلٍ ؛ فلا تزداد على الأجيال إلا تألُّقاً وإيماضاً !! ؛ وما كان لشعرٍ كذلك الذي جاشت به تلك النفس المُتوثِّبة الثائرة ؛ وغنت به تلك القيثارة المُلهمة الساحرة ـ أن تذهب الأيَّامُ بروعته وسحره !! ؛ مهما تغيَّرت فُنُون القول واختلفت ضروب البيان !!

وما عرفت إنجلترة ؛ بل وما عرفت أُوربا كُلُّها شاعراً كاللورد بيرون بلغ

---

(١) ـ العدد : ٣٤٠ ـ بتاريخ : ٨ ـ ١ ـ ١٩٤٠ : للأُستاذ محمود الخفيف .

في مثل سِنِّـهِ مبلغه من نباهة الاسم وبُعْدِ الصيت في القارة جميعاً !! ؛ وما عرف تاريخ الآداب رَجُلاً هَزَّ عصره هزّاً مُتوالياً عنيفاً كما هَـزَّ عصره ذلك الشاعر الذي تمرَّد على كُلِّ شيءٍ !! ؛ حتى على نفسه !! ؛ وما لقيَ بيرون من الإعجاب الشديد والسُّخط الشديد !! ؛ ثم ما اختلف النُّقّاد في رَجُلٍ اختلافهم في ذلك الذي كانت شخصيَّته الفذَّة مجموعةً عجيبةً من المُتناقضات !! ؛ ذلك الذي بلغ قمَّة المجد الأدبيِّ وهو في الرابعة والعشرين ؛ ثم غُيِّبَ في لحده ولم يتجاوز السادسة والثلاثين !!

وُلِدَ « جُورج بيرون » في لندن عام ١٧٨٨ ؛ أي قبل أن تنبعث الثورة الكُبرى في فرنسا بعامٍ واحدٍ ؛ كأنما أراد القدر أن تستقبل هذه النفسُ الثائرةُ الحياةَ في عصرٍ كانت تعصف فيه أنواء تلك الثورة العاتية بأوربا كُلِّهَـا !! ؛ وكانت الأُسرة التي انحدر منها ذلك الشاعرُ من أعرق الأُسر في إنجلترة كُلِّهَا ـ فلقد جاء رأسها مع « وليم الفاتح » عند الفتح النُّورمنديِّ في القرن الحادي عشر ؛ وكان بيرون يفخر أشدَّ الفخر بانتمائه إلى تلك الأُسرة !! ؛ حتى لقد قيل أنه كان يزهى بحسبه هذا أكثر مما كان يزهي بأنه مُؤلِّف « تشايلد هارولد » و « منفرد » !! ؛ على أن الشاعر قد ورث من بعض أفراد أُسرته هذه بعض ما لا يُحمد من الصفات ـ فكان سيئ الحظِّ من هذه الوجهة بانتمائه إلى هؤلاء !! ؛ وحسبُنا أن نُشير إلى اللورد الخامس في هذه الأُسرة ؛ ذلك الذي كان يُنعت بـ « اللورد التَّعِس !! » ؛ فقد كان شاذّاً إلى حدٍّ يقرب به من الجُنُون !! ؛ فهو يُبعثر أمواله !! ؛ وهو يحتجب عن الناس !! ؛ وهو لا

يهدأ ذات ليلةٍ حتى يقتل قريباً له في مُبارزةٍ دعاه إليها على ضوء شمعةٍ في غُرفةٍ مُغلقةٍ على إثر خلافٍ نشأ بينهما !! ؛ وهو يأتي من ضروب اللعب والعبث مالا يفترق به عن الصبية !!

وكان لهذا اللورد التعس أخٌ يعمل في البحريَّة ؛ وقد وصل بجدِّه إلى مرتبة « الأدميرال » ؛ ولكنه كان يُعرف بين زُملائه ومرءوسيه باسم « الجَوُّ العاصف !! » ؛ لأنه ما ركب البحر إلا هبَّت في إثره عاصفةٌ !! ؛ وأنجب هذا الأدميرال ولدين : كان كبيرهما قسيم المُحيَّا وجيه الطلعة حسن السَّمت ؛ وقد انتظم في سلك الجُنديَّة وهو في سنِّ اليفاعة ؛ وخاض غمار الحرب الأمريكيَّة فيمن خاضوا ؛ ثم عاد إلى إنجلترة وهو في العشرين من عمره ؛ فكانت وجاهته تحضُّ على الإحداق فيه ؛ إلا إنه عُرِفَ بحدَّة عواطفه وعدم مُبالاته وجرأته أكثر مما عُرِفَ بجماله !! ؛ حتى لقد حمل هو أيضاً بدوره لقباً ؛ ذلك هو : « جاك المجنُون !! » .

وفتن جمال « جاك » إحدى الحِسَان ؛ وكانت زوج أحد اللوردات ؛ حتى هامت به ؛ ولم تتردَّد حينما مات أبوها وخلَّف لها أربعة آلاف من الجنيهات كُلَّ عامٍ أن تهرب معه إلى فرنسا ؛ حيث حملت منه ؛ ثم وضعت بنتاً ؛ ولكن هذه المرأة المسكينة ما لبثت أن قضت نحبها إثر مرضٍ - كما يقول بعض الناس - ؛ أو من جرَّاء سُوء مُعاملة زوجها إيَّاها - كما يقول آخرون - .

على أن جاك ما لبث أن أوقع في حبائله سيِّدةً إسكُتلنديَّة ؛ إلا تكُن جميلة كسابقتها فقد كانت ترث عن أبيها ثروةً قدرها ثلاثةٌ وعشرون

ألفاً من الجُنيهات ؛ وقد شغفها حُبّاً ذلك الشابُّ الغريب الأطوار ؛ ثم بنى بها ؛ فأنجبت له بعد أربعة أعوامٍ طفلاً : هو الشاعر !!

كانت هذه السيِّدة الإسكُتلنديَّة تُدعى « كاترين جوردون » ؛ وكانت تزهي هي أيضاً أشدَّ الزهو بالأُسرة التي تنتمي إليها !! ؛ فقد كانت تجري في عروق أفرادها دماءٌ من أُسرة إستيوارت الملكيَّة ؛ ولكن هذه الأُسرة لم تكُن في تاريخها أسعد حظّاً من أُسرة بيـرون !! ؛ فقد قُتِلَ بعض أفرادها ؛ وأُعْـدِمَ البعض ؛ وانتحر آخرون في عدَّة حوادث ؛ وكان آخر هـؤلاء والـد كـاترين الذي انتحر غرقاً وخلَّف تلك الثروة لابنته !! ؛ وطالما كان رجال هذه الأُسرة مصدر رُعْبٍ للإسكُتلنديين !! ؛ إذ كانوا يُلاقون على أيديهم كثيراً من البطش والانـتـقـام !!

عاشت كاترين مع زوجها أول الأمر في إسكُتلندا ؛ وما لبثت أن هالها منه إسرافه وعبثه بثروتها !! ؛ وقد كان لا ينقطع عن المُقامرة !! ؛ ولا يكاد يفيق من سُكره !! ؛ ثم رحلت معه إلى فرنسا حين ضاقت باحتقار النـاس إيـَّاها وزوجها المُستهتر المـاجن !! ؛ وراح زوجهـا يُبعثـر الأمـوال في بـاريس بغيـر حسابٍ !! ؛ وهو لا يسُـدُّ ديناً إلا وقع في دينٍ !! ؛ وانتقل الزوجان إلى لندن بعد ذلك ؛ ولكن جاك ترك زوجه هناك وعاد إلى باريس !! ؛ وصار لا يزورها إلا حين يطلب المال !! ؛ على أنها ظلَّت على الرغم من ذلك مفتونةً به !! ؛ وقد ازدادت به تعلُّقاً حينما وضعت ذلك الغلام الجميل الذي سمته « جُورج جُوردون » في مُستهل عام ١٧٨٨ .

ويدَّد زوجها ثروتها ؛ حتى لم يبق لها منها إلا ثلاثة آلاف من الجنيهات ؛ كان دخلها منها مائة وخمسين كُلَّ عام !! ؛ واضطرَّت المرأة المسكينة أن تعيش بهذا القدر من المال ؛ ومعها طفلها وخادمتان له !! ؛ وأخذت نفسها بالاقتصاد الشديد ؛ ورحلت السيِّدة إلى « أبردين » ؛ وجاء زوجها فاختار له مسكناً بقُربها ؛ وصارا يتزاوران من حينٍ إلى حين ؛ ولكنهما بقيا مُنفصلين .

وطلب الرَّجُل يومئذٍ ثلاثمائة من الجُنيهات ؛ فاستدانتها ؛ وصارت تدفع رباها من دخلها ؛ حتى أصبح ما تعيش به مائة وخمسة وثلاثين !! ؛ ولكنها ظلَّت حتى بعد ذلك تُحِبُّ هذا الرَّجُل حُبَّاً شديداً !! ؛ ولم يُنقص من ذلك الحُبِّ أنه عاد ثانيةً إلى فرنسا وتركها وابنها في أبردين !! ؛ على أنها لم تره بعد ذلك !! ؛ فقد لقي حتفه مُنتحراً ـ كما أُشيع ـ ؛ وابنه في الثالثة من عمره !!

وعاش الطفل مع أُمِّهِ وخادمتيه ؛ وكان شُذُوذ هذه الأُمِّ في كثيرٍ من سُلُوكها لا يقلُّ عن شُذُوذ أبيه !! ؛ كانت تحنو عليه أحياناً أشدَّ الحُنُوِّ ؛ وتقسو عليه أحياناً أشدَّ القسوة ؛ حتى لتضربه ضرباً شديداً !! ؛ ولقد قذفته ذات يومٍ بملقط النار وهو محميٌّ فكادت تقتله !! ؛ وكثيراً ما رآها في ساعات غضبها تقذف الخادمة بالأطباق !! ؛ فإن لم تجد أمامها أحداً مزَّقت ثيابها ولطمت وجهها وحطَّمت قُبَّعتها كأن بها جِنَّة !! ؛ وينظر الطفل إلى أُمِّهِ فيعتلج في نفسه الصغيرة الألم والرثاء والإشفاق !! ؛ وقبل ذلك رأى أباه ورأى مواقفه من أُمِّه ومواقف أُمِّه منه ؛ فكان يتساءل عمَّا يرى مُندهشاً لا يقتنع بما تُجيبه به خادمته !!

وكان الطفل جميلاً كأبيه ؛ ولكنه وُلِدَ وفي إحدى قدميه عاهةٌ !! ؛ فكان لا يستطيع أن يطأ بها الأرض إلا على أطراف أصابعها ؛ ولذلك كان في مشيته عرجٌ ظاهرٌ ؛ وكان يتألَّم من ذلك أشدَّ الألم !! ؛ وما كان أشدَّ الألم حينما كانت أُمُّهُ تُعيِّره بهذا ؛ إذ ترميه بالسيل الذي لا ينقطع من شتائمها !! ؛ ولكنه كان يكظم غيظه وإن نفسه لتنطوي على ثورةٍ صامتةٍ !! ؛ ولم يتمالك نفسه ذات يومٍ حينما دعته بالأعرجِ أن يجيبها قائلاً : هكذا وُلِدت يا أُمَّاه !! ؛ وفي هذا الرَّدِّ نلمس نغمة الشاعر المُستقبلة حينما يُجري الحوار على ألسنة أشخاص قصصه ؛ ولقد أتى بموقفٍ شبيهٍ بهذا في إحدى رواياته ؛ فلقد استقرَّت مواقف الطفولة في نفسه ؛ وما برحت بعد ذلك تظهر في آثاره .

وما كان الطفل يصبر على أحدٍ غير أُمِّهِ يشير إلى عرجه ؛ لقيته ذات مرَّةٍ في الطريق إحدى السيِّدات وهو لم يتجاوز الثالثة ؛ فقالت لخادمته : ما أجمل هذا الطفل لولا أن له وا أسفاه مثل هذه الساق !! ؛ فبدت على وجهه إمارات الغضب !! ؛ وصاح بها قائلاً : كُفِّي عن هذا !! ؛ ثم ضربها بكُرباج لُعبته مُحتجًّا مُحنقاً !!

ويطول بنا الكلام لو رُحنا نسرد ما كان يُلاقيه الطفل على يد أُمِّهِ من عذابٍ !! ؛ وحسبك أنهم انتزعوا منه ذات يومٍ سكِّيناً أوشك أن يُجريها على عُنقه يريد أن يقتل نفسه وقد ضاق بما كان من أُمِّهِ !! ؛ على أنه ما كان يفكر في الانتحار وحده !! ؛ فكانت تُحدِّثه نفسه أن أُمَّهُ تنتوي ذلك !! ؛ ومما يُذكر عنهما أن كليهما ذهب على غير علمٍ من الآخر إلى بائع العقاقير وطلب

إليه ألا يبيع الآخر سُمَّاً إذا هو رغب في شرائه !!



.....

✿ ـ بيرون (١).

ـ ﴿٢﴾ ـ

.....

« ذَلِكَ العَبْقَرِيُّ المُتَمَرِّدُ !!... ؛ الَّذِي غَنَّى أَرْوَعَ أَنَاشِيدِ الحُرِّيَّةِ !! ؛ وَلاقَى المَوْتَ فِي سَبِيلِ الحُرِيَّة !! . » .

.....

أُرسل جوروج بيرون إلى مدرسةٍ صغيرةٍ في أبردين وهو دُون الخامسة ؛ ولكنَّ أُمَّهُ لم تطمئن إلى تعليمه فيها ؛ فعهدت إلى أُستاذين بتعليمه في المنزل إلى جانب المدرسة ؛ وقد حبَّبَ إليه إحداهما التاريخ ؛ وعلى الأخصِّ تاريخ الرُّومان ؛ فراح يقرأ منه في غير مللٍ ؛ وعلَّمه الآخر اللاتينيَّة ؛ بينما أخذ يُوحي إليه مبادئه الكلفنيَّة ؛ والطفل يستمع إليه في ذلك مُندهشاً مُتحيِّراً يتساءل في صمتٍ : كيف يُقدَّرُ الشقاء على قومٍ قبل مولدهم ؟!! ؛ وما جريرتهم حتى يشقون ؟!! ؛ وأيُّ فرقٍ بينهم وبين الذين قُدِّرَت لهم السعادة ؟!! ؛ ويستمع الصبيُّ إلى مثل هذا في حديثه مع خادمته ماري ؛ حينما يسألها وهي تتلو الإنجيل قائلاً : وما ذنب قابيل قبل أن يقتل أخاه ؟!! ؛ ويضيق حين تُجيبه أنه قُدِّرَ عليه الشقاء !! ؛ فيقول في غضبٍ : وكيف يُسأل

---

(١) ـ العدد : ٣٤١ ـ بتاريخ : ١٥ ـ ١ ـ ١٩٤٠ .

عن جريمته إذاً ؟!!

على أنه يطرب للُغة الإنجيل وإن لم يفهم أكثرها ؛ ويهتزُّ قلبه لما يتخيَّلهُ عقله الصغير من صوره !! ؛ والصبيُّ قويُّ الخيال ؛ يُصوِّر له خياله كُلَّ شيء ويُلازمه ما يتخيَّل أينما ذهب !! ؛ وكانت صورة الشيطان الذي طالما حدَّثته عنه ماري تتملَّك لُبَّهُ وتصحبه في الغداة والعشيِّ !! ؛ فإذا تُرِكَ في مخدعه وحده نفت النوم عن عينيه صورة الشيطان !! ؛ حتى لتمتلئ الغُرفة حوله بالأشباح !! ؛ وإذا أطلَّ من نافذته وجد المقبرة القريبة منه ملأى بالشياطين من كُلِّ هيئةٍ ومن كُلِّ طولٍ وهي تتعابث وتتراقص !!

ويستمع الصبيُّ أيضاً إلى أحاديث أُمِّه وخادمته عن أجداده لأُمِّه وأجداده لأبيه ؛ وكيف قُرِنَت بالشَّرِّ أيَّامهم !! ؛ فيعزو ذلك إلى أنه قد قُدِّرَ عليهم الشقاء من قبل فكانوا من حزب الشيطان كما كان قابيل من حزب الشيطان !! ؛ ويخاف الصبيُّ أشدَّ الخوف أن يكون نصيبه من الحياة مثل نصيب هؤلاء وهو يرى من أثر الشيطان في خُلُق أُمِّهِ ما يرى ثم يرى منه في نفسه ذلك العرج الذي ازداد أَلمه منه حينما بلغ السابعة !!

ويُعرف الصبيُّ في المدرسة بحدَّة ذكائه ؛ بقدر ما يُعرف بإهماله وانصرافه عن دروسه !! ؛ ويسمع منه مُعلِّموه عبارات يبدو بها أكبر من سنِّهِ ويدهشهم منه قراءته الخارجيَّة التي لم يبلغ نصيبه منها عشرةٌ من أقرانه مجُتمعين !! ؛ وكان شغفه بالشرق عظيماً !! ؛ فقرأ قصص « ألف ليلة وليلة » ؛ وألمَّ بقدرٍ كبيرٍ من تاريخ أُمم الشرق ؛ وفي مُقدِّمتهم التُّرك ؛ كانت أُمُّهُ على قصر ذات

يدها لا تضنُّ عليه بما يطلب من الكُتُب ؛ فكان يعُدُّ ذلك من أكبر حسناتها إن كان ثمة لها غير هذه من الحسنات !!

وَعُرِفَ شاعر الغد بحدَّة عاطفته وتمرُّده على القوانين والأوضاع الرتيبة !! وَعُرِفَ كذلك باستعداده للنضال والهجوم إذا استفزَّه إلى ذلك أحد ؛ عاد إلى منزله ذات يومٍ يلهث وفي وجهه آثار معركةٍ ؛ فأجاب على تساؤل خادمته عن هذا : بأنه تربَّص بغُلامٍ كان أهانه فتوعَّده حتى وقع عليه في الطريق فأذاقه من بطشه ؛ وأتمَّ حديثه قائلاً : وكيف لا أُنفذ ما توعدته به ؟!! ؛ ألست بيرونيَّ النسب ؟!!

واستقرَّت في أعماق نفسه الصغيرة مناظر إسكتلندة - برواسيها الشامخات التي تُجَلِّل رُؤوسها الثلوج ؛ وتعلو بعض قممها على السحاب !! ؛ وكانت هذه الأجرام الهائلة تهزُّ نفسه وتستميله أكثر مما تفعل الزهور والرياض وأشباهها من مناظر الطبيعة الهادئة الوديعة !!

وتفتَّح قلب الصبيِّ للحُبِّ وهو في الثامنة - فقد رأى في إحدى جولاته مع أُمِّهِ ابنة أحد الفلاَّحين ؛ فأحبَّها حتى ما يُطيق أن يفارقها !! ؛ ولمَّا فارقها على رغمه كانت تجيش نفسه وهو في تلك السنِّ بمعاني الوجد والحنين !!

على أنه ما لبث وهو في التاسعة أن هام بابنة عمٍّ له هياماً استأثر بلُبِّه !! ؛ فما يُفكِّر إلا فيها !! ؛ وما يرى حُسناً يُقاس إلى حُسنها !! ؛ وإنه ليحُسُّ إذا جالسها بما يملأ قلبه من معاني الوداعة واللين واللُّطف ؛ حتى لينسى عُنفه وحدَّته أتمَّ النسيان ؛ ولا يُزعجه إلا خجله من عرجه !! ؛ وكم يتمنَّى أن لم

تكن العاهة التي يعظم خجله منها أمام ابنة عمّه ماري أكثر مما يعظم تلقاء غيرها من النّاس !!

وكانت أُمُّهُ تُوقن في قرارة نفسها أن ابنها سيكون رَجُلاً عظيماً في غده !! ولعلَّ مَرَدَّ ذلك ما تتمنّاه الأُمَّهات عادةً لأبنائهن ؛ ولعلَّ مردَّهُ إلى ما أخذته من عرَّافةٍ ريفيَّةٍ نبَّأتها بما سيكون له من خطرٍ في غده !! ؛ وها هي ذي الأيَّام تُوشك أن تُحقِّق جانباً من نُبوءة العرَّافة ــ فلقد كان للورد الخامس في الأُسرة - وهو شقيق جدِّه - حفيدٌ هو الذي يرث اللقب من بعده ؛ فمات هذا الحفيد عام ١٧٩٤ ؛ فلم يبق بين الطفل واللقب إلا أن يموت ذلك اللورد الشيخ !! ؛ وما لبث أن مات ذلك الشيخ بعد ذلك بنحو أربعة أعوامٍ ؛ فانتقل لقب الأُسرة الوراثيّ إلى الطفل وهو في العاشرة !!

وفرحت أُمُّهُ أشدَّ الفرح !! ؛ ولكن الطفل يتجه إلى المرآة ويسأل أُمَّهُ عمَّا إذا كانت ترى فيه فرقاً بين يومه وأمسه ؛ لأنه لا يرى شيئاً من ذلك ؟!!

ولكنَّ هذا اللقب سوف يكون عظيم الأثر في حياة شاعر الغدِّ وموقف المُجتمع منه ـ إذ سيكون من أهمِّ ما توافي له من أسباب الإعجاب به وذهاب صيته في الأوساط جميعاً !!

وتأهَّبت أُمُّهُ لتذهب به من أبردين إلى حيث يستلم ما ورثه مع لقبه الجديد من ثروةٍ ؛ وكان الصبيُّ يومئذٍ في سنته الحادية عشرة ؛ ولقد عزَّ عليه أن يغادر أبردين فيبتعد عن ابنة عمِّه ماري التي أحبَّها ذلك الحُبَّ الشديد !! ؛ وعن مناظر إسكتلندة ؛ ويُحرم مما باتت تُوحيه إليه شواهقها

ووديانها ؛ تلك الشواهق التي ألف تسلُّق جوانبها على الرَّغم من عاهته ؛ والتي زلَّت قدماه على سفحٍ من سفوحها ذات يومٍ حتى أشرف على الموت لولا أن تداركه بعض من كان معه ؛ فلم يزده ذلك إلا تعلُّقاً بها وإقداماً على مُعاودة تسلُّقها !!

ورحلت الأُمُّ وولدها وخادمتهما ؛ وأحسُّ الصبيُّ أنه ينتزع نفسه من ملاعب طفولته انتزاعاً !! ؛ ولقد استقرَّت في نفسه مناظرها وطيوفها ؛ وما أعظم ما سيكون لهاتيك الطُّيُوف في غدٍ من الأثر في شعره وخياله !!

وانتهى بهم السير في ((نيوستد)) ؛ وحطُّوا رحالهم في مهد الأُسرة العتيق ؛ في ذلك القصر الذي أفنت جُدُره العتيدة السِّنين الطُّوال ؛ ولشدَّ ما أحبَّهُ الصبيُّ وآنس في هيكله وأبهائه وحُجُراته أحلاماً جديدةً أضافها إلى سالف أحلامه !! ؛ وأقبل على الخدم يسألهم عمَّا تقع عليه عيناه ؛ وعلى الأخصِّ عن تلك الصُّور المُعلَّقة على الجُدران ؟!! ؛ فهذه صُورة ((اللورد التَّعِس !!)) ؛ الذي ورث عنه الصبيُّ ما ورث ؛ وتلك صُورة أحد أجداده الذي أبلى أحسن البلاء في الحُرُوب الصليبيَّة ومات في الأرض المُقدَّسة ؛ وهذه ... ؛ وهذه ... ؛ والصبيُّ مُعجبٌ بذلك كُلِّهِ إعجاباً شديداً !! ؛ وإنه ليزهى أشدَّ الزهو بأنه ((اللورد الجديد)) ؛ الذي آل إليه ذلك القصر وما فيه جميعاً !! ؛ وغرس الصبيُّ بيده شجرةً هُناك لتكون ذكرى له !!

على أن ذلك القصر لم يعُد يصلُح للسُّكنى بسبب ما أصابه من التخريب أيَّام ذلك اللورد التعس ؛ ولم يك لدى أُمِّ الصبيِّ ما يتطلَّب إصلاحه من

المال ؛ ولذلك لم تلبث أن تركته وابنها إلى مدينة « نوتنجهام » ؛ واعتلج في نفس اللورد الصغير الألم لفراق قصره السِّحريِّ ؛ الذي أمَّلَ أن يتسلَّى به عن « ماري دف » ؛ وقد شفَّ قلبه الوجدُ لبُعده عنها !! ؛ ولقد كان عجيباً أن يُحِبَّها مثل هذا الحُبِّ وهو في التاسعة !! ؛ وأن يأسى على فراقها هذا الأسى وهو بعد لم يتجاوز الحادية عشرة !! .

ويذهب بعض عُلماء النفس : إلى أن مثل هذه العاطفة الباكرة بشيرٌ بنُبُوغ صاحبها غداً في مجال الفنِّ !! ؛ ويُروي عن « دانتي » - أحد شعراء الدُّنيا الأفذاذ !! - أن قلبه الغضَّ نبض بحُبٍّ « بياتريس » وهو لا يزال في التاسعة من عُمره !!



.....

✿ - بيرون (١)

- [٣] -

.....

« ذَلِكَ العَبْقَرِيُّ المُتَمَرِّدُ !!... ؛ الَّذِي غَنَّى أَرْوَعَ أَنَاشِيدِ الحُرِّيَّةِ !! ؛ وَلاقَى المَوْتَ فِي سَبِيلِ الحُرِيَّة !! . » .

.....

أقام الصبيُّ في نوتنجهام ؛ ووكّلت به أمُّهُ أستاذاً يُعلّمه اللاتينيَّة ؛ وأحبَّه أُستاذه حُبّاً عظيماً !! ؛ وأُعجب بذكائه الفائق !! ؛ وَدُهِشَ لكثرة ما قرأ من الكُتُب !! .

وفي تلك المدينة أسلمته أُمُّهُ إلى رَجُلٍ ادَّعى أنه قادرٌ على أن يُزيل عاهته !! ؛ وكم كان يتألَّم الصبيُّ حين كان يدلك ذلك الرَّجُل رجله بالزيت ؛ ثم يلويها في عُنفٍ ويشُدُّ عليها الوثاق بين خشبتين !! ؛ ولكن كبرياءه كانت تأبى عليه أن يُظهر الألم على ما كان من هوله وعدم جدواه !! ؛ لقد كان ذلك الرَّجُل الفظُّ يُرسله أحياناً إلى بعض الحوانيت ليشتري له ما يُريد كأنه خادمه ؛ والناس يعجبون ويألمون أن يُعامل اللورد

(١) - العدد : ٣٤٢ - بتاريخ : ٢٢ - ١ - ١٩٤٠ .

الجميل هذه المُعاملة !! ؛ وكان الصبيُّ ينتقم من طبيبه بكثيرٍ من مُعاكساته !! ؛ ومنها أن يسأله أسئلةً تُظهر له جهله ؛ فيسخر منه ويُطلق لسانه بالتهكُّم عليه !!

واستطاعت أُمُّهُ أن تحصل له من ميراثه مُؤقتاً على ثلاثمائة جنيهٍ تُدفع له كُلَّ عامٍ حتى يُبيح له القانون أخذ نصيبه كُلِّهِ .

وأخذا يُحسَّان اليُسر في معيشتهما ؛ ولكن أُمَّهُ ظلَّت على حالها من الشُّذُوذ !! ؛ فهي لا تني تكيل له الشتائم !! ؛ وكثيراً ما تُطارده تُريد أن تضربه فلا تُدركه على الرغم من عرجه ؛ ولقد علَّمه هذا أن يُصيبها ببعض تهكُّماته وأن يُناوئها بعناده وتمرُّده !!

وهكذا تُظهر الظروف خلاله في هذه السِّنِّ الباكرة : فهو عنيدٌ مُتمرِّدٌ ذو كبرياء ؛ وهو مُتوقِّد العاطفة مشبوب الخيال ؛ وهو بارع الكلمة حاضر البديهة ؛ ولسوف تُكوِّن هذه في غدٍ خواصَّ شعره يوم يحمل أنصاره وخصومه جميعاً على الإعجاب بذلك الشعر !!

وأدخلته أُمُّهُ مدرسةً في لندن وهو في الثانية عشرة من عمره ؛ وكانت تزُوره هُناك أحياناً ؛ فيبدو للناس من شُذُوذها ما يخجل اللورد المُتكبِّر منه !! ؛ وكم كان يضيق بخلاَّنه إذ يُعيِّرُونه بحماقة أُمِّهِ !! ؛ فيُحاربهم تارةً ويُعرض عنهم تارةً أُخرى !! ؛ ولقد كان وهو في تلك السِّنِّ يحمل في جيبه أينما سار مُسدَّساً محشوّاً !! ؛ كأنما كان يستعيض به عمَّا لحقه من ضعفٍ بسبب عرجه !! ؛ على أن لا يُستبعد أن يكون ذلك بعض ما تطرَّق إليه من

شُذُوذٍ بسبب ما سمع من الأقاصيص عن اللورد التعس !! ؛ فلقد كان الصبيُّ يُبدي إعجابه بما كان يقصُّ عليه الخدم من أنبائه في قصر (نيوستر)!!

وَنُقِلَ الصبيُّ وهو في الثالثة عشرة إلى مدرسةٍ تليق به ؛ وكانت من أكثر المدارس شُهرةً يومئذٍ ؛ وهي مدرسة « هارو » ؛ وكان يقوم عليها أحد ذوي المكانة من المُربِّين ؛ وسُرعان ما فطن ذلك المُربِّي إلى صفات التلميذ الجديد ـ فلمح عناده وكبرياءه ؛ ولذلك عوَّل على اكتسابه باللين ؛ فنجح في ذلك نجاحاً كبيراً ؛ وأحبَّ التلميذ ناظره واطمأن إلى عدالته ؛ ولعلَّ هذا هو الشخص الوحيد الذي خضع له بيرون في حياته كلها !!

وهالت المدرسين والتلاميذ جرأته من أول الأمر !! ؛ فهو يخرج على ما يُحَدُّ من حُريَّته ؛ وهو يذهب في ذلك إلى أن يُعلن إعجابه ببونابرت ؛ بل إنه ليحمل صوراً له وتمثالاً صغيراً !! ؛ وهو لا يفتأ يتحدَّث عن الثورة في فرنسا وما تدعو إليه من حُريَّةٍ ؛ ولو كان على رأس تلك المدرسة رَجُلٌ غير ناظرها هذا لما صبر على جرأة هذا التلميذ الثائر !! .

وسُرعان ما حمل التلاميذ على الإعجاب بخلاله ـ فهو جريءٌ في الحق ؛ يُظهر من الشجاعة الأدبيَّة في كُلِّ المواقف ما ينال به احترام الجميع ؛ وهو لا يعرف الكذب ولا يطيق سماعه ؛ وهو ولوعٌ بالرياضة على الرغم من عاهته ؛ وهو شديد الإخلاص لأصدقائه ؛ لا يبخل على أحدٍ بشيءٍ مهما عز ؛ وهو مُشتعلٌ حماسةً وإقداماً ؛ وهو فصيح اللسان ؛ أخَّاذ العبارة ؛ ذكيُّ الفؤاد ؛ وهو فضلاً عن ذلك كُلِّهِ قد قرأ من الكُتُب ما لم يقرأ نصفه أحدٌ ممن

هُم في سنِّه !! ؛ هذا إلى اعتداده بنفسه ؛ وحرصه على كرامته ؛ وطموحه ؛ وبُعْدِ همَّته ؛ لذلك لم يمض على بيرون عامٌ في مدرسته حتى كان شخصيَّةً فذَّة !! ؛ فأحبَّه جميع أقرانه ؛ واحترمه أساتذته ؛ وأُعجبوا به على الرغم من تمرُّد رُوحه وتكاسُله أحياناً عن دروسه ؛ وكان ذوو البصائر منهم يتنبَّئون لذلك الغلام بِمُستقبلٍ فذٍّ وأثرٍ في الأدب خطير !!

وكان قد ملك قلبه وهو في الثانية عشرة حُبٌّ جديدٌ !! ؛ فهام بابنة عمٍّ له أخرى ؛ هي « مارجريت باركر » ؛ ولقد ذكر بيرون فيما بعد أن أول خطوةٍ خطاها في الشعر كانت بوحيٍ من هذه الفتاة التي كانت تكبره بعامٍ ؛ على أن يد الموت لم تلبث أن قصفت عودها اللدن وهي في الخامسة عشرة !! ؛ فكان هذا أول حُزْنٍ أرمض قلب الفتى !! ؛ واستقرَّ في أعماقه حتى نهاية عمره !! .

وكان يراه التلاميذ في « هارو » يحمل كتاباً ويصعد التلَّ القريب إلى مقبرةٍ هُناك ؛ فيضطجع على قبرٍ تُظلِّله شجرةٌ ؛ ويظل يقرأ ويتأمَّل في ذلك المكان مُدَّةً قد تطول إلى ساعات ؛ وكان مما ظهر من صفاته في الرابعة عشرة : ميله إلى العُزلة أحياناً ؛ وذلك دأب ذوي النفوس الحالمة الحزينة ؛ ولقد اشتهر فيما بعد أمر ذلك القبر الذي كان يضطجع عليه الشاعر ؛ حتى لقد أُحيط بسياجٍ من الحديد بعد أن أصبح الشاعر في ذمَّة التاريخ ؛ وذلك حين امتدت أيدي الزائرين لهذا المكان إلى أحجاره تحملها كأثرٍ من آثار العبقريَّة ؛ على الرغم من أنهم كانوا يعلمون أن ذلك القبر لم يك قبر بيرون !!

وأُتيح للفتى وهو في السادسة عشرة أن يذهب إلى قصره في « نيوستد »

أثناء عُطلةٍ صيفيَّةٍ إجابةً لدعوى وُجِّهت إليه من مُستأجر ذلك القصر ؛ وكان هذا شاباً يُدعى « اللورد جراي » ؛ ولشدَّ ما أبهج بيرون أن يرى ذلك القصر ؛ وأن يرى تلك الشجرة التي غرسها هناك بيده وقد أخذت تترعرع وتكبُر !!

وكان يقوم على مقربةٍ من نيوستد قصرٌ آخرٌ في موضع اسمه (أنسلي) ؛ وكانت تملكه أُسرة « سودرث » ؛ وهم من ذوي قُرباه ؛ وكان بيرون يمتطي جواداً إلى ذلك القصر أحياناً ؛ حيث كان يرى قريبته « ماري سودرث » ؛ وهي فتاةٌ تكبره بعامين ؛ وهي من سُلالة ذلك الرَّجُل الذي قتله اللورد التعس في مُبارزته !!

وكانت ماري تُحِبُّ فتىً من أهل تلك الجهة على غير علمٍ من بيرون ؛ ولكنها رأت في نظرات بيرون مالا يخفى على عين فتاةٍ في مثل هذه السن ؛ والفتيات يفهمن بغريزتهنَّ لُغة العيون إذا ما استبهمت من الخجل لُغة الكلام !! ؛ ولقد هام بحُبِّها ذلك الفتى المشبوب الخيال المُلتهب العاطفة !! ؛ واستأثرت بلُبِّهِ الفتاة حتى ما يرى للوجود معنىً غير معنى هيامه بها !! ؛ ولا يتصوَّر سعادةً تُقاس إلى سعادته بحُبِّها !! ؛ ولكن قلبها لم يك طوعها يومئذٍ ؛ فلقد ربطة الحُبُّ بقلبٍ غير ذلك القلب الفتيِّ المُتوثِّب !! ؛ على أنها وجدت في هيام اللورد بها ضرباً من اللذَّة ومعنىً من معاني الزهو !! ؛ فطاوعته وجاذبته أطراف الأحاديث ؛ وجعلت لنومه حُجرةً في قصرها ليبيت هُناك إذا شاء ؛ وأهدت إليه صُورةً لها وخاتماً !!

وبات الفتى في فردوسه الجديد يستروح أنسام السعادة ويحلُم أحلام الحُبِّ !! ؛ إلى أن كان ذات ليلةٍ من ليالي فردوسه في طريقه إلى مخدعه ـ فسمع ماري تقول لخادمتها وقد حسبته قد صار بحيث لا يسمع : « أتظنينني أعبأ حقّاً بهذا الفتى الأعرج ؟!! » ؛ ونفذت الكلمات كالسهام إلى قلبه !! ؛ ورأى جنَّته قد انقلبت جحيماً في مثل خفقة الطرف !! ؛ فخرج لتوه في الظلام وظلَّ يعدو كالمجنون حتى بلغ نيوستد !! ؛ فأوى إلى حُجرته لاهثاً خائر البدن !! ؛ وبقي شارد اللُّبِّ ساهد الجفن حتى أصبح الصبح !! ؛ فعاد إلى « أنسلي » ؛ ولكنه لم يُطلع ماري على ما حدث !! ؛ واستقرَّت اللوعة في قلبه !! ؛ فأخذ يخفيها مُكابراً مُعانداً !! ؛ يُسفِّهُ ذلك القلب ويزجره وإن كان ليكاد ينفطر مما به !! ؛ ولقد كان من أبرز خلاله أنه يطوي على الثورة نفسه فتظلُّ الثورات كامنةً فيه حتى تجد مُتنفَّساً لها !! ؛ ولم يك ذلك المُتنفَّس غير شعره !! ؛ والحقُّ لقد كانت هذه الإشارة إلى عاهته أوجع مما سبقها جميعاً وأشدَّها نيلاً من كبريائه !!

وحان موعد الذهاب إلى المدرسة ـ فلم يذهب على الرغم من إلحاح أُمِّهِ عليه وقطعه العهد على نفسه بالذهاب مرَّةً بعد أُخرى !! ؛ ثم نشب بينه وبين اللورد جراي شجارٌ عنيفٌ لسببٍ عقل الخجلُ الشَّديدُ لسانه عن أن يُفضي به إلى أُمِّهِ !! ؛ ولقد التهب وجهه وهي تستفهمه عنه كأنما سرت في جسده حُمَّى !! .

وأخيراً عاد الفتى إلى المدرسة بعد فوات ثلاثة أشهرٍ مُنْذُ بدأت الدراسة

وقلبه مُثقلٌ بالهُمُوم !! ؛ ونفسه مُنطويةٌ على الثورة !! .

وحاول بيرون أن يتعزَّى بأصدقائه عمَّا ناله على يد « ماري » ؛ فأقبل عليهم يستزيدهم من أحاديثهم ؛ فإذا مال بهم الحديث إلى الحُبِّ ــ راح يسخر من الحُبِّ بكُلِّ ما في وسعه من معاني السُّخرية !! ؛ فما الحُبُّ في نظره إلا ضربٌ من الجنونِ ونوعٌ من الضعف !! ؛ وإن الوقت الذي يُنفقه المرء في الهُيام أضيع أوقات حياته وأتعسها!! .

يقول ذلك وإن قلبه لينبض بالحُبِّ كأقوى وأوجع ما يكون الحُبُّ!! ؛ فيكون مثله في ذلك مثل من يشتدُّ به الحُزنُ لأمرٍ من الأمور ؛ فلا يزيد في دفع هذا الحُزن على أن يضحك ويُغرق في الضحك ويصيح بأعلى صوته أنه فَرِحٌ مُستبشرٌ !! ؛ حتى إذا خلا إلى نفسه أحسَّ بالجوى أشدَّ لذعاً وأقبح وقعاً مما كان عليه قبل هذا المرح المُتكلَّف !! .

ولاذ بالكُتُب لعلَّها تُسرِّي عن فؤاده ؛ وراح يقرأ منها ما يُسفِّهُ الحُبَّ ويُفنِّد أقوال المُحبِّين ويسخر من دعواهم !! ؛ ولقد كان يرجو من وراء ذلك أن يبرأ من دائه ؛ كما كان يرى فيه ما يتفق مع عناده وكبريائه ؛ كأنما كان يريد أن يصرف قلبه عن وجهته بالعُنف بعد أن عجز أن يُعلِّله بالصبر !!

وتزايدت على الأيَّام محبَّةُ أصدقائه له وحرصهم على مودَّته ؛ فكانوا يرجعون إليه في أمورهم ؛ ويعُدُّون الاستمتاع بروحه العذبة من أجمل أويقات حياتهم في المدرسة ؛ ويحُسُّون جميعاً أنهم دون هذا الفتى !! ؛ يحيا حياة الشاعر وإن لم يحمل بعد قيثارة الشاعر !! ؛ ويعترفون له بالتفوق أرادوا

ذلك أو لم يريدوا - وإن منهم من يبذُّهُ في الدروس المُقرَّرة ويظهر عليه في كثيرٍ من نواحي الحياة المدرسيَّة - ؛ وصار يُكثر من الذهاب إلى تلك المقبرة التي أحبَّها ؛ فيقضي ما شاء من الوقت في تأمُّله وقراءته ؛ وأقرانه ينظرون إليه ويُشيرون عن بُعْدٍ قائلين : هاهو ذا بيرون يصعد التلَّ إلى مقبرته !!

وازداد تعلُّقه بالمدرسة وحياتها ؛ حتى إنه ليُحزنه أن تقرب الإجازات الدراسيَّة !! ؛ فهو لا يستطيع أن يذهب إلى « أنسلي » ولا إلى « نيوستد » ؛ وليس أمامه إلا أن يذهب إلى حيث باتت تقيم أُمُّـهُ في « سوثول » على مقربةٍ من قصره العتيق ؛ وهو كُلَّما تقدَّمت به السنُّ ازداد نُفُوراً من تلك الأُمِّ التي ما تزال تشتمه وتُعنِّفه لسببٍ ولغير سببٍ ؛ حتى ليضيق بها وبالحياة جميعاً من أجلها !! .

على أنه ما لبث أن سكن إلى أُخته لأبيه « أوجستا » ؛ وراح يشكو لها بثَّـه وحُزنه !! ؛ وكانت رسائله إليها مُفعمةً بحماسة قلبه وتوثُّب رُوحه وتوقُّد عاطفته !! ؛ وكانت تعُدُّها من أكبر دواعي سرورها !! ؛ كما كان يعُدُّ رسائلها إليه ؛ ولَّما علم أنها قد مسَّها عذابٌ من الحُبِّ كتب إليها يُظهر توجُّعه لها ويُعلن لها في الوقت نفسه استهزاءه بالحُبِّ وسخافاته !! ؛ كرَّهت إليه قسوة ماري النساءَ جميعاً !! ؛ وصار يعتريه الخجل إذا طلع عليهن !! ؛ على أنه حينما علم بقُرب زواج « ماري » ؛ ذهب ليراها وقد كتبت إليه تدعوه ؛ ودخلت عليه حيث كان ينتظرها ؛ فحيَّت ؛ فوضع يده في يدها دُون أن يتكلَّم !! ؛ ثم خرج مُسرعاً فامتطى جواده وراح يسبق به الرِّيح !!

وأحسَّ بيرون في سنته النهائيَّة في « هارو » حُبًّا شديداً لهذه المدرسة !! ؛ حتى لقد كان يُفكِّر كيف يُطيق الخروج منها ؟!! ؛ وكان في سنته النهائيَّة قد قارب السابعة عشرة ؛ وقد أقام من نفسه زعيماً وحامياً لكُلِّ من كانوا دونه في السنِّ ؛ ولقد كان شديد الولوع بهذه الزَّعامة عظيم الفخر بها والحرص عليها ؛ وأخذ في تلك السنِّ يُكثر من نظم الشعر في الحفلات المدرسيَّة وفي غيرها من المُناسبات ؛ غير أن أقرانه ورُؤساءه كانوا يرون فيه خطيب الغد أكثر مما كانوا يرون فيه شاعراً ؛ وذلك لما آنسوه من حماسته في إلقائه كلماته ولما خبروه من بلاغة عبارته وقُوَّة جنانه وانطلاق لسانه .

وأقبل بيرون على دراسة اللاتينيَّة والإغريقيَّة وهو في هذه السنِّ ؛ فتفوق واشتهر أمره فيهما ؛ كما تفوق في السباحة وفي لُعبة الكريكت على الرغم من عرجه !!

ولمَّا حان يوم الرَّحيل طاف بالمدرسة كُلِّها طائفٌ من الشجن لفراق بيرون !! ؛ وثقل ذلك الفراق على هذه النفس الشاعرة !! ؛ حتى ما درى الفتى كيف يتأسَّى أو كيف يُطيق البُعد عن هذه المدرسة التي خطى خطوات الفُتُوَّة بين جُدرانها ؟!! ؛ وخرج منها وعبارات التوديع من أقرانه ملء أُذنيه وملء نفسه !!

وأُلحق بيرون عقب ذلك بـ « كمبردج » وهو دون السابعة عشرة ببضعة أشهُرٍ ؛ وأُتيح له يومئذٍ الحصول على خمسمائة من الجنيهات سنويًّا من دخله ؛ وفي كمبردج بدأ بيرون يستقبل حياة الجدِّ ؛ ويخطو خطواته الأُولى في

مجال الشعر .



.....

✿ - بيرون (١)

- ﴿ ٤ ﴾ -

.....

« ذَلِكَ العَبْقَرِيُّ الْمُتَمَرِّدُ !!... ؛ الَّذِي غَنَّى أَرْوَعَ أَنَاشِيدِ الحُرِّيَّةِ !! ؛ وَلاقَى المَوْتَ فِي سَبِيلِ الحُرِيَّة !! . » .

.....

وانصرف بيرون في كمبردج عن دروسه كما كان يفعل في هارو ؛ وراح يقرأ ما تُحِبُّ نفسه من الكُتُب ؛ وأخذ يتسلَّى بنظم الشعر في شتَّى المُناسبات ؛ ولقد اصطفى فريقاً من الصِّحاب في الجامعة كما فعل في المدرسة ؛ وظلَّ في الجامعة حريصاً على أن تكون له الزَّعامة على من هُم دونه في السِّنِّ ؛ وأحبَّ في الجامعة شيئاً واحداً ـ وذلك هو حياتها الحُرَّة الخالية من قيود المدرسة ؛ وعاش في سعةٍ بما أُتيح له من المال ؛ وبسط يده لإخوانه كُلَّ البسط ؛ وكان من الأمور الشائعة يومئذٍ لعب الورق وشُرب الخمر ؛ حتى لقد كان يُعرف الشاب بمقدار ما يشرب من الرَّاح في جلسةٍ ؛ وبمبلغ حذقه في اللعب أكثر ما يُعرف بما يُحصِّل من درسه ؛ وكان طبيعيًّاً أن يُجاري شابٌّ مثل بيرون أقرانه

---

(١) ـ العدد : ٣٤٤ ـ بتاريخ : ٥ ـ ٢ ـ ١٩٤٠.

فيما انغمسوا فيه - وإن كان يكره الخمر بطبعه - ؛ وأقبل الشابُّ على حياة اللهو ؛ لا يتقيَّد بعُرفٍ ولا يهتمُّ بلومٍ !! ؛ حتى نفد ماله !! ؛ فاستدان بضع مئات ؛ ولما ضاق نطاق الجامعة عن لهوه استأجر مسكناً خارج أسوارها ؛ واتخذ له خليلةً ألبسها ملابس الرِّجال وادَّعى أنها أخ له !! ؛ وأطلق لحياة المُجون عنانه !! .

فهل كان يريد بهذا العبث أن يسخر سُخريةً عمليَّةً من الحُبِّ وأحلام الحُب ؟!! ؛ أم هل كان يجري فيه على ما ورث من آبائه من خلال ؟!!

الحق أننا نستطيع أن نرُدَّ ما أسرف فيه على نفسه من اللهو إلى الأمرين معاً ؛ ونستطيع كذلك أن نُضيف إليهما ولعه بالرياضة التي جعلها بعض لهوه ؛ وكان يُريد من الرياضة أن يكتنز لحمه فيضمر جسمه ؛ لأنه كان أميل إلى البدانة ؛ وكان كُرهه للبدانة شديداً !! ؛ وكانت أحبُّ ضروب الرياضة إليه السباحة التي كان يجيدها ؛ والمُلاكمة التي أخذ يتعلَّمها على أحد كبار مُعلِّميها .

ولمَّا انتهى العام - ترك بيرون الجامعة وذهب إلى سوثول حيث كانت تقيم أُمُّه ؛ فما أن وقع بصرها عليه حتى ثارت في وجهه وقذفته بما كان في يدها !! ؛ فعوَّل على الرَّحيل مُسرعاً وقد كانت له يومئذٍ مركبةٌ اشتراها !! ؛ فركبها مع أحد أصدقائه وركب إلى جانب السائق خادمٌ له واصطحب معه كلبيه وكان يُحِبُّهُما أشدَّ الحُبِّ ؛ وغاب زمناً عن أُمِّهِ حتى أنفق ماله ؛ فعاد إليها على رغمه .

وتغيَّب عن الجامعة عاماً ؛ جمع فيه شعره بإشارةٍ من فتاةٍ كان قد تعرَّف إليها في سوثول حين ذهب إليها أول مرَّةٍ مع أُمِّه ؛ وكانت تحترمه وتُكبره ؛ فاطمأن إليها ؛ ولمَّا تمَّ له جمع قصائده ؛ دفعها إلى ناشرٍ تحت عنوان « ساعات الكسل » ؛ وذهب إلى لندن ليُشرف بنفسه على بيع ذلك الكُتيب ؛ وكان مما يُشبع كبرياءه أن يرى اسمه في « فترينات » بائعي الكُتُب !! ؛ وراح يترقَّب ما عسى أن تنشر الصُّحُف من نقدٍ لشعره ؛ ولمَّا عاد إلى الجامعة كان يطرب فؤاده لما يسمعه من ذيوع شعره بين طُلاَّبها !! ؛ على أن هذا الشعر يومئذٍ لم يكُن من النوع الذي يُبشِّر بمُستقبلٍ عظيمٍ !! ؛ وما لبث بيرون أن سمع أن صحيفة « أدنبرج » حملت عليه حملةً شديدةً ؛ ولامته على نشر مثل هذا العبث !! ؛ وكان بيرون في التاسعة عشرة ؛ وقد أشار إلى سنِّه في مُقدِّمة كتابه ؛ فعدَّت الصحيفة ذلك منه توقِّياً للنقد !! ؛ فأشارت إلى ذلك المعنى في حملتها عليه ذاكرةً أن كثيرين غيره نشروا قصائد وهم في سنٍّ مثل سنِّه أو أصغر منها فكانت خيراً من قصائده كثيراً !! .

ماذا يفعل ذلك المُتمرِّد تلقاء هذا النقد الشديد ؟!! ؛ لقد ثقُلَ عليه الهمُّ أول الأمر !! ؛ لقد كان يضيق بالحياة بعد ما كان بينه وبين ماري !! ؛ وظنَّ أن سيكون له في الشعر من ذهاب الصيت ما يتأسَّى به وما يتَّخذ به فخراً يرفع به رأسه ويدرأ به عن نفسه بعض الخزي الذي كان يلحقه من عاهته ؛ والذي ظلَّ مُلازماً له ؛ كما يتجلَّى ذلك في حديثٍ له يومئذٍ مع قسِّيسٍ في سوثول كان يجُادله ويُذكِّره بما منَّ به عليه خالقه من نعمٍ منها أنه وهبه عقلاً يسمو

به على الناس ؛ وكان جواب بيرون : أنه يسمو بعقله عن الناس ؛ ولكنه ينحطُّ برجله عنهم !!

ماذا يفعل ذلك المُتكبِّر المُحنق ؟!! ؛ لقد فكَّر أن يرُدَّ لِتوِّه على هذا النقد بقصيدةٍ ثائرةٍ ؛ ولكنه عاد فآثر التمهُّل ليكون رَدُّهُ مُحكماً ؛ وليُفرغ فيه كُلَّ ما يجيش في نفسه ؛ وأخذ ينظم وقلبه مملوءٌ بالغيظ والحقد على ناقده وعلى شُعراء عصره جميعاً !!

وأخلى « اللورد جراي » قصر « نيوستد » ؛ فذهب اللورد بيرون ليُقيم فيه ؛ وكانت يد البلى قد شوَّهت جمال ذلك القصر القديم !! ؛ على أن الشاعر ظلَّ على الرغم من ذلك شديد الحُبِّ له والإعجاب به !! ؛ وكان أول ما التفت إليه عقب عودته شجرته الحبيبة !! ؛ فأزال بيده ما التفَّ بها من الحشائش وما عاق من نُمُوِّها من مُتسلِّق العساليج ؛ وعاش في عُزلةٍ عن جيرانه ؛ فلا يرد لهم مودَّتهم ؛ فإنه بالناس بَرِمٌ مُنْذُ يفاعته ؛ على أنه لم يستطع أن يرفض دعوةً وُجِّهت إليه من نيوستد ؛ فذهب ليرى ماري وقد تزوَّجت وصار لها طفلةٌ صغيرةٌ ؛ وكأنه لم يبتعد عنها أكثر من يومٍ !! ـ فلقد نبض قلبه وهو إلى جوارها بما كان ينبض به أمس !! ؛ وحاول الكلام فلم يُطاوعه لسانه إلا بعباراتٍ مُتقطِّعةٍ لا معنى لها !! ؛ وعاد لهفان إلى قصره يلذع الأسى قلبه ويتنازع الهمُّ مشاعره !! ؛ فكتب لساعته قصيدةً تُعَدُّ من أروع قصائده !! ؛ تلمس فيها اللوعة في قوله !! :

« ودعاً يا حبيبتي العزيزة !!... ؛ لابُدَّ لي من الرحيل !! ؛ وما دُمت أنت

سعيدةً فليس هُناك ما يكربني !! ؛ أما أن أبقى إلى جوارك !!... ؛ فذلك ما لا أطيقه !!... ـ إذ سُرعان ما يعود قلبي طوع يديك !!

لقد طالما ظننت أن الزمن في دورانه ؛ وأن ما فُطِرَت عليه نفسي من فخارٍ وكبرياءٍ : كفيلان أن يُخمدا في قلبي تلك الشُّعلة الثائرة ... ـ شُعلة الحُبِّ ـ أو شُعلة الطفولة !! ـ ؛ ولكنني لم أتبيَّن حتى جلست إلى جانبك أن قلبي لم يزل في كُلِّ شيءٍ هو هو !!... ؛ إلا من جهةٍ واحدةٍ !!... ـ هي الأمل !!

غير أنني على الرَّغم من ذلك جلست هادئاً بين يديك !! ؛ نعم !! ؛ إني لم أنس تلك اللحظات التي كان يثب فيها قلبي بين ضلوعي عند لمحةٍ من عينيك !! ؛ أما الآن !!... ـ فالرعدة جريمة !! ؛ ولذلك التقينا ... ؛ فلم ينبض فينا عِرق !! .)) .

وعوَّل الشاعر على مُغادرة قصره الحبيب ـ يلتمس الشفاء في رحلةٍ طويلةٍ في أنحاء القارة أو إلى الشرق ؛ ولكنه بقيَ حتى يفرغ من كُتَيبه الذي كان ينظمه للرَّدِّ على ناقده .

واحتفل الشاعر في نيوستد في مُستهل عام ١٨٠٩ ببلوغه السن ـ [٢١] ـ ؛ فدعا إلى القصر بعض أصدقائه ؛ حيث أقاموا ليلةً ساهرةً صاخبةً ؛ ثم ذهب ليأخذ مقعده في مجلس اللوردات ؛ فاستُقبل استقبالاً فاتراً !! ؛ وقد ذهب إليه بِمُفرده على خلاف التقاليد التي كانت تقضي بأن يذهب اللورد الجديد في حاشيةٍ من أهله أو من أصحابه !! ؛ ولكن اللورد بيرون لم يجد من يصحبه !! ؛ وسُرعان ما ضاق بالمجلس ومن بالمجلس !! .

وفرغ من كُتيبه وقد نحا فيه منحى الشاعر « بوب » في الأسلوب والنزعة التهكُّميَّة ؛ وملأه بالهجوم العنيف على ناقده وعلى شُعراء عصره ؛ لم يستثن منهم أحداً !! ؛ وإنه ليتساءل : كيف يحِلُّ لهم النُّقّاد ما يحُرِّمونه عليه ؟!!

ونشر الكُتيب ـ فصادف من النجاح أكثر مما قدَّر له الشاعر الشاب !! ؛ ولقد ظهرت فيه براعته في التهكُّم ولباقته في سوق الحُجج ؛ وتجلَّت قـوَّة عبارته ؛ وإشراق معانيه ؛ ولذع سُخريته ؛ واطمأن الشاعر إلى مكانته وقد ظهر على ناقدٍ من أكبر نُقَّاد العصر ؛ وهو بعد في الحادية والعشرين من عمره !! ؛ وأحسَّ أنه شفى غليل نفسه ؛ فعاد من جديدٍ يُسرف في لهوه ؛ وكان قد بات في شُغلٍ عن أكثره بما كان يملأ فؤاده من غِلٍّ !! ؛ ولم ير الشاعر آخر الأمر بُدّاً من الرحيل ؛ فقد آده عبء ديونه !! ؛ وملَّ اللهو بعد أن أسرف فيه على نفسه !! ؛ ولذع الهمُّ فؤاده لوجوده قُرب ماري وما له إليها من سبيلٍ اليوم !! ؛ على أنه قبل أن يرحل دعا نفراً من خِلاَّنه في كمبردج إلى قصره ؛ فقضوا شهراً في العبث والمُجون ؛ وحسبك أنهم كانوا يُديرون الراح فى جُمجمةٍ آدميَّةٍ هي جُمجمة قسِّيسٍ أخرجت عظامه من الأرض فأس البُستانيّ !! .

وحان يوم الرحيل ؛ فلم يأس الشاعر على فراق أحدٍ غير كلبه !! ؛ ولم يجد حوله من يأسون على فراقه هو !! ؛ فإنه لم ير أُخته مُنْذُ فترةٍ طويلةٍ ؛ ونال من نفسه أنه لم ير في وُجُوه صحابه ما يُشعره أنهم يحزنون لسفره !! .

وركب البحر وهو لا يعلم أين يذهب ولا متى يعود !!

وسافر معه من خِلاَّنه شابٌّ يُدعى « هبهوس » ؛ فكانت لشبونة أول أرضٍ نزلا بها ؛ ومن لشبونة ذهبا إلى قادس ؛ ومنها إلى جبل طارق ؛ وكانت إسبانيا يومئذٍ في صراعها ضد نابليون ؛ وكانت الجيوش الإنجليزيَّة تُساعد أهلها على الخلاص من نِيْرِهِ ؛ وأُعجب بيرون بشجاعة أهل إسبانيا بقدر ما أُعجب بجمال طبيعتها !!

وركب وصديقه سفينةً من جبل طارق ؛ فبلغا مالطة ؛ ومنها توجَّها إلى ألبانيا ؛ حيث نزلا ضيفين على « علي باشا » وإلى « يانينا » ؛ وشدَّ ما أُعجب بيرون ببسالة الألبانيين ؛ وبمظاهر الحياة الشرقيَّة في قصر الباشا !! ؛ وكان له من ذلك مادَّةٌ غزيرةٌ سوف تظهر فيما بعد في آثاره .

وذهبا من ألبانيا إلى بلاد اليونان ـ موطن السحر والحكمة ؛ بلاد هوميروس وإفلاطون ؛ وادي الأساطير الخالدة !! ـ ؛ ووقف الشاعر أمام آثارها يقضي أرب مشاعره مما تُحدِّث من أخبارها وما تُوحي من معانيه !! .

وتوجَّها بعد ذلك إلى القُسطنطينيَّة ـ مدينة الشرق العظيمة ؛ بيزنطة الساحرة ؛ ذات المجد التالد والجمال الطريف ـ ؛ وأنس بمظاهر الحياة في عاصمة العُثمانيين !! .

وعاد الشاعر إلى وطنه بعد أن قضى في هذه الرحلة زُهاء عامين ؛ عاد وفي جيبه قصيدةً طويلةً ؛ لم تكُن إلا خُلاصة مشاهداته في رحلته هذه ؛ وتردَّد الشاعر في نشرها أيَّاماً ؛ ثم دفعها إلى صديقٍ له يسأله رأيه فيها ؛ فألحَّ الصديق عليه أن يذيعها في الناس فإنها لجديرةٌ بذلك أيَّ جدارةٍ !! .

وفعل بيـرون ما أشار به الصديق ؛ ولم تكد تتداول لندن هذا الكُتيب الجديد ؛ ويطّلع أهلها على ما جاء به من وصفٍ لهذه الرحلة ـ حتى كـان اسم الشاعر اللورد على كُلِّ لسان !! ؛ وفعلت بها براعـة وصـفه وحماسـة شعره وقُوَّة عاطفته ما يفعل السحر !! ؛ وهكذا يتوافى للشاعر بهذا الكُتيب الذي خاف من نشره أول الأمر من ذهاب الصِّيت ما لم يتواف لشاعرٍ قبله !! ـ بل لقد حاز بيرون من الشُّهرة ما لم يحز رَجُلٌ آخرٌ في أيِّ ناحيةٍ من نواحي الحياة الاجتماعيَّة !! ؛ حتى لقد شُبِّهَ يومئذٍ بـ «الشهاب اللاَّمع ؛ الذي يخطف بريقه الأبصار على حين غفلةٍ !! » ؛ وقال هو يصف نفسه : «لقد أفقت ذات صباحٍ ـ فوجدتني من ذوي الشُّهرة !! . » .

مُنْذُ ذلك اليوم صار بيرون شاعر عصره في إنجلترا ؛ فأخذ ينظم الشعر في سُرعةٍ عجيبةٍ أدهشت الناس وحيَّرت النُّقَّـاد !! ؛ وسعى إليه كثيرٌ من ذوي المكانة يُهنِّئونه ويُـثنون عليـه !! ؛ وأصبـح يُـشار إليـه في كُـلِّ نـادٍ ؛ ويبتغي الوسيلة إلى مودَّته الشباب والكهول !! ؛ وهو يزداد بذلك شُهرةً ويمتلئ قلبه زهـواً وفخـراً !! .

ولم تكُن إنجلترا يومئذٍ خلواً من الشُّعراء حتى تُعزى شُهرة بيـرون إلى أنـه لم يكُن في الميدان غيره ـ فقد كان في تلك البلاد عددٌ من فطاحل هذا الفنِّ ؛ من أمثال : وردث ورث ؛ وكلردج ؛ وسوذي ؛ وتوماس مور ؛ وكامبل ؛ وشيلي ؛ وولتر سكوت ؛ وغيرهم ؛ وكان مُعظم هؤلاء أكبر سنّاً منه وأسبق في قرض الشعـر !!

ولقد فاقت شُهرة بيرون شُهرة كُلٍّ من هؤلاء جميعاً على الرغم مما كان لأكثرهم من سُمُوِّ المكانة في الشعر؛ مثل: وردث ورث؛ وزميله كلردج.

وليس معنى ذلك أنه بذّهم في ذلك المضمار ـ فقد كان لكُلٍّ منهم ناحيةٌ تفوّق فيها؛ وإنما اتفق له من الصِّيت ما لم يتفق لأحدهم !! ؛ الأمر الذي جعل « ولتر سكوت » ـ على نباهة شأنه يومئذٍ ـ يترك الشعر ويبحث لعبقريّته عن مجالٍ آخرٍ؛ هو مجال القصص؛ قائلاً في صراحةٍ: إنه إنما يفعل ذلك لأن بيرون قد أخذ عليه طريق الشعر !! .

وهو قولٌ كان له وقعه في الأندية !! ؛ وكان له كذلك أثره البعيد في تزايُد شُهرة الشّاعر الشّاب؛ الذي لم يكن يومئذٍ يزيد على الرابعة والعشرين من عمره !! ؛ على أن بعض النُّقّاد يعزون ما أصاب بيرون من النجاح إلى عواملٍ أُخرى تتصل بشخصه أكثر مما يعزون ذلك إلى جمال قصيدته ـ فهو شابٌّ في ربيع العمر؛ وهو يتمتّع بلقبٍ من أكبر ألقاب الدولة؛ وهو إلى ذلك جميل الصورة موفور الوجاهة .

ولكن آخرين يُنكرون على هؤلاء رأيهم هذا قائلين: إنه نشر قصيدته قبل أن يُعرف عنه كُلُّ ذلك !! ؛ اللهُمَّ إلا بين نفرٍ قليلين من أصحابه !! .

ويلتمس غير هؤلاء وهؤلاء أسباب شُهرته هذه: في موضوع قصيدته لا في قُوَّة شاعريتها ـ فهي سياحةٌ في القارة؛ في وقتٍ كانت تتجه فيه الأنظار إلى ما يجري فيها من حُرُوبٍ يبعثها نابليون في أنحائها !! .

ولكن القصيدة لم تكُن وصفاً لتلك الحروب حتى يصحَّ هذا الرأي !! .

فهل كان ما أصابت القصيدة من شُهرةٍ يرجع إلى قُوَّة شاعريَّة صاحبها فحسب ؟!!

إنَّ الذين يقولون ذلك أيضاً بعيدُون - فيما نرى - عن الإنصاف بُعْدَ سالفيهم !! .

ولما كانت القصيدة أشهر حادثٍ أدبيٍّ في حياة الشاعر ؛ وأحد العوامل الهامَّة في الحركة الأدبيَّة يومئذٍ - وجب أن نتبيَّن حقيقة أسباب نجاحها على مثل هذه الصورة الفائقة !! .



الباب الثالث

أبحاث في اللغة العربية



.....

✿ - اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ كَأَدَاةٍ تَعْلِيمِيَّةٍ
لِلدُّكْتُور عَلِي مُصْطَفَى مُشَرَّفَه

.....

تجتاز اللُّغة العربيَّة في عصرنا الحالي مرحلةً من مراحل تطورها - سيكون لها أثرٌ واضحٌ في مُستقبلها - فاللُّغة التي كان عرب البادية يتكلَّمُونها بسليقتهم ؛ فيصفون بها حياتهم ؛ ويُعبِّرُون بها عن مشاعرهم في صحرائهم وبين إبلهم وآرامهم ؛ والتي صارت بعد ذلك لُغة الكُتَّاب والفلاسفة في عصور المدنيَّة الإسلاميَّة ؛ يتناولون بها سائر المعاني الأدبيَّة والفلسفيَّة ؛ تلك اللُّغة قد كُتِبَ عليها أن يُصيبها الخُمُولُ ؛ فتبقى مئات السنين بعيدةً عن مجهودات البشر الأدبيَّة والفلسفيَّة والعلميَّة !! ؛ ثم ها نحن نراها اليوم وقد بُعِثَت من مرقدها في ثوبٍ جديدٍ ؛ فصارت لُغة الكتابة والتأليف ؛ لُغة الخطابة والتعليم في عصرٍ انتشرت فيه مدنيَّةٌ جديدةٌ ؛ وعمَّتهُ حضارةٌ مُستحدثةٌ ؛ تختلف في مظهرها الخارجيِّ وفي المحمل العقليِّ المُرتبط بها اختلافاً بيِّناً عن حضارات القرون الوسطى - فاللُّغة العربيَّة تُبعث اليوم كما بُعِثَ الفتية بعد أن ضُرِبَ على آذانهم في الكهف سنين عدداً !! ؛ فتجد نفسها في عالمٍ جديدٍ

---

(١) - مجلَّة ((الرِّسَالة)) ؛ العدد : ١ - بتاريخ : ١٥- ١ - ١٩٣٣ .

مُوحشٍ ؛ لا تأنس إليه ولا يأنس إليها !! ؛ وهو لعمري موقفٌ نادرٌ تقفه لُغتنا ؛ لعلَّهُ فريدٌ في بابه !! ؛ لذلك كان لزاماً على الأُدباء والمُفكِّرين من أهل اللُّغة العربيَّة من عصرنا الحالي : أن يحوطوها بعنايتهم ؛ وأن يُهيِّئُوا لها أسباب الحياة الطيِّبة في بيئتها الجديدة ؛ حتى تتكيَّف بالبيئة وتجنح إليها ؛ كما تتوتر لها البيئة وتحتويها ؛ فاللُّغة كالكائن الحيِّ ؛ في تفاعُلٍ مُستمرٍّ مع البيئة التي تُحيط به ـ فإما تلاءما فاشتد الكائن وتكاثر ونما ؛ وإما تنافرا فاضمحلَّ وتضاءل وهلك .

وإذا نحن قارنا البيئة الفكريَّة الحديثة بما كانت عليه في أيَّام ازدهار الحضارة العربيَّة ـ فلعلَّ أول ما يسترعي نظرنا من الفوارق : تغلُّب الرُّوح العلميَّة على تفكيرنا الحديث ؛ فالمدنيَّة الحالية ـ كما يدُلُّ عليه تاريخها ـ مدنيَّةٌ علميَّةٌ ؛ مدنيَّة كشفٍ واختراع ؛ مدنيَّة استنباطٍ وتحليل ؛ ولذا كان مظهرها الخارجيُّ غاصَّاً بالآلات والعُدد ؛ تكتنف الناظر إليها عن اليمين وعن الشمال ؛ فلا عجب أن تشعر لُغَةُ العِيس والسِّهام بوحشةٍ بين الطيَّارات والمدافع الرشَّاشة !! .

ومما لا شكَّ فيه : أن التقدُّم الذي حدث بمصر وفي سائر البلاد العربيَّة في العصر الحالي ـ قد كان من شأنه العمل على المُقاربة بين اللغة العربيَّة الحديثة وبين بيئتها ـ فمن ناحيةٍ : قد تطورت اللُّغة بأن دخلت عليها كلماتٌ وعباراتٌ مُستحدثةٌ نشأت الحاجة إليها ؛ كما تغيَّرت معاني الألفاظ ومدلولات التراكيب بما يتفق والتفكير الحديث ؛ وهجرت الألفاظ الغريبة

علينا ؛ أو التي لا لزوم لها ؛ فنشأ عن ذلك تهذيبٌ في اللُّغة قرَّبها إلى عُقُولنا وساعد على حُسْنِ استخدامها .

ومن ناحيةٍ أُخرى : بانتشار التعليم بين طبقات الأُمَّة ؛ وبزيادة تبحُّر مُتعلِّميها في مُختلف العُلُوم والفُنُون قد انتشرت الألفاظ والتراكيب العربيَّة وشاع استعمالها في طُول البلاد وعرضها ؛ كما تكوَّنت طوائفُ من العُلماء والمُفكِّرين بيننا ؛ يكتبون ويخطبون ويُؤلِّفُون في سائر العلوم والفنون ؛ فنشأت ثروةٌ من الأدب العلميِّ والأدب الفنيِّ الحديثين ؛ يَصِحُّ أن تُتَّخذ مرجعاً لعُلماء اللُّغة في دراستهم للُّغة العربيَّة الحديثة .

إلاَّ أننا مع ذلك : لا نستطيع أن نزعُم أن الشُّقَّة بين اللُّغة وبيئتها قد تلاشت تماماً ـ فلا تزال هُناك مدلولاتٌ عديدةٌ لم تتَّسع اللُّغة للتعبير عنها ؛ بحيث يشعر المُتعلِّم منَّا بنقصٍ في لُغته عندما يُحاول الكلام في كثيرٍ من المواضيع العلميَّة والفنيَّة .

كما أنه من ناحيةٍ أُخرى : يوجد نقصٌ كبيرٌ في عدد المُتعلِّمين الذين يُحسنون الكتابة أو الخطابة بلُغةٍ مُتَّفَقٍ على صحَّتها .

وبعبارةٍ أُخرى ؛ كُلُّ ما يُمكن أن يُقال : أن اللُّغة العربيَّة الحديثة لا تزال في دور التكوين .

لو أُتِيحَ لنا أن ننظر إلى مُستقبل اللُّغة العربيَّة ـ فتُرى ماذا نجد ؟ ؛ هل نجد لُغةً واحدةً يكتبها ويتكلَّمُها المُتعلِّمُون من أهل مصر وأهل العراق وأهل الشام وغيرهم من الأُمم العربيَّة بفُرُوقٍ ضئيلةٍ لا تزيد على الفروق بين لُغة

أهل أُستراليا ولغة أهل إنجلترا ؟ ؛ وهل تكون هذه اللُّغة قريبةً من اللُّغة العربيَّة التي أكتبها الآن قُرب لُغة الإنجليزيِّ المُتعلِّم الآن من لُغة شكسبير ؟ ؛ أم هل نجد لُغات مُختلفةً : لُغة في مصر ؛ وأخرى في العراق ؛ وأخرى في لُبنان ؛ مثلها كمثل اللغة الألمانيَّة واللغة السويديَّة واللغة الهولنديَّة في تقاربها وتباعدها ؛ كُلّ لُغةٍ مُتأقلمةٍ بلهجة أهلها ؛ ولا صلة بين أيِّها وبين لُغة هذا المقال ؛ إلا كالصلة بين اللغة الألمانيَّة واللغة اللاتينيَّة ؟!!

ويعبارةٍ أُخرى : هل ستحيا اللغة العربيَّة وتنتشر ؛ أو ستموت وتندثر وتحُلُّ محِلَّها لُغاتٌ أُخرى ؟!!

إِنَّ مآل اللُّغة العربيَّة في مُستقبلها مُتوقِّفٌ علينا نحن اليوم ـ فاللُّغة ـ كما قدَّمتُ ـ في دور التكوين ؛ ولذا ففي يدنا قتلها ؛ وفي يدنا إحياؤها ـ أما قتلها : فيكون بالجمود بها عن تطورها الطبيعيِّ ؛ كما يكون بعدم التعاون بين الأُمم المُختلفة من أهلها على توحيدها والمُحافظة على وحدتها .

وأما إحياؤها ـ فيكون بالتبصُّر والحكمة وَحُسْنِ الرعاية والتمشِّي بها في السبيل الطبيعيِّ لرُقيِّها كلُغةٍ حيَّةٍ واحدة ؛ ومن حُسْنِ الحظِّ أن لدينا اليوم من الوسائل ما نستطيع به المُحافظة على لُغتنا في مصر وفي سائر البلاد العربيَّة ـ فانتشار المطبوعات ؛ وسهولة الانتقال من بلدٍ إلى أُخرى ؛ والإذاعة اللاسلكيَّة : كُلُّ هذه عواملُ قويَّةٌ على توحيد اللُّغة وتعميمها ؛ إذا نحن أحسنَّا استخدامها وتنظيمها .

ولست أتعرَّض في هذا المقال للُغة الأدبيَّة ؛ بل أترك ذلك لأُدبائنا وكُتَّابنا

ـ وإنما أُريد أن أُشير إلى بعض الصعوبات التي تُصادف لُغتنا اليوم كأداةٍ للتعبير العلميِّ ؛ فمن جهةٍ : لا تزال كميَّة التأليف العلميِّ في مصر وفي الأقطار العربيَّة ضئيلةً بحيث لا يُمكن بحالٍ ما أن تُعتبر مُمثلةً لحالة العلم في العالم اليوم .

ومن ناحيةٍ أُخرى : يعوز المُؤلَّفات العلميَّة الموجودة التهذيب ؛ كما يعوزها التجانس في المُصطلحات ؛ فكثيرٌ من المدلولات العلميَّة لا تُوجد الصيغ اللفظيَّة لها ؛ وبعض المدلولات تُوجد لها صيغٌ ؛ إما ضعيفةٌ أو غير صالحةٍ ؛ كما أنه تُوجد في بعض الأحايين صيغٌ مُتعدِّدةٌ للمدلول الواحد ؛ مما يُؤدِّي إلى نوعٍ من الفوضى في أدبنا العلميِّ ؛ يجب علينا تلافيها .

والطريقة المُثلى للتقدُّم ـ تكون بتأليف لجانٍ من الأخصائيين ؛ لمُراجعة المُؤلَّفات الموجودة ؛ وتهذيبها ؛ والعمل على تجانسها ؛ كما تكون بتكليف القادرين منَّا وتشجيعهم فُرادى ومُجتمعين على وضع المُؤلَّفات في مُختلف الفروع العلميَّة ؛ حتى تتألَّف لنا ثروةٌ من الأدب العلميِّ ؛ يصحُّ أن يعتمد عليها عُلماء اللُّغة في استخلاص المُصطلحات والعبارات العلميَّة في لغتنا الحديثة وتحديد معانيها ومدلولاتها بمعاونة العُلماء الأخصائيين في ذلك .

ويجب أن أذكر بهذه المناسبة : أن من العبث أن يُحاول عُلماء اللُّغة وضع المُصطلحات العلميَّة وضعاً قبل ورودها في المُؤلَّفات العلمية وشيوع استعمالها ؛ فإن ذلك يكون من باب التسرُّع وقلب النظام الطبيعيِّ لتطور اللغة !! ؛ وهو في الغالب مجهودٌ أكثره ضائعٌ ؛ إذ لا يُمكن التنبؤ بما إذا كان

مُصطلحٌ من المُصطلحات سيبقى ويدخل في صُلب اللُّغة ؛ أو سيموت ويحُلُّ غيره مَحَلَّهُ .

بقيت نُقطةٌ أُريد أن أتعرَّض لها ـ وهي العلاقة بين المُصطلحات العربيَّة ومُصطلحات اللُّغات الحيَّة الأُخرى :

ففي رأيي : أنه من الجائز استعمال مُصطلحٍ أجنبيٍّ في لُغتنا ـ بعد تحويره ليتفق مع ذوق اللُّغة وأوزانها ـ بشرط : أن يكون هذا اللفظ مُستعملاً في جميع اللُّغات العلميَّة الأُخرى أو في مُعظمها ؛ ومثل هذه الألفاظ تكون في الغالب مُشتقَّةً من أصلٍ إغريقيٍّ أو لاتينيٍّ ؛ لا جُناح علينا نحن إذا اشتققنا منه كما اشتق غيرنا .

أما الألفاظ الأجنبيَّة المقصورة على لُغةٍ واحدةٍ أو لغتين : فرأيي أن يكون له عندنا لفظٌ عربيٌّ مُرتبطٌ بأدبنا وتفكيرنا .



.....

✿ - مَهْجُورُ اللُّغَـةِ

الأُسْتَاذ مُحَمَّـد فَهْمِي عَبْدُ اللَّطِيف

.....

رُوِيَ: أنَّ ابن زيدون قام على جنازة بعض حرمه؛ والناس يُعزُّونه على اختلاف طبقاتهم؛ فما سُمِعَ يجُيب أحداً بما أجاب به غيره !!.

قال الصلاح الصفديُّ: وأقلُّ ما كان في تلك الجنازة ألفُ رئيسٍ ممَّن يتعيَّنُ عليه أن يشكر له؛ فيحتاج في هذا المقام إلى ألف عبارةٍ مضمونها الشُّكر !!.

وورد أنَّ ابن نُباتة - الخطيبُ المصريُّ - أملى مُجَلَّدةً معناها من أوَّلها إلى آخرها: ((أَيُّهَا النَّـاسُ !! ؛ اتَّقُوا اللهَ؛ وَاحْـذَرُوهُ؛ فَإِنَّـكُم إِلَيْـهِ تُرْجَعُون)) !!.

وكان الحريريُّ - صاحب المقامات - كُلَّمَا جمع بين الحارث بن همَّام وأبي زيد السروجيِّ؛ وأراد أن يُفرِّق بينهما بقوله ((فَلَمَّـا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ)) - أتى بعبارةٍ تُغايرها لفظاً في كُلِّ مقامةٍ !!.

وليس في هذا كُلِّهِ ما يدعو إلى الغرابة - وإن دَلَّ على البـراعة -: فإنَّ اللُّغة العربيَّة تمتاز في سائر اللُّغات: بكثرة الترادُف في الألفاظ؛ والتعدُّد في الصيغ - يذكرون أن للخمر فيها مائتي اسمٍ !!؛ وللجمـل خمسمائة !!؛ وللسيف

---

(١) - مجلّة ((الرِّسَـالة))؛ العـدد: ٤١ - بتاريخ: ١٦ - ٤ - ١٩٣٤ .

ألفاً !! ؛ وهذا مما يُساعد الكُتَّاب على التوسُّع في العبارة ؛ ويُعينُهم على التفنُّن في أساليب الكلام ؛ ولكن العجز قعد بكُتَّابنا عن أن يحفظوا على اللُّغة هذه الميزة ؛ وأن ينتفعوا بها في كتاباتهم ؛ فهم يُصيغون عباراتهم على نمطٍ واحدٍ !! ؛ ويجرون في أساليبهم على طريقةٍ مُتَّفقةٍ !! ؛ وتجدهم يستعملون ألفاظاً محدودةً !! ؛ وأبنيةً مُتكرِّرةً !! ؛ ويميلون إلى الترهُّل واللين !! ـ حتى أصبحت ثروتنا اللُّغويَّة يكتنفها الإبهام والغموض !! ؛ وأصبحت أساليبنا في الكتابة ضعيفةً واهيةً ؛ لا تلمح فيها أثراً للفنِّ والجمال !! .

وكُتَّابُنا معذورون في هذا ـ ما داموا لا يشتغلون بمتن اللُّغة ؛ فقلَّ منهم من يهتمُّ بكتابٍ اسمه « القاموس » أو « اللسان » أو « أساس البلاغة » !! وقلَّ منهم من يعرف شيئاً اسمه « فصيح ثعلب » أو « فقه اللُّغة » ؛ أو غير ذلك من كُتب اللُّغة !! ؛ يكتفي الواحد منهم بأخذ لُغته من الصُّحُف والمجلَّات !! ؛ وبمعرفة جُمَلٍ من الألفاظ من نوع « فحسب ؛ ومهما يكُن من شيءٍ » ؛ ليجعل نفسه في عداد الكُتَّاب !! ؛ ثم لا يستحي من اتهام اللُّغة العربيَّة بالعُقم وَنُضُوب المادة ورميها بالتأخُّر والقُصُور !! .

أنا لا أرجو من الكُتَّاب أن يترسَّمُوا طريق ابن زيدون في كتابته ؛ ولا أن يذهبوا مذهب ابن نُباتة في أسلوبه ؛ ولا أن ينهجوا منهج الحريريِّ في سجعه وتكلُّفه ـ إنما أدعوهم إلى التمكُّن من فقه اللغة ومتنها ؛ والارتفاع بالقواميس والمعاجم ـ فإن هذا مما يُساعدهم على تلوين الخطاب وإحياء كَلِم اللغة الميِّتة ؛ فكم في لُغتنا من الألفاظ مهجورةً !! ؛ وكم في قواميسنا من مُفرداتٍ

مُهملةٍ !! ؛ مع أنها تصلح للاستعمال والتداول على أسلات الأقلام !! ؛ فمثلا كلمة « يتمعَّج » بمعنى : يلتوي ويتثنَّى ـ لا تجد الكُتَّاب يستعملونها ؛ مع أنها سهلة النُّطق والرَّسْم !! ؛ وقد تكون أولى من مُرادفاتها في الاستعمال !! ؛ ومثلها كلمة « يعمس في الأمر » بمعنى : يتجاهله ويتغافل عنه ؛ إلى غير ذلك من الكلمات التي نحن في حاجةٍ إلى إيحائها ؛ والتي في تداولها تغزيزٌ لمادة الكُتَّاب .

وإحياء مهجور اللُّغة معناه : أن تستعمل كُلّ كلمةٍ غريبةٍ مجهولةٍ ؛ وأن تُجريها على أيِّ وجهٍ كان ؛ وتُدرجُها في أيِّ عبارةٍ كانت ؛ وإنَّ هذا مقامٌ يحتاج إلى البراعة والدقّة .

وورد عن ابن شُهَيْدٍ الأندلُسيِّ ؛ أنه قال :

« جلس إليَّ يوماً يوسف الإسرائيليُّ ـ وكان أفهم تلميذٍ مرَّ بي ـ وأنا أُوصي رَجُلا عزيزاً عليَّ من أهل قُرطبة ؛ وأقول له : إن للحروف أنسابٌ وقراباتٌ تبدو في الكلام ؛ فإذا جاور النسيب النسيب ؛ ومازج القريب القريب ـ طابت الأُلفة ؛ وحسُنت الصُّحبة ؛ وإذا رُكِّبَت صُور الكلام من تلك ـ حسُنت المناظر ؛ وطابت المخابر ؛ أفهمت ؟ ؛ قال : إي والله !! ؛ قُلْتُ له : وللعربيَّة إذا طلبت ؛ وللفصاحة إذا التمست : قوانين من الكلام ـــ من طلب بها أدرك ؛ ومن نَكِبَ عنها قصَّر !! ؛ أفهمت ؟ ؛ قالَ : نعم ؛ قُلْتُ : وكما تختار مليح اللفظ ورشيق الكلام ـ فكذلك يجب أن تختار مليح النحو وفصيح الغريب ؛ وتهرب من قبيحه ؛ قالَ : أجل ؛ قُلْتُ : أتفهم شيئاً من عيون

كلام القائل:

لعمرُك إني يوم بانوا فلم أمُت
خفاتاً على آثارهم لصبُورُ
غداة التقينا إذ رميتُ بنظرةٍ
ونحن على متن الطريق نسيرُ
ففاضت دُمُوع العين حتى كأنها
لناظرها غُصنٌ يُراحُ مطيرُ

فقالَ: إي والله !! ؛ وقعت (خفاتاً) موقعاً لذيذاً !! ؛ وَوُضِعَت (رميت) و (متن الطريق) موضعاً مليحاً !! ؛ وسرى (غُصنٌ يُراحُ مطيرُ) مسرىً لطيفاً !! ؛ فقُلْتُ له: أرجو أنَّك تنسَّمت شيئاً من نسيم الفهم !! ؛ فاغد عليَّ بشيءٍ تصنعه » إلخ .

وفي هذه الحكاية يشرح لنا ابن شُهيد: كيف يكون استعمال الغريب وإحياء المهجور من الألفاظ - فيرى أن تُختار الكلمات الصالحة ؛ وأن يُراعى في وضعها القرابة والنسب ؛ حتى تحسُنَ الصُّحبة وتطيب الأُلفة - وهو رأيٌ صحيحٌ ؛ ولكنه يحتاج في تنفيذه - كما قُلنا - إلى البراعة والدقَّة .

فلعلَّ الكُتَّاب يستجيبون لدعوتنا ؛ ولعلهم يُراعون هذا في كتاباتهم - فيكونوا قد برُّوا بلغتهم وخدموا أساليبهم .



.....

۞ - المُثَنَّيَات فِي اللُّغَـةِ وَالأَدَب

لِلأُستَاذ مُحَمَّـد شَفِيق

.....

إِنَّ من خصائص اللُّغة العربيَّة التي امتازت بها على غيرها من اللُّغات الحيَّة - هذه المُثنَّيات ؛ وقلَّما يخلو علمٌ من علوم لُغة الضاد من مُثنَّياتٍ ؛ إن قليلةً أو كثيرةً ؛ وقد رأيت أن أُقدِّم إلى قُرَّاء « الرسالة » الغرَّاء أمثلةً منها مُرتَّبةً على العلوم ؛ مُبتدئاً بالأدب واللغة ؛ لشدَّة علاقتهما بـ « الرسالة » ؛ وإن كانت هي حفيَّةً بالثقافات الإسلاميَّة والعربيَّة وغيرها :

- المُثنَّيات في اللُّغة والأدب :

« الأبردان » : الغداة والعشيّ ؛ والظل والفيء ؛ وفي « الصحاح » : الأبردان : العصران .

« الأبيضان » : اللبن والماء ؛ أو الشحم واللبن ؛ أو الشحم والبياض ؛ أو الخبز والماء ؛ أو الحنطة والماء ؛ أو الملح والخبز ؛ قال الشاعر :

ولكنه يأتي إلى الحول كاملاً

ومالِيَ إلا الأبيضينِ شَرَابُ

---

(١) - مجلَّة « الرِّسَالة » ؛ العدد : ١١١ - بتاريخ : ١٩-٨-١٩٣٥ .

« الأجدّان » : الليل والنهار ؛ وكذلك الجديدان ؛ والدائبان ؛ والطريدان ؛ والعصران ؛ والملوان ؛ والأحدثان ؛ والأصرمان .

« الأحمران » : الخمر واللحم ؛ وفي المثل : « أفسدَ الناسَ الأحمران » ؛ قال الشاعر :

إنَّ الأحامرة الثلاثةَ أهلكتْ
مالي ؛ وكُنْتُ بهنَّ قِدْمَاً مُولعا
الرَّاح واللحم السمين وأطَّلي
بالزعفران ؛ فلا أزال مُوَلَّعَا

« الأخضران » : النباتان القريب والبعيد ؛ لأن القريب أخضر حقيقةً ؛ والبعيد ـ كما قالوا ـ أسود ؛ والأسود عند العرب أخضر ؛ يُقال : فُلانٌ أحرق الأخضرين : يُراد المُبالغة في ظُلمه وتعدِّيه ؛ كأنه يُوصل الشَّرَّ إلى القريب والبعيد .

وقيل الأخضران : النبات والإنسان من العرب ؛ قال الفضل بن العبَّاس :

وأنا الأخضرُ من يعرفني
أخضر الجلدة من نسل العربْ

« الأصرمان » : الذئب والغُراب ؛ لأنهما انصرما عن الناس ؛ أي : انقطعا ؛ قال :

ومَوماةٌ يحارُ الطرفُ فيها
إذا امتنعت علاها الأصرمانُ

« الأعميان » : والسيل والحريق ؛ والسيل والليل ؛ والسيل والجمل الهائج : لأنها لا تتقي موضعاً ولا تتجنب شيئاً !! ؛ كالأعمى الذي لا يدري أين يسلك ؛ فهو يمشي حيث ذهبت رجله .

« البازيان » : الأعشى وجرير

كان أبو عمرو بن العلاء يقول :

الأعشى وجرير بازيان يصيدان ما بين العندليب إلى الكركي .

« البردان » : الغداة والعشي

قال ابن خالويه : حدَّثنا ابن دُريد ؛ عن أبي حاتم ؛ عن الأصمعيِّ ؛ قال : دعا أعرابيٌّ لِرَجُلٍ ؛ فقال : أذاقك الله البردين - يعني برد الغنى ؛ وبرد العافية - وأماط عنك الأَمَرَّيْن - يعني مرارة الفقر ؛ ومرارة العُري - ؛ ووقاك شرَّ الأجوفين - يعني فرجه وبطنه - .

« الحكيمان » : أبو تمَّام والمُتنبِّي

سُئِلَ أبو العلاء عنهما وعن البُحتريِّ ؟ ؛ فقال : هُما حكيمان ؛ والشاعر البُحتريُّ .

كأنه يُريد أنهما ينتزعان المعاني من كلام الحُكماء ويراعيان الصناعات الشعريَّة التي أحدثها المُتأخِّرُون ؛ وأما البُحتريُّ فإنه يجري على عادة العرب في ترك التكلُّف واختراع المعاني .

« الخالدان » : هما خالد بن نضلة بن الأشتر بن جحوان ؛ وخالد بن قيس ابن المضلل بن مالك

قال الشاعر:

فقبليَ مات الخالدانِ كلاهما

عميدُ بني جحوان وابن المضللِ

« الخالديَّان »: هما أبو بكر وأبو عثمان ابنا هاشم؛ الشاعران المشهوران

قال الصابي:

أرى الشاعرين الخالديين نشَّرا

قصائدَ يفنَى الدهرُ وهي تُقَيَّدُ

؛تنازع قومٌ فيهما وتناقضوا

... ؛ومَرَّ جدالٌ بينهم وتردُّدُ

فطائفةٌ قالتْ: سعيدٌ مُقدَّمٌ

وطائفةٌ قالت لهم: بل محمدُ

وصار إلى حُكمي فأصلحتُ بينهم

؛وما قُلتُ إلا بالتي هي أرشدُ

هما لاجتماع الفضل رُوحٌ مُؤلَّفٌ

ومعناهما من حيثُ ألفيت مُفردُ

كما فرقدا الظلماء لمَّا تشاكلا

علاءً؛أشكا ذاك أم ذاك أمجدُ

؛فزوجهما ما مثله في اتفاقه

وفردهما بين الكواكب أوحدُ

فقـامُوا على صُلحٍ وقام جميعهم
رضيّاً وساوى فرقدَ الأرض فرقدُ

« الصادان » : هما الصاحب بن عبَّاد والصابي

قال أبو الحسن البنداريُّ : أكتب أهل العصر الصادان

« الجرادتان » : هما قينتا معاوية بن بكر أحد العماليق ؛ واسمهما : بعاد ؛ وثماد ؛ وبهما ضُـرِبَ المثل : « ألحـن مـن الجـرادتـين »

« رهـين المحبسين » : هو أبو العلاء المعرِّي ؛ سمَّى نفسه بذلك وكان لزم بيته فلم يخرج منه مُطلقاً !! ؛ فأراد بأحد المحبسين : البيت ؛ وبالآخر : العمى .

« ملكا الشُّعراء » : هما امرؤ القيس وأبو فراس الحمدانيُّ

قال الصاحب بن عبَّـاد : بُـدِئَ الشعر بملك وختم بملك ـ يعني امرأ القيس وأبا فراس ـ .



.....

۞ - فِي اللُّغَـةِ وَالأَلْفَاظ
الدَّعْوَةُ إِلَى اخْتِصَارِهَا لِتَسْهِيلِهَا

الأُسْتَاذ

إِبْرَاهِيم عَبْدُ القَادِرِ المَازِنِىُّ

.....

اللُّغة تتبع الدولة ؛ وتسير في ظلّها ؛ ولا سبيل إلى انتشار لُغةٍ يُغلب أهلها على أمرهم ؛ ويعيدٌ أن تُصدَّ عن الذيوع لُغةٌ يتسع سُلطان أبنائها وتنبسط رُقعة مُلكهم أو نُفُوذهم ؛ ولا عبرة في هذا الأمر بما في اللُّغة نفسها من سُهُولةٍ أو عُسْرٍ في التحصيل ؛ والمُعَوَّلُ على القوة والسُّلطان ؛ لا على أن اللغة قريبة المنال أو بعيدته ؛ ويسيرة المطلب أو عميقة المغاص ؛ وقد استطاعت اللغة الإنجليزيّة أن تنتشر في الأرض ؛ وأن تنفذ إلى مجاهلها ؛ وأن تُزحزح الفرنسيّة ؛ وتحطّمها عن عرشها - لأن سُلطان هذه الدولة امتدَّ شرقاً وغرباً ؛ وليست الإنجليزيّة أسهل من الفرنسيّة أو العربيّة ؛ ولكن قُوَّة أهلها أكبر ؛ ونشاطهم أعظم ؛ وهذه « الإسبرانتو » التي اخترعوها لتكون اللُّغة المُشتركة بين الأُمم ماذا كان مآلها ؟!! ؛ يعرفها آحادٌ راقتهم الفكرة ؛ ولا يعبأ

---

(١) - مجلّة « الرِّسَالة » ؛ العدد: ١١٤ - بتاريخ: ٩ - ٩ - ١٩٣٥ .

بها أحدٌ فيما عدا هؤلاء النفر القليلين ـ لأنه ليس وراءها ولا قُدَّامها دولةٌ لها سطوة ؛ وفي الهند لُغاتٌ لا رجاء لإحداها حتى في أن تصبح لُغة الهند كُلِّها ما دامت إنجلترا تحكمها ؛ وفي مصر جاليةٌ أجنبيَّةٌ ليس أنشط منها ولا أكثر عدداً : هي الجالية اليونانيَّة ؛ ولكنه يندر أن يعني مصريٌّ بتعلُّم لُغتها ؛ على حين نتعلَّم الإنجليزيَّة في مدارسنا ونعُدُّها لُغتنا الثانية .

ولا آخر لما يُمكن أن نضربه من الأمثال ونسوقه من الشواهد ـ فحسبنا هذا القدر ؛ فالذين يقولون إن المستر « إوجدن » قد تخيَّر من اللُّغة الإنجليزيَّة خمسين وثمانمائة لفظٍ رآها كافيةً وافيةً بحاجات التعبير كلها ؛ وأن مثل هذا الاختصار أو الاختزال ميسورٌ في اللغة العربية ؛ وأنه يُعين على نشر اللغة ؛ ويُفضي إلى ذيوعها ؛ ويُتيح لها أن تُصبح « عالميَّة » ؛ أقول : إن الذين يذهبون هذا المذهب ؛ ويُفكِّرون على هذا النحو ؛ يغلطون ويقلبون المسألة ؛ وذلك أن هذه الألفاظ الثمانمائة ليست الإنجليزية ؛ ولا فيها لأبنائها وعُلمائها وكُتَّابها وساستها أيُّ كفايةٍ !! ؛ وإنما هي حسب الأجنبي الذي يريد أن يتَّصل بأهلها اتصال تجارةٍ أو ما هو من هذا بسبيل ؛ وقد ابتكر المستر إوجدن هذه الوسيلة ليُمكِّن للغته ويزيدها ذيوعاً ؛ لا لينشرها ؛ فقد تكفَّلت بنشرها الإمبراطوريَّة الطويلة العريضة من قبل أن يخلق المستر إوجدن ؛ ولو أنك عمدت إلى مثل ذلك في لُغة الفُرس أو إحدى لُغات البلقان الكثيرة ـ لما أجدى ذلك شيئاً ؛ ولما جاوز بها هذا التسهيل صبغتها المحليَّة !! .

وشيءٌ آخرٌ يغلط فيه أصحابنا الذين افتتنوا بالتسهيل ـ ذلك أن السهولة

مرجعها إلى العقل ؛ لا إلى الألفاظ ـ فلو أنك قصرت اللغة على ثمانين لفظاً ـ لا ثمانمائة ـ ؛ لما اختلف الحال ؛ ولبقيت المسألة حيث كانت ـ لأن المُعوَّل في التعبير على الكاتب ؛ وليس على عدد الألفاظ ؛ وما من كاتبٍ أو شاعرٍ في الدُّنيا يستعمل كُلَّ ما في لُغته من كلمات ؛ والسهولة مَرَدُّهَا إلى أمورٍ لا علاقة لها باللفظ في ذاته ومن حيث هو ؛ منها : أن يكون المعنى الذي يلتمس المرء العبارة عنه واضحاً في الذهن ؛ ومنها : أن يُحسن الكاتب بعد ذلك انتقاء الألفاظ التي يُؤدِّي بها المعاني ؛ وكثيراً ما يحدث أن يكون المعنى غائماً أو غامضاً ؛ أو غير واضحٍ على العموم في ذهن المرء ؛ فيحاول العبارة عنه قبل أن يُدركه هو نفسه أو يُحِيط به ؛ فيجئ الكلام مُضطرباً غير مفهوم ؛ لأنه لا سبيل إلى البيان إلا بعد أن يعرف المرء ماذا يريد أن يقول ؛ وقد يكون المرء عارفاً بما في نفسه ؛ مُدركاً للمعاني الدائرة فيها ؛ ولكنه لا يعرف كيف يُعبِّر عنها ويُبرزها في صورةٍ واضحةٍ ؛ فيُسئ الأداء ؛ وإن كان قد أحسن التفكير ؛ ويُقصِّر في العبارة ؛ وإن لم يُقصِّر في فهم ما يرد على خاطره ويتمثَّل له من الخوالج .

وفي وسعي أن أكتب لك سُطُوراً ليس فيها كلمةٌ واحدةٌ غير مألوفةٍ ؛ أو لا يعرفها العامَّة والأُميُّون ـ ومع ذلك لا يستطيع أن يفهمها أحدٌ !! .

وفي مقدوري كذلك أن أُعبِّر عن أدقِّ الإحساسات وأعمق المعاني وأعوصها تعبيراً يحمل القارئ على الظنِّ بأن هذه كلها من البدائه ــ لأن العبرة ـ كما قُلْتُ ـ ليست بالألفاظ ؛ ولا بكونها غريبةً أو مألوفةً ؛ وحوشيَّةً

أو مأنوسةً ـ بل بالكاتب نفسه ؛ أي : بوضوح المعنى الذي في رأسه أو غموضه ؛ وبقُدرته على أدائه أو عجزه عن ذلك .

وقد يتفق لك أن تُحادث رَجُلاً عامياً لا يقرأ ولا يكتب ؛ فتسمع منه كلاماً كالتخليط أو الهذيان ؛ لا تستطيع أن تتبيَّن منه مُراده !! ؛ فهذا العاميُّ الأميُّ لم يرجع إلى الغريب من ألفاظ اللُّغة ؛ ولم يستعمل المهجور والدارس منها ؛ وإنما استعمل ألفاظاً يعرفها الأطفال والباعة والجهلة والمُتعلِّمُون ؛ ومع ذلك أعياك أن تفهم كلامه !! .

فلو أن الألفاظ هي التي يرجع إليها أمر الغموض أو البيان ؛ والصعوبة أو السهولة ـ لوجب أن تفهم عنه ؛ ولما كُنْتَ معذوراً إذا لم تفهم ؛ فلا قيمة إذن لعدد الألفاظ التي في اللغة ؛ ولتكن ألفاً لا أكثر ؛ أو مائة ألف ؛ أو أقل من ذلك أو أكثر ـ فلن يختلف الأمر في الحالتين ؛ والأمر من حيث الأداء في اللغة مثله في التصوير ـ ذلك أن الألوان التي يستعملها المُصوِّرُ قليلة العدد جدًّا ؛ وهي أداة المُصوِّرين جميعاً ؛ كما أن الألفاظ أداة الكُتَّاب .

ولسنا نظُنُّ أن أحداً سيزعم أن قِلَّةَ الألوان التي يستخدمها المُصوِّرُ جعلت التصوير أسهل ؛ وما من مُصوِّرٍ إلا وهو عارفٌ بالألوان ؛ وكيف يستعملها ؛ وكيف يُزاوج بينها ؛ ومع ذلك يجئ آخرٌ بغير شيء ؛ ولا نحتاج أن نقول : إن الألوان لا ذنب لها ؛ وإن المُصوِّر نفسه هو الذي يستطيع أن يُؤدِّي بها ما أراد أن يُبرزه أو يُثبته أو يدُلَّ عليه أو يرمز له ؛ وكذلك في الكتابة : لا ذنب للألفاظ ـ فإنها ـ وهي مفردة ـ لا تؤدي شيئاً ؛ ولا فرق بينها ؛ ولا فضل

لواحدةٍ على واحدةٍ ؛ وإنما تصير كلاماً بعد أن يُحدث فيها الكاتب نظماً - أي بعد أن يُؤلِّف بينها - ؛ كذلك الألوان ليست هي الصُّورة ؛ وإنما تُصبح صُورةً بعد المزج والمُزاوجة والتأليف .

وسواءٌ أقلَّت الألفاظ المُستعملة أم كثُرت - فسيظلُّ هُناك كُتَّابٌ مُشرقون واضحون ؛ يسهل ورود كلامهم ويحسُنُ وقعه ؛ وآخرون غامضون أو معوصون ؛ يُحطِّمُون رُؤوس القُرَّاء لأنهم يكتبون قبل أن يتبنوا ما في نفوسهم من الخواطر أو الإحساسات !! ؛ أو لأنهم لم يُرزقوا القُدرة على الأداء الحسن الواضح ؛ أو لأن في أسلوب تفكيرهم إلتواء ؛ أو لأن في طريقة تناولهم للموضوع عِوَجاً ؛ أو لغير ذلك من الأسباب الراجعة - في مَرَدِّ أمرها - إلى المرء نفسه لا إلى الألفاظ .

ولو كان الأمر رهناً باللفظ وحده - لهان الخطب ؛ وما على الإنسان حينئذٍ إلا أن يفتح مُعجماً إذا اعترضه لفظٌ غريب .

وعلى أن الواقع أن عدد الكلمات التي يستعملها الكُتَّاب - قليل جدًّاً إذا قيس إلى ما في اللغة ؛ وهو لا يزيد على بضع مئات ؛ ومن هذه المئات القليلة يُحدث كُلُّ كاتبٍ أو شاعرٍ آلافاً من الصور ؛ وبها يؤدي ما لا يستطيع أن يحسبه الحاسب من المعاني والخواطر والإحساسات !! ؛ كما يستطيع المصور - ببضعة ألوان - أن يرسم مئات من الصور لا تُشبه واحدةٌ منها أُختها - فلا معنى إذن لهذه الضجَّة التي يُثيرها بعض إخواننا الكُتَّاب ؛ حول : « اللغة : ووجوب الاقتصار على المألوف من ألفاظها ؛ وهجر المهجور منها » -

لأن هذا حاصلٌ من تلقاء نفسه ؛ والكاتب الذي يُؤثر الإغراب ويلجأ إلى الميِّت والدارس من الألفاظ ـ يجني على نفسه بذلك !! ؛ وكثيراً ما يحدث أن يضطر أمثاله إلى تنكُّب هذا الطريق الأعوج ؛ والرُّجُوع إلى النهج المُستقيم .

وبعد ـ فإنه لا يصحُّ أن يُقال : إن لُغةً من اللُّغات عيبها كثرة ألفاظها ؛ فان الألفاظ تنشأ وتحيا وتموت على حسب الحاجة ؛ والناس لا يشتقونها أو ينحتونها أو يضعونها أو يستعيرونها من اللُّغات الأُخرى للترف ؛ بل للضرورة في وقتها ؛ وللألفاظ حياتها كما للناس ؛ وهي ـ مثلهم ـ أجيال ؛ حتى معانيها تتطور على الأيَّام ؛ ويجري عليها من الحظوظ ما يجري على كُلِّ كائنٍ حيٍّ .

وإنما الذي يصحُّ أن يُقال ؛ والذي يُقبل من قائله : هو أننا نُسيء تعليم لُغتنا ؛ ونجعلها بسُوء طريقتنا في تعليمها وبتقصيرنا في حقِّها ـ أعوص مطلباً مما هي في الحقيقة !! ؛ وأشق في التحصيل على أبنائها ـ فضلاً عن الغُرباء ـ من اللُّغات الأجنبيَّة التي أحسن أهلها القيام على خدمتها وذلَّلوا لطُلاَّبها ما فيها من صُعُوباتٍ لا تخلو منها لُغةٌ !! .

وما عدا ذلك خلطٌ لا قيمة له !! .



.....

✿ ـ قَضِيَّةُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ

الأُسْتَاذ

أَحْمَد خَاكِي

ـ ١ ـ

.....

١ـ التَّقَدُّمُ وَاللُّغَة :

يذهب الجمهرة من المُربِّين في العصر الحديث : إلى أن الغاية من التربية ينبغي أن ترمي إلى تدريب الطفل على أكثر أنواع المهارة التي تتطلَّبُها حياته الحاضرة والمُستقبلة ؛ والتي تقتضيها الحضارة وطلب الرزق .

بل لقد آمن الكثير منهم : بأن الحضارة في نفسها تقوم على المهارة فحسب ؛ وأن العصر الحالي يمتاز فيما يمتاز به بتلك الوجهة الآليَّة التي تُلزمنا بها حاجات الحياة ؛ وأن التقدُّم رهينٌ بما تُحسنه الجماعة من أنواع المهارة ؛ وأننا لن نبلغ المثل الأعلى الذي يحدونا إلى التقدُّم حتى نُتقن أكبر عددٍ منها .

ويذهب أصحاب اللُّغات إلى هذا الرأي فيما يتصل بتعليمها ـ فقد أمَّن

---

(١) ـ مجلَّة « الرِّسَالة » ؛ العدد : ٢٤٨ ـ بتاريخ : ٤ ـ ٤ ـ ١٩٣٨ .

هؤلاء على كل ذلك ؛ وزادوا عليه : أن تعليم اللغات هو في نفسه ضربٌ من ضروب المهارة التي يجب أن يكسبها المُتعلِّم حتى يُوفِّق بين نفسه وبين البيئة التي يعيش فيها ؛ بل هو لابُدَّ مُرغَمٌ على كسبها إذا هو تطلَّع إلى لونٍ من ألوان الحياة أزهى من ذلك الذي اعتاده آباؤه وأجداده ؛ فاللغة عند هؤلاء شبيهةٌ بالمشي أو الجري أو تناول الطعام أو إحسان الرماية أو الطيران ؛ فهي لا محيص للناشئ من أن يتلقَّنها في بيئته ؛ بل هو مجبولٌ على تلقُّنها ما دام يرى أن حياته تقوم على الاجتماع بسائر الأفراد ؛ وان اتصاله الفكريَّ مع من حوله لا يستقيم إلا إذا تلقَّن لُغتهم كتابةً وقراءةً وحديثاً .

واللُّغة فوق ذلك : مهارةٌ ساميةٌ جديرةٌ بالإحسان ؛ ولأنها تحمل في أطوائها تُراث المدنيَّات التي تحدَّرت إلينا ؛ ولأنها ـ إذا كانت أجنبيَّةً ـ مفتاحٌ لمدنيَّاتٍ أُخرى تغلغلت في تاريخ البشريَّة نفسه ؛ واللغة بعد ذلك دليلٌ على التقدُّم الفكريِّ ؛ لأنها الوسيط الذي تتجسَّد فيه الأفكار والآراء ؛ وليست اللغة من ذلك الوجه إلا رُمُوزاً أُطلقت على المعاني التي تتدفَّع في نفس الإنسان ؛ وهي التي تُسيطر على موارد تلك المعاني ومصادرها ؛ فَكُلُّ كسبٍ لتلك المهارة التي نُسمِّيها « اللُّغة » إنما هو تحديدٌ لغذائنا الفكري ؛ وكُلُّ تحديدٍ لتفكيرنا ؛ إنما هو فتحٌ جديدٌ للمنطق والفلسفة ؛ بل فتحٌ لسائر العلوم .

فإذا كانت اللُّغة تفيض بالمُفردات التي تصف كُلَّ فكرةٍ دقيقةٍ من تلك الأفكار ؛ وإذا كانت ألفاظها قد تطورت مع الحضارة حتى كان كفيلةً بأن تصف المعاني التي تنثال في خواطر المُتحضِّرين ـ كان ذلك دليلاً على كفايتها

في مُسايرة التقدُّم العقليِّ .

وليست قضيَّة اللغة عندنا قضيَّة ألفاظٍ فحسب ؛ ولا هي قضيَّة تراكيب - إنما القضيَّة عندنا في كفاية تلك الألفاظ وهذه التراكيب ؛ فهل استطاعت هذه أن تُساير الحضارة الحديثة ؟ ؛ وهل استطاعت أن تنقل معانيها إلينا ؟ - ذلك ما نشُكُّ فيه !! ؛ ونحن نشُكُّ في شيءٍ آخرٍ غير ذلك - إنه لا يُمكن للغةٍ أن تُساير الحضارة أو الثقافة ؛ إلا إذا كانت مرنةً تتسع لكُلِّ معنىً حديثٍ ؛ وتلك المرونة التي تظهر بجلاءٍ في لغة كالإنجليزيَّة قد فقدت مكانها في لُغةٍ كالعربيَّة ؛ وهي قد فقدت مكانها في لُغاتٍ أُخرى قبل لُغتنا !! - ألأنها قعدت عن أن تُماشي الحضارة في تقدُّمها ؟!! ؛ وأخصُّ ما تمتاز به الإنجليزيَّة : هو ذلك الاستيعاب الذي يظهر في كُلِّ وجهٍ من وجوهها ؛ فهي قد استوعبت ألفاظاً من كُلِّ قُطرٍ حلَّت فيه فئةٌ من الإنجليز ؛ وألفاظها تواتي المُتحدِّث بها في كُلِّ موضوعٍ يطرق ؛ لكننا نتشكَّك كثيراً فيما إذا كانت العربية والإنجليزية سواء !! ؛ فالعربية غير مرنةٍ ؛ وهي لُغةٌ تقليديَّةٌ تتولَّد عن الألفاظ الدخيلة ؛ وقد بدأت تُساير الحضارة الحديثة مُنْذُ وقتٍ قليلٍ لما يكف لتغذيتها بألفاظٍ تُطلق على المعاني التي تجُدَّد في كُلِّ ساعةٍ من ساعات الحضارة .

لم يكُن لنا أن نذكر كُلَّ ذلك - لولا أننا نُؤمن بأن في اللغة استعداداً لقبول كثيرٍ من الإصلاح ؛ ولعلَّ أفضل إصلاحٍ للغة : أن نبدأ بتفهُّم طُرُق التدريس التي من شأنها أن تجعل اللغة لُغة أفكارٍ ومعانٍ قبل أن تكون لغة ألفاظٍ ومُفردات ؛ وتفهُّم طُرُق التربية التي تكسبها مرونة اللغات الأُخرى .

ويستطيع المُعلِّمُون أن يتغلَّبوا على تلك العقبات التي يلقُونها ـ إذا هم وجدوا أُمَّةً من أهل الرأي ؛ تجُاهد معهم في هذا السبيل .

على أننا سوف نكتفي في مقالنا هذا بذكر وجهٍ آخرٍ من علاقة اللغات ؛ ثم بتحديد أغراضنا من دراستها ؛ وسوف نعالج في مقالٍ آخرٍ الوسائل التي نراها .

.....

٢ ـ وُحْدَةِ اللُّغَـةِ :

وفي كُلِّ الذي أسلفنا أكثر من دليلٍ على أن عنايتنا بالغةٌ ينبغي أن تحُلَّ عندنا المكانة الأولى بين مخُتلف المواد التي نعلمها ؛ فهي حقيقةٌ بالتقدير إذا تحدَّثنا عن أيِّ مثلٍ أعلى عالميٍّ ؛ وفي دراستها توحيدٌ للمعنى السامي الذي ما زال يلعب بخيال الإنسانيَّة ؛ والتقدُّم الفكريُّ رهينٌ بالتقدُّم اللغويِّ ؛ ولأن اللغة أساسٌ صالـحٌ لتلك المواد ؛ ولأنها تتحكَّم في تلقينها وفي تلقُّنها ؛ فإنا نرى : أن إصلاح التعليم في مـصر رهـينٌ بإصـلاح أسـاليبنا في تعليم اللغـة العربية ؛ وفي تغيُّر وجهتنا فيما يختصُّ بالأغراض التي نرمي إليها ؛ بل اللغة العربية مُتَّصلةٌ وثيق الاتصال باللغات الأجنبية التي نعلمها اتصالها بتعليم المواد الأخرى ؛ وإذا نحن نظرنا إلى تلك المواد نظرتنا إلى مجموعاتٍ مُتوافقةٍ من الأفكار والمعاني ـ استطعنا أن نرى كيف تحُدِّد اللغـة تفكيرنـا ؛ وكيف تواتينـا المقـدرة علـى تفهُّـم تلـك المـواد إذا كانـت اللغـة مهـارةً مكـسوبةً أحسناها ؛ فاللغة في مُفرداتها وصيغها تكون وحدةً عامَّةً مُتَّصلة الحلقات

مُشتبكة الأطراف ؛ وهي في نفسها نتيجةٌ لنماء العقل ونشاط التفكير .

وليست مُفردات اللغة - كما قدَّمنا - إلا رموزاً للأفكار التي يلتفُّ بعضها حول بعضٍ في حياة الإنسان العقليَّة ؛ والتي تتألَّف حولها كثيرٌ من شعاب الدواعي .

وحين يُدرج الناشئ في السنين الأولى من طفولته ؛ يكسب كثيراً من تلك الأفكار التي يحاول أن يُعبِّر عنه ؛ فما تزال حائرةً تتردَّدُ في نفسه ؛ حتى تستقر في تلك الرموز التي تواضع عليها الناس ؛ وتصبح بعد ذلك مادَّةً للحديث والتفكير والكتابة ؛ وتصبح سبيلاً إلى تفهُّم التاريخ والجغرافية والطبيعة وغير ذلك .

ولعلَّ الطفل في حياته اللغويَّة يُمثِّل الإنسان الأول في كسب اللغة واصطناع ألفاظها - فهو يتدرَّج في تعلُّمها من المحسوسات إلى المعقولات ؛ وهو يُحسن كل الإحسان أسماء المرئيات ؛ لكنه يُعاني غير قليلٍ من الجهد في تفهُّم المعاني ؛ وقد مرَّ الإنسان الأول في مثل عصر الطفولة حينما كان العَالَم نفسه طفلاً ؛ وحين دفعته الحاجة إلى أن يتعلَّم الأسماء كلها ؛ وتعقَّدت اللغة في أطوار الإنسانيَّة ؛ حتى انحدرت إلينا وهي على ما هي عليه من التعمُّق والإغراق ؛ وحتى أصبحت دراستها تقتضي نصيباً كبيراً من الحسِّ المُرهف والتفطُّن الدقيق .

فلُغة الإنسان إذن : وحدةٌ في ذاتها تتألَّف من شتاتٍ من الجزيئات ؛ ولُغته الأصليَّة هي التي صاحبت تكوينه العقليَّ ؛ منها يستمد أفكاره ؛ ومنها يُكوِّن

صُوره العقليَّة ؛ بل هي التي توحي إليه ما توحيه الكلمات من حُبٍّ وبُغضٍ وسُرُورٍ وحُزنٍ ؛ ففي ألفاظها كل المعاني التي تجيش بصدره ؛ وفي أعطافها ما يُحرِّك قلبه ويهُزُّ فؤاده .

ولأن اللغة وحدةٌ في ذاتها ـ تجد بين لُغة الإنسان الأصيلة وبين لغته الدخيلة أو الأجنبية كثيراً من الوشائج والأسباب ؛ فلا يستطيع مُتحدِّثٌ أن يُعالج الكلام عن الثانية إلا إذا بدأ بالأولى ؛ ولا يستطيع مُتعلِّمٌ أن يُقرِّب لُغةً أجنبيَّةً حتى يتخذ الأصيلة عوناً على تفهُّمها ؛ فاللغة الأصيلة هي السِّجِلُّ الذي تتنظم فيه مراحل تفكيره ؛ وهي المرآة التي تنعكس عليها حياته العقليَّة والحسيَّة في وقتٍ معاً .

من أجل ذلك كانت اللغة الدخيلة عالةً في أفكارها ومعانيها على اللغة الأصيلة ؛ وكان حَرِيّاً بها أن تكون كذلك عند الناشئين ؛ فالحقُّ أن الأفكار والمعاني لا تعرف ألفاظاً تحُدُّها في موضعٍ ضيِّقٍ تتقيَّد به ؛ ولأن اللغة الأصيلة نتيجةٌ لتفكير الإنسان ؛ ولأنها ثمرةٌ لتقدُّمه العقليِّ ـ كانت خليقةً أن تكون أساساً لتعليم اللغة الأجنبية ؛ كما كانت الأساس في الدراسات الأُخرى ؛ وخليقةً أن تمتاز بالجلاء والوضوح ؛ وأن يعني بها المُربُّون أول شيءٍ ؛ لأنها تتدخَّل في تعلُّم اللغات الأُخرى ؛ وفي إحسان العلوم ؛ بل في نمو الإنسان وتفكيره .

ولقد ذهب إلى هذا الرأي كثيرٌ من الذين بحثوا دراسة اللغة ؛ وأخرجوه للناس كما لو كان كشفاً من كشوف العلم الحديث ؛ وكانت الجمهرة من

عُلماء التربية يرون مُنْذُ بضع سنين : أن اللغات مُنفصلة ؛ وأن الإنجليزيَّة - مثلاً - لا تستقيم إلا إذا حسبنا تفكير الناشئ عن العربية في دروس الإنجليزيَّة .

وقد كان يشوب ذلك كثيرٌ من الخطأ ؛ فلم يكن يعترف عقل المُتعلِّم بتلك الحدود المفروضة التي ضُرِبَت عليه ؛ وقد كان يخترق تلك الحدود ؛ وكانت اللغة العربية تلتقي بالإنجليزيَّة في تفكير الطفل مهما حاولنا المُباعدة بينهما .

وقام في السنين الأخيرة عُلماءٌ ؛ مثل الدكتور «وست» : صاحب الطريقة المشهورة - يعترفون بتلك الصلة ؛ ويستعينون بها في تعليم الإنجليزية ؛ وحدث على إثر ذلك انقلابٌ سريعٌ في أساليب التعليم عندنا ؛ وغدا للعربية وزنٌ في تعليم الإنجليزيَّة في الستِّ السنوات الدراسية الأولى .

وعندنا : أن موطن الإصلاح الأول هو اللغة العربية ؛ وإصلاحٌ مثل ذلك لن يتناول طرائق التعليم ؛ ولا أساليب الدراسة فحسب - بل لابُدَّ له أن يتأصَّل في مادَّة التفكير التي يتغذَّى بها التلاميذ .

إصلاحٌ مثل هذا سوف تتأثر به الجغرافية والتاريخ والكيمياء والفلسفة والمنطق ؛ وكذلك سوف تستقيم به طُرُق التدريس التي نُجاهد في إدخالها على اللغة الإنجليزيَّة .

ولعلنا لا نغلو كثيراً إذا قُلنا : إنه أساس كُلِّ إصلاحٍ آخرٍ .

.....

٣ - الأَغْرَاضُ مِن تَعْلِيمِ اللُّغَات :

ولأن يكون كلامنا مُحَدَّداً ؛ ولئلا نخلط بين اللغة الأصيلة واللغة الدخيلة ـ نرى أن نُعالج الغرض الذي ينبغي أن نلتزمه في تعلُّم اللغة العربيَّة والغرض الذي ينبغي أن نلتزمه في تعلُّم اللغة الإنجليزيَّة ؛ فإذا كان بين اللغة الأصيلة واللغة الدخيلة مثل تلك الصلات الفكرية ؛ فإن بين الاثنتين فُرُوقاً تُحَدِّدُ السُّبُلَ التي نتخذها في تعليم كُلٍّ منهما ـ فللغة ـ كما قدَّمنا ـ آثارٌ تختلف على حياة الإنسان ؛ لها أثرٌ عقليٌّ عميقٌ ؛ يكاد يحكم نُمُوَّ إدراكه وتطور تفكيره ؛ ولها بعد ذلك أثرٌ حسيٌّ يتَّصل اتصالاً وثيقاً بفكرة الجمال التي يكسبها من الشعر والأدب ؛ ثم إن لها أثراً عمليًّاً أو نفعيًّاً يُغيِّر منه في حياته كأيِّ مهارةٍ أُخرى .

وهذه الأنواع الثلاثة من الآثار هي التي تختلف على مُتعلِّم اللغة إذا أُحسنت تنشئته على الأُصُول النفسيَّة التي جهد في استنتاجها الذين أُوتوا العلم من المُعلِّمين والمُربِّين .

ونحن في حديثنا عن اللُّغات يجب أن نُفرِّق بين هذه الآثار وارتباطها باللغة العربية أو باللغة الأجنبية ـ أما اللغة العربية : فإنه يتمثل فيها كل الآثار التي ذكرنا ؛ لها أثرٌ عقليٌّ يُصاحب الإنسان عند النشأة الأولى ويُلازمه في كُلِّ طورٍ من أطوار حياته ؛ ولها كذلك أثرٌ حسيٌّ بمحضه الشعور بالجمال ويفيض عليه كثيراً من ألوان السرور ؛ ولها أثرٌ ثالثٌ عمليٌّ ؛ لأنهما وسيلة الكتابة والحديث بين الأفراد والجماعات .

أما أثر اللغة الأجنبية عندنا ـ فهو نفعيٌّ ـ أو قُل : عمليٌّ ـ .

حقًّا قد يكون لها أثرٌ عقليٌّ ـ إذ تتدخَّل في تربية الإنسان ونمائه ؛ وقد يكون لها أثرٌ حسيٌّ إذا أحسن تعلُّمها .

ولكنَّ وجهها النفعيَّ أوضح وجوهها ؛ وإنما يتعلَّم المرء اللغة الأجنبية لتكون صلةً بينه وبين فروع المعرفة التي اتَّسعت لها ؛ وحسبُهُ أن يُحسن قراءتها ؛ ولعلَّها تُصبح مادَّةً زاخرةً تُوحي إليه العواطف ؛ وربما أصبح بينها وبين تفكيره صلاتٌ ؛ ولكنها على الحالين لن تُدرك ما تبلغه لغته الأولى التي درج عليها ؛ والتي كانت أقرب إلى عقله وقلبه ووجدانه ـ فاللغة الأصيلة واللغة الدخيلة تختلفان في تقديرنا اختلافاً شاسعاً !! ـ الأولى صاحبة الأثر العقليِّ الذي يدفع بتفكير المُتعلِّم إلى نواحي التقدُّم ؛ والثانية تستمد وجودها كأداةٍ للتفكير من اللغة الأولى ؛ واللغة الأصيلة ذخيرةٌ تتجلَّى فيها آيات الجمال بما في تُراثها من أدبٍ وحكمةٍ ؛ وتنبلج فيها بدائع الشعر بما تتحمَّله من وحيٍ وإلهام .

أما الثانية ـ فلن تبلغ هذا الأثر ؛ إلا إذا أحسنها المُتعلِّم كل الإحسان ؛ وليس يبلغ ذلك إلا الخاصَّة الذين لا يقعون للمُعلِّم في حُسبان ؛ وهي عند كافَّة المُتعلِّمين بعيدةٌ عن نطاق الجمال والإلهام ؛ غير قريبةٍ من مواطن التفكير الدقيق أو جادة التفطُّن والتفصيل .

واللغة الأصيلة واللغة الدخيلة بعد كل ذلك جديرتان أن نُحسنهما قراءةً ومُطالعةً ـ لأن إحسان قراءة الأولى واجبٌ حتمٌ ؛ ولأن قراءة الثانية هو سبيل الاتصال بحضارة أصحابها .

وفيما أسلفنا من حديثٍ عن آثار اللغات مواضعُ نتعرَّف منها الغاية من تعلُّم اللغات كُلٌّ منها على حدة ـ فالمطالعة ـ أو قُل : القراءة المُستوعبة ـ هي الغاية من تعلُّم اللغة الأجنبية ؛ لأن إتقانها هو السبيل إلى فهم ما يُكتب فيها ؛ ولأننا في تعليمنا اللغة الأجنبية نرمي إلى أن نفتح للمُتعلِّم أبواب تلك اللغة حتى يتصل بثقافتها ؛ نحن نتعلم اللغة الإنجليزية لنقرأ مُؤلَّفاتها ؛ ونحن نُحسن الفرنسية لكي نُلِمَّ بحضارة الفرنسيين ؛ وليست الفرنسية ولا الإنجليزية إحداهما ولا كلتاهما بضرورةٍ لازمةٍ لحياتنا العقلية أو لتربيتنا النفسية ؛ وإذن : فيجب أن تدور جهودنا في تعليم إحدى هاتين اللغتين حول تلك الغاية المُثلى : يجب أن تدور حول المُطالعة ؛ لأنها الغاية النفعيَّة التي تحدَّثنا عنها ؛ وليست الكتابة ولا الخطابة ولا تذوُّق الأدب بما فيه من قصصٍ وتمثيلٍ من شأننا في تعليم الإنجليزية ؛ فإذا جاء كُلُّ هؤلاء فإنما يأتي بعد المُطالعة لا قبلها .

أما اللغة الأصيلة ـ وهي العربية عندنا ـ : فينبغي أن تكون الغاية من تعليمها فوق ما ذكرت ؛ إن القراءة جُزءٌ من الغاية التي ننشدها إذ نُعلِّمُها ؛ نحن نُعلِّمُ العربية لنُخرج مُفكِّرين يُحسنون تصور الكلام ويُجيدون التعبير عمَّا في نفوسهم ؛ بل يجب أن نُعلِّمها حتى يتذوقوا التراث الأدبيَّ الذي تزخر به اللغة نفسها ؛ وإذن ـ فدراسة العربية ينبغي أن تكون تدريباً فكريَّاً وتدريباً نفسيَّاً وتدريباً عمليَّاً أيضاً ؛ وتتشعب هذه الأغراض وتتعقَّد ويكون من مظاهرها : الكتابة ؛ والقراءة ؛ والخطابة ؛ ولكُلٍّ من هذه الغايات

أُصُولٌ تمتدُّ إلى أعماق الفكر وتتصل بأطوار النفس .

أما الأغراض التي نرمي إليها اليوم - فهي قاصرةٌ ؛ لأنها تقف عن أن تُدرك كل تلك الغايات .

إن تعليم العربية عندنا يقتصر على تلقين ألفاظٍ غير مُحَدَّدةٍ ؛ وهو يخلو من الرياضة الجماليَّة التي ينبغي أن نرمي إليها ؛ أما وجهتها النفعيَّة - فهي لا تعلو إلى أن تُكافئ حاجات كُلِّ يومٍ فضلاً عن حاجات النفس العميقة ؛ ولا يستطيع مُعلِّمٌ أن يقول أنه يتجه اتجاهاً فكريّـاً في تعليم الألفاظ ؛ ولا أنه يصطنع الدقَّة في تلقينها إلا قليلاً ؛ أغراضنا إذن من تعليم العربية كما تُعلِّمها الآن غير واضحةٍ ؛ وهي في الحقِّ شُعبةٌ من اتجاه الكُتَّاب والمُفكِّرين عندنا عامَّة ؛ ولكننا نُلخِّص الأغراض التي يجب أن تحُلَّ عندنا في التدريب العقليِّ أولاً ؛ وفي الرياضة الجماليَّة الحسيَّة ثانياً ؛ وفي الانتفاع بها ثالثاً .



.....

✿ - قَضِيَّةُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ

الأُسْتَاذ

أَحْمَد خَاكِي

- ٢ -

.....

يرى الكاتب أن اللغة ينبغي أن تكون لُغة معانٍ قبل أن تكون لغة ألفاظ ؛ وأن تعليمها ينبغي أن يرمي إلى ثلاثة أغراض - أولها : التدريب العقليُّ ؛ وثانيها : الخبرة الحسيَّة أو الجماليَّة ؛ وثالثها : الوجهة النفعيَّة .

وهو يبحث في بعض وسائل تعليم اللغة العربية ؛ وينقدها في هذا المقال :

.....

١ - أُصُولٌ نَفْسِيَّةٌ لِتَعْلِيمِ اللُّغَات :

إذا نحن عالجنا الوسائل التي تكفل إدراك الغايات من تعلُّم اللغة العربيَّة - وجدنا أنها شُعبةٌ من الخُطط العامة التي ترسُّمها المُربُّون وعلماء النفس في العصر الحديث ؛ ويسيطر على التربية في هذا العصر مدرستان مُتكافئتان من مدارس الفكر : أولاهما يتزعَّمها فرويد ؛ وثانيتهما كان زعيمها بافلوف -

---

(١) - العدد : ٢٥٠ - بتاريخ : ١٨ - ٤ - ١٩٣٨ .

ويذهب الأولون : إلى أن النفس جماع الغرائز والميول الفطريَّة ؛ وهذه تأتلف في أحيانٍ وتختلف في أحيانٍ أخرى .

ولقد اتجهت التربية في هذا العصر وجهة من يحُاول أن يُنشئ تلك الميول ؛ سواء أكان ذلك بالاستعلاء بها أم بالتهدِّي إليها .

وقامت فلسفة التربية على أساسٍ من تلك الغرائز المُتوافقة المُتناكرة ؛ بل لقد كان فتحاً جديداً في التربية أن أصبح الطفل موضع العناية عند المُربِّين ؛ ولعل روسو وأضرابه من فلاسفة القرن الثامن عشر كانوا أول من نادى بتربية الطفل كطفلٍ ؛ وأول من هيَّأ السبيل للعُلماء المحدثين .

على أن تلك المسألة قد اختلجت بين الفلسفة والأدب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ؛ حتى قام فرويد يُؤصِّل أُصُولها النفسيَّة في السنوات القليلة الماضية ؛ وهنا ظهرت في التربية مبادئ الحُريَّة التي تحُاول أن تُساير ميول الطفل وغرائزه ؛ وذهب المُربُّون يصطنعون وسائل التعليم على هدى تلك المبادئ الحديثة ؛ فأفلحوا في اصطناع الكثير منها فيما يتصل بكُلِّ فروع المعرفة ؛ ومنها اللغات .

والطفل عند هؤلاء عاملٌ كبيرٌ في تربية نفسه ؛ فليس هو جهازاً مُستقبلاً ؛ وليس موقفه سلبيَّاً محضاً ؛ وليس ينعم بتلك القابليَّة التي تستوعب أيَّ شئٍ وكُلَّ شئ من غير أن يكون له من نفسه سُلطانٌ على ما يعلم وما يعمل ؛ وإنما نفسية الطفل عندهم فعَّالةٌ مُؤثِّرةٌ ؛ فهو تتنازعه الهواجس والعواطف والميول ؛ وعلينا نحن أن نبسط له من العلوم ما يتروَّاه وينعم

به ؛ أما وسائلنا ؛ فخيرها ما ساير ميول الطفل حتى يدفعه الشوق إلى الاستزادة من ألوان المعرفة ؛ وحتى يصبح تعليمه داخليًّا فعَّالاً ؛ لا خارجيًّا لا يكاد يتدسَّى إلى الصميم .

وإلى جانب تلك المدرسة النفسيَّة الغامرة ـ ظهرت مدرسةٌ أُخرى تُؤمن بالغرائز والميول أيضاً ؛ لكنها تؤمن فوق كُلِّ ذلك بما يُسمُّونه : « الأفعال المنعكسة » ؛ وتلك مدرسة العالم النفسيِّ بافلوف ؛ فلا يذهب هؤلاء في تقدير الغرائز مثل ما يذهب أصحاب فرويد ؛ ولا يُمعنون في تقديرها مثلما يُمعن الأولون ؛ وإنما يضعونها جنباً إلى جنبٍ مع « الأفعال المنعكسة » التي يستطيع أن يكسبها الطفل ؛ ويؤمن هؤلاء بأن الغرائز والميول قابلةٌ للتعديل عند الإنسان ؛ وأنه قد يكسب نوعاً خاصًّاً من المهارة إذا هو وُضِعَ تحت مُؤثِّرٍ دائمٍ مُتكرِّرٍ ؛ فالتقليد والتكرار والمُراجعة ؛ كُلُّ أولئك جديرةٌ بأن تُرشد المُتعلِّم إلى إحسان المهارات ؛ وهي جديرةٌ بأن تكون أساساً ثابتاً لعلوم كسب المهارة .

ومدرسة بافلوف ومدرسة فرويد ـ كلتاهما على حقٍّ ؛ وهما في ذاتهما تُمثِّلان وجهتي نظرٍ مُختلفتين ؛ لكنهما مُتكاملتان ـ أما الأولى : فهي تُمثِّل الحُريَّة في التربية ؛ وأما الثانية : فهي تُمثِّل النظام ؛ الأولى تعترف بملكات الطفل وقُواه ؛ والثانية تحاول أن تُشيع نظاماً خاصًّاً يأتلف تلك الملكات ؛ والأولى تسمح للطفل بأن يُنمِّي كُلَّ ما وُهِبَ من مداركٍ ؛ والثانية تربط تلك المدارك بعضها ببعضٍ حتى تصبح موثوقة الأجزاء مُرتبطة الأطراف .

والآراء النفسيَّة التي يذهب إليها الفريقان تخلُقُ دستوراً بأكمله ؛ نجتلي فيه أحسن الوسائل لتعليم اللغات ؛ فاللغة من ناحيةٍ ينبغي لها أن ترتبط بالميول والغرائز التي تجتمع لدى الطفل ؛ وينبغي أن تكون مادَّتها بحيث تهزُّ مشاعره وتحرِّك أعطاف قلبه ؛ وهي من ناحيةٍ أُخرى إحدى المهارات التي يكسبها الأطفال كأيِّ فعلٍ مُنعكسٍ آخرٍ ؛ ولن يتأتى ذلك حتى يكون إحسانها نتيجةً لمؤثرٍ أو باعثٍ شديدٍ دائمٍ مُتكرِّرٍ .

من هذين الوجهين ينبغي لنا أن نُثبت الوسائل التي تكفل إدراك الغايات من تعلُّم العربية ؛ وسنرى في نقد وسائل التعليم الحاضرة أنها بعيدةٌ كُلَّ البُعْدِ عن ميول التلاميذ من جهةٍ ؛ وأنها لا تقوم على بواعثٍ شديدةٍ مُتكرِّرةٍ من جهةٍ أُخرى ؛ وأن تعليمها عندنا لن يستقيم حتى نُداول بين هذين الوجهين من وجوه التربية الحديثة .

.....

٢ـ طُرُقُ التَّعْلِيم:

تتصل طُرُق تعليم اللغات إذن بميول الإنسان وغرائزه ؛ وقد بحث المُربُّون أقرب تلك الميول وأكثرها مُواتاةً ـ فوجدوا أن اللعب يجلوها ؛ واتخذه كثيرٌ من المُربِّين وسيلةً من وسائل التعليم ؛ واللعب بمعناه النفسيِّ : فيضٌ من النشاط الذي يغمر نفس الطفل ؛ وهو أشدُّ أثراً فيها من العمل ؛ فالعمل يُفرض فرضاً ؛ لكن اللعب بادرةٌ من وحي النفس ؛ وللعمل غرضٌ قد يكون نفعيّاً يُفسد النشاط ويُخبث النفس ؛ ولكن اللعب لا يعرف لنفسه حدوداً ؛

ولا ينقلب شرّاً إلا إذا اصبح عبثاً غير محمودٍ ؛ وفي اللعب تتنظر قوى الأطفال بأكملها وتتوافى مداركهم ؛ واللعب في المدرسة الحديثة وسيلةٌ للعمل ؛ فإذا أفلح مُعلّمو اللغات في اتخاذ وسيلةٍ لتعليمها - حقّقوا ما ذهب إليه عُلماء النفس ؛ وربطوا اللغة بالميول الفطريّة ربطاً مُحكما لا انفصام له .

ولعلّ القصة أول أنواع اللعب التي نستعين بها في تعليم اللغة ؛ وعند الطفل ميلٌ طبيعيٌّ للتمثيل ؛ ولسنا نقصد بالتمثيل ذلك النوع المسرحيَّ الذي يُحسنه المُمثّلون ؛ وإنما نقصد ما يميل إليه الأطفال من إحلال أنفسهم مَحَلَّ بطل القصة أو بطلتها .

وأنت إذا بحثت عقيدة الطفل - بل إذا تعمّقت عقائدنا الأدبيّة - : وجدت أنها خليطٌ من الحقيقة والخيال ؛ ففي القصة يتمثّل القارئ أو السامع نفسه في الشخصيّة الرّوائيّة التي يميل إليها ؛ فالبطل يُنقذ فتاةً ؛ والبطل يقود أُمّةً نحو المجد ؛ والبطل كثير الحيطة شُجَاعٌ ؛ وخلال القصة تعلو عقيدة الطفل حتى ليحسب الخيال واقعاً ؛ وحتى ليتداخله الزهو فيخال نفسه بطلاً !! ؛ ذلك عندنا نوع اللعب الذي يدفع بالناشئين إلى القراءة ؛ فهو يستغرق تفكيرهم ؛ وهو يستهلك جهدهم ؛ وهو بعد ذلك دعامةٌ لا تتزايل من دعامات اللغة .

ولسنا ندري من المَلُوم على حالة الكساد التي قضت على أدب الطفولة عندنا !! ؛ لكنا نرى عند الطفل الإنجليزيِّ آلافاً من الكُتُبِ الجميلة التي تزخر بالصور والرسوم ؛ والطفل الإنجليزيُّ يُمَتَّع في صباه بما يرى وبما يقرأ ؛ وهو

يندفع وراء القراءة بوحي نفسه ؛ لأن كُلَّ هذه الكُتُبِ تُصادف هواه ؛ لكن الطفل المصريَّ محدود الاختيار !! ؛ فالمدرسة لا تعترف بما يقرأه في الخارج مهما بلغت عنايته بالقراءة ؛ وهو لا يجد إلا قليلاً من القصص المُترجم إذا شاء أن يقرأ ؛ وإنه ليصرفه عن القراءة تبرُّم بعض المُدرِّسين بالقصة ووصفها بأنها نوعٌ من أنواع العبث !! ؛ هذا على أنه لا يجد « مكتبة » من القصص ؛ لأن وزارة المعارف هي التي تحكم مصائر الأمور في التعليم ؛ ولأن وزارة المعارف لم تتضمن مركزيتها الاعتراف بالقصة أداةً للتعليم في العربية ؛ ولو أنها اعترفت بها أداةً للتعليم في الإنجليزية مُنْذُ زمنٍ بعيد !! .

عالج المستر « مان » خبير التربية هذه المُشكلة في تقريره عندما تحدَّث عن الفرق بين لُغة الحديث ولُغة الكتابة في مصر ـ وعنده أنه لن ترقي لغة الكتابة في مصر ولن ينقص الفرق بينها وبين لغة الحديث حتى نخلق أدباً قائماً للأطفال يتضمَّن مادةً جذَّابةً تُوافق عقل الطفل ؛ وينبغي لكتب الطفولة في رأيه « أن تحتوي تلك القصص ذات اللون الخاص التي تتمثَّل في أدب كُلِّ شعبٍ من الشعوب » .

والحقُّ أن العربية ذات أدبٍ شعبيٍّ تُمثِّله كُتُبٌ كـ « ألف ليلة وليلة » ؛ لكن « ألف ليلة وليلة » طُبِعَ بالإنجليزيَّة مئات المرَّات في أشكالٍ وأحجامٍ جميلةٍ مُختلفةٍ !! ؛ وقد بلغ من عنايتنا الضئيلة بمثل هذا الكتاب أننا بدأنا الآن فقط بترجمة ترجماته الإنجليزيَّة إلى العربيَّة !! ؛ ومثل هذا يُقال في القصص الأُخرى التي انتقلت في عصر النهضة من الشرق إلى الغرب !! ؛ ولقد يطول

الحديث بنا إذا نحن استرسلنا في الكتابة عن تقصيرنا في خَلْقِ أدبِ الطفولة !!
ـ وحسبنا أن نقول : أن وزارة المعارف هي الهيئة الوحيدة التي تستطيع أن تخلُق مثل هذا الأدب ؛ وما دامت المركزيَّة أصلاً من أصول إدارة التعليم عندنا ؛ فوزارة المعارف هي التي تستطيع أن تنتخب مُدرِّسين وكاتبين تحبسهم على عملٍ مثل هذا ؛ ولا غناء عندنا في جُهُودٍ فرديَّةٍ محمودةٍ يقوم بها الفينة بعد الفينة أفرادٌ مُتحمِّسُون .

والتمثيل المسرحيُّ نفسه وسيلةٌ تكفل حرص الأطفال على تعلُّم اللغة ؛ ولسنا نقصد بذلك أن يكون له ـ كما له اليوم ـ إدارةٌ خاصَّةٌ مركزيَّةٌ ؛ ولا أن يكون قاصراً على بضعة أفرادٍ من التلاميذ يُمَثِّلُون فصلاً أو فصلين في العام ؛ لأن ذلك قد ساير المدارس الثانويَّة عندنا مُنْذُ نشأتها ؛ إلا أنه لم يفد اللغة إلا قليلاً ـ وإنما نقصد بالتمثيل المسرحيِّ : أن يكون لكُلِّ مُدرِّسٍ اتجاهٌ خاصٌّ يُحبِّب إلى تلاميذه مُمارسة التمثيل ؛ فإذا هو أمدَّهم بالقصص المسرحيَّة العربيَّة وعاونهم على تمثيلها من غير مسرحٍ ولا ستائرٍ ؛ كان في ذلك إدراكٌ للغرض من تعلُّم اللغة ؛ وكان فيه رياضةٌ جماليَّةٌ ساميةٌ ؛ وخيال الطفولة ضمينٌ بأن يُنشئ مسرحاً خياليّاً ؛ وكفيلٌ بأن يسير بالقصة إلى حدٍّ كبيرٍ من الإتقان .

والتمثيل راسخٌ كوسيلةٍ من وسائل تعليم اللُّغة ؛ لأنه يقوم على التقليد ؛ والتقليد ميلٌ غريزيٌّ هو الأساس الأول لدروس كسب المهارة ؛ فإذا اتخذنا التمثيل ذريعةً لتعليم اللغة ؛ أوفينا على الغاية مما نرمي إليه من تعليم

العربية ؛ وأدركنا في نفس الوقت غرضنا الحسيَّ أو الجماليَّ الذي أسلفنا الحديث عنه .

ومثل ذلك فكرة الموسيقى والأناشيد وإلقاء الشعر والخُطب عند الأطفال ؛ والذي قُلناه عن التمثيل ينطبق جميعه على كل هؤلاء ؛ وليس يكفينا في هذه المرَّة أيضاً أن تكون هناك إدارةٌ مركزيَّةٌ للموسيقى تُلقِّن عدداً من الأطفال بضعة أناشيدٍ كُلَّ عام ؛ بل الذي يعنينا أن تكون الأناشيد والموسيقى من بين الكفايات التي يُحسنها المُدرِّسُون حتى يُوفِّقُوا بينها وبين دروس العربية ؛ وحتى يتخذوها مُعيناً على إحسان التوقيع وإتقان الخطابة ؛ والسيطرة على مخارج الحروف والكلام ؛ دع عنك ما تراه الطفولة في كل ذلك من الترفيه ؛ وما تجده من الدواعي إلى الاستزادة من معين اللغة .

فإذا درج الطفل إلى الصبا بعد ذلك ـ كان في الأدب مجالٌ واسعٌ لتحبيب اللغة إليه ؛ والأدب الذي ندعو إلى دراسته : هو الأدب الذي لا يقف جامداً عند سيَرِ الشُّعراء والأُدباء ؛ ولا يتغيَّر بعصور السياسة ؛ ولا تتقطع بصاحبه الأسباب دون تذوق الجمال ؛ والناشئ الذي قضى أيَّام الطفولة في جوٍّ خياليٍّ من القصص والغناء والتمثيل ـ خليقٌ به أن يصل ذلك بالأدب الموروث ؛ وأن يتأَّتى لأدب الرجال بما يزخر من شعرٍ سامٍ ؛ وبما يحتوي من نثرٍ علميٍّ مُنتظمٍ .

ينبغي أن يكون من أغراض الأدب : أن نُحيط المُتعلِّم علماً بما ازَّينت به اللغة من جمال ؛ وأن نروض الفتيان على أسرار القول المُتَّسِق ؛ والعبث

بعينه أن نُحاول تحفيظهم أين ومتى مات الأُدباء والُمتفنّنون !! ؛ والعبث بعينه أن نفرض عليهم استذكار سير الأدباء وما اتصف به شعر كُلٍّ منهم من جزالة اللفظ وما يترقرق في كلامهم من رقّة المعنى ولُطف الروح !! ؛ وألا يكون ذلك إلا كلاماً يُردّدُونه كالببغاوات ابتغاء النجاح في الامتحان !! ؛ بل الخير كُلُّ الخيرِ أن ندفع بهم في غمار المأثور من الأدب ؛ نُعلّمهم الأصول ؛ ونزكيهم في نفس الشعر ونفس القصص ونفس المقامات ؛ حتى يخلق كُلُّ واحدٍ منهم لنفسه مزاجاً أدبيًّاً أو فنيًّاً خاصًّاً فيما يتصل بشؤون اللغة والأدب .

ولعلّنا نستطيع بعد الذي أسلفنا من وصف الاتجاه الحديث في تعليم اللغات : أن نلمس موطن العلّة في أساليبنا الحاضرة ؛ وبين الذي فصّلناه وبين الذي يقع الآن اختلافٌ عريضٌ ؛ ليس من سبيلٍ إلى تلافيه حتى تتكثّر الجهود بعد الجهود ؛ وحتى تقوم مدرسةٌ من مدارس الفكر لتخلُقَ جوًّاً آخرَ غير الذي تعيش فيه اللغة ؛ وقد تحدَّرت في أصول التعليم عندنا تقاليدٌ ما زالت تُنكر على الطفل حياته الوجدانيّة الخاصّة !! ؛ فلم يقم إلا القليل يبعثون القصص التي تُوائم الطفولة !! ؛ ولم يُدرك أحدٌ بعدُ العلاقة بين اللعب الحُرِّ وبين اللغة ؛ ولا نحسب أننا في حالةٍ نتوقّع فيها أن نُقيم العلاقة بين اللغة وبين الموسيقى والغناء ؛ فإن هذا أملٌ غير قريب التحقيق .

على أن الذي نراه قريب التحقيق : هو شئٌ واحدٌ ينتظم كُلَّ ما ذكرنا ـ فإن الُمعلّمين يخلطون دائماً بين الوسيلة وبين الغاية ؛ ويُؤمنون بأن الذي

اتخذوه وسيلةً إنما هو غايةٌ في نفسه !! ؛ فقد اتخذ المُعلِّمُون الأقدمون النحو وعلوم البلاغة وسائل لتقويم اللسان وسلامة المعنى ؛ ويتخذها المُعلِّمُون المحدثون غايات في نفسها يعقدون فيها أعسر الامتحانات !! ؛ ولو أنهم علموا أن إحسان القول وإتقان القراءة والكتابة هي نفسها الغايات ـ لتغيَّرت نُظُم التعليم عندنا ؛ ولتهيَّأ جوٌّ صالحٌ يتحول فيه تعليم اللغات إلى المرتبة التي نبغي .

ولشدَّ ما يعجب المرء حينما يمرُّ بنظرةٍ عجلى على الكُتُب التي يدرسها تلاميذ المدارس الثانويَّة في مختلف الفِرَق !! ؛ وأشهد أنى لأتردَّد كثيراً أن أعقد مُوازنةً بين الكتب العربية التي يدرسونها والكتب الإنجليزية !! ؛ ولعلَّك تُدرك قليلاً من مثل هذا التردُّد إذا علمت أن التلميذ في السنة الأولى يقرأ حوالي أربعمائة صفحةٍ من الإنجليزية ؛ وهو يقرأ مثل هذا القدر في السنة الثانية ؛ ويزيد على الخمسمائة في الثالثة ؛ ثم يُربِى على الستمائة في الرابعة ؛ أما إذا سألتني ماذا يقرأ هؤلاء في العربية ؟ ؛ أجبتك : بأن التلميذ لا يقرأ نصف هذا القدر في فرقته !! .



الباب الرابع

مقالات فكرية



•••••

✿ - تَوْطِئَة

•••••

كَانَ مِمَّا أَثَارَ انْتِبَاهِي فِي إِبَّانِ المَوْجَةِ الثَّوْرِيَّةِ الَّتِي قَامَت فِي مِصْرَ ضِدَّ حُكْمِ جَمَاعَةِ الإِخْوَانِ المُسْلِمِين [٢٠١٣م] ـ أن أرَى هَذِهِ الحَمْلَةَ العَجِيبَةَ المُنْكَرَةَ ؛ وَالَّتِي كَانَت تَنْتَقِصُ عَن جَهْلٍ حِيناً ؛ وَعَن حِقْدٍ فِي أَكْثَرِ الأَحَايِينِ : مِن قَدْرِ الحَرَكَةِ الوَهَّابِيَّةِ فِي مِصْرَ ؛ وَتَرَى أَنَّ الفِكْرَ الوَهَابِيَّ مَا هُوَ سِوَى غَزْوٍ ثَقَافِيٍّ هَجَمَ عَلَيْنَا مِن بِلاَدِ الحِجَازِ ؛ رَاغِبًا فِي فَرْضِ نُفُوذِهِ وَسَيْطَرَتِهِ ؛ وَطَمْسِ مَلاَمِحِ الصُّورَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ المِصْرِيَّةِ وَالَّتِي يُمَثِّلُهَا الأَزْهَرُ الشَّرِيفُ ؛ رَغْبَةً فِي فَرْضِ التَّبَعِيَّةِ وَالقِيَامِ بِدَوْرِ القِيَادَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ ؛ وَمَا كَانَت تَدْفَعُ إِلَيْهِ تِلْكَ النَّظْرَةُ السَّخِيفَةُ مِن تَحْقِيرٍ لِلْعَالِمِ النَّجْدِيِّ المُجَدِّدِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الوَهَّاب ؛ ثُمَّ تَرْتَقِي إِلَى شَيْخِ الإِسْلاَمِ ابْنِ تَيْمِيَةَ ؛ وَالَّذِي كَانَ يُعَدُّ الشَّيْخَ الأَكْبَرَ لابْنِ عَبْدِ الوَهَّاب ؛ ثُمَّ نُزُولاً إِلَى أَعْيَانِ العَصْرِ الرَّاهِنِ ؛ كَالمُحَدِّثِ الجَلِيلِ أَبِي إِسْحَاقِ الحُوَيْنِيِّ ؛ تَطْعَنُ فِي كُلِّ هَؤلاءِ بِحُجَجٍ لاَ يَقُولُ بِمِثْلِهَا الصِّبْيَانُ !! ؛ وَقَد نَسَوْا ؛ بَل الصَّوَابُ أَنَّهُم مَا عَلِمُوا : أَنَّ دَعْوَةَ شَيْخِ الإِسْلاَمِ ابْنِ تَيْمِيَةَ إِنَّمَا كَانَت تَقُومُ عَلَى التَّمَسُّكِ بِالدِّينِ الصَّحِيحِ ؛ وَنَبْذِ البِدَعِ الَّتِي اسْتُحْدِثَت فِي دِينِ اللهِ ؛ كَالتَّوَسُّلِ بِالأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ ؛ وَمَا دَارَ فِي هَذَا الفَلَكِ ؛ وَأَنَّهُ كَانَ يُنَادِي بِفَتْحِ بَابِ الجِهَادِ لِمُدَافَعَةِ أَعْدَاءِ دِينِ اللهِ مِن تَتَارٍ وَصَلِيبِيِّينَ ؛ وَأَنَّهُ كَمَا يَجِبُ أَن تُطَهَّرَ بِلاَدُ الإِسْلاَمِ مِمَّا خَالَفَ الشَّرْعَ

الصَّحِيحَ ؛ فَكَذَلِكَ يَجِبُ تَطْهِيرُهَا مِنَ الغُزَاةِ الَّذِينَ عَاثُوا فِي أَرْضِ المُسْلِمِينَ فَسَاداً .

كَانَت هَذِهِ هِيَ رَكَائِزُ دَعْوَتِهِ ؛ وَهِيَ دَعْوَةٌ يَحْتَرِمُهَا أَهْلُ الدِّينِ العُقَلاء ؛ كَمَا يَحْتَرِمُهَا وَيَحْتَرِمُ صَاحِبَهَا كُلُّ حُرٍّ غَيُورٍ وَلَوْ كَانَ مِن عُصَاةِ المُسْلِمِين .

وَمَا كَانَ مِن مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الوَهَّابِ إِلاَّ أَن جَدَّدَ الدَّعْوَةَ وَقَادَهَا ؛ فَكَانَ مَأْجُوراً غَيْرَ مَأْزُورٍ ؛ وَلَوْلاَ مَا كَانَ مِنَ الوَالِي المِصْرِيِّ الجَاهِلِ مُحَمَّد عَلِى ؛ لأَثْمَرَت هَذِهِ الدَّعْوَةُ ؛ وَصَنَعَت لِلأُمَّةِ الإِسْلاَمِيَّةِ فِي ذَلِكَ الحِينِ الخَيْرَ الكَثِير .

وَلَئِن كَانَت الدَّعْوَةُ قَد هُزِمَت عَسْكَرِيّاً ؛ إِلاَّ أَنَّهَا عَاشَت وَبَقِيَت فِي صُدُورِ الأَحْرَارِ مِن أَهْلِ الإِسْلاَمِ ؛ وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِن كَوْنِ الوَهَّابِيِينَ قَد هَبُّوا لِمُوَاجَهَةِ الغَزْوِ الرُّوسِيِّ عَلَى أَفْغَانِسْتَان ؛ فَلَمَّا نَجَحُوا فِي ذَلِكَ انْتَقَلُوا إِلَى الشِّيشَانِ المُسْلِمَةِ لِتَحْرِيرِهَا مِن هَذَا العَدُوِّ الكَافِرِ .

كَانَ هَذَا هُوَ دَوْرُهُم ؛ وَكَفَى بِذَلِكَ مِن شَرَفٍ !! ؛ فَإِذَا أَنْكَرَ عَلَيْهِم مُنْكِرٌ ؛ فَنَحْنُ لاَ نُطَالِبُهُ إِلاَّ بِتَقْدِيمِ الدَّلِيلِ الَّذِى هُوَ عِلَّةُ الإِنْكَار ؟!! ؛ ثُمَّ نَرْجُو مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَن يُبَيِّنَ لَنَا الدَّوْرَ الَّذِى قَامَ بِهِ قَادَةُ فِكْرِهِ وَأَنْصَارُهُ إِزَاءَ قَضِيَّةِ الهُجُومِ الصَّلِيبِيِّ عَلَى العَالَمِ الإِسْلاَمِيِّ ؟!!

.....

فِي أَثْنَاءِ مُطَالَعَتِى لأَعْدَادِ مَجَلَّةِ « الرِّسَالَة » ؛ وَقَفْتُ عَلَى مَقَالاَتٍ كَتَبَهَا بَعْضُ أَحْرَارِ الأُمَّةِ الإِسْلاَمِيَّةِ فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ الدَّعْوَةِ الوَهَابِيَّةِ ؛ وَفِي إِظْهَارِ

التَّارِيخِ المَجْهُولِ المُشَرِّفِ لِبِلاَدِ القُوقَازِ ؛ وَالَّتِى ابْتُلِيَت مِن قَدِيمٍ بِكُفَّارِ الرُّوسِ ؛ يُجَاهِدُونَ مِن أَجْلِ احْتِلاَلِهَا وَاسْتِعْمَارِهَا ؛ وَبُغْيَةَ تَدْمِيرِ الإِسْلاَمِ وَمَحْوِهِ مِنْهَا ؛ وَكَيْفَ قَامَ أَبْطَالُ هَذِهِ البِلاَدِ النَّائِيَةِ القَصِيَّةِ يُدَافِعُونَ عَن عَقِيدَتِهِم وَهُوِيَّتِهِم بِلاَ تَرَدُّدٍ أَوْ ضَعْفٍ ؛ حَتَّى قَامُوا بِمَا عَلَيْهِمِ ؛ وَأَدُّوا وَاجِبَهُم الَّذِى أُنِيطَ بِهِم .



.....

❁ ـ الدَّعْـوَةُ الوَهَّابِيَّةُ وَأَهْدَافُهَا (١).

.....

ـ أَسْرَارُ الحَرْبِ بَيْنَ أُسْرَةِ مُحَمَّد عَلَي وَآل سُعُود :

آنَ أن يُكْتَبَ التَّارِيخُ مِن جَـدِيـد

هكذا قُلْتُ لصديقي ونحن نسمر في فندق مصر بمكة ؛ ونستعرض تاريخ تلك الحُرُوب الدامية التي نشبت بين مصر والحجاز في عهد محمد علي الكبير .

واتصل بنا الحديث ـ فتناول تاريخ الدعوة الوهابيَّة ؛ التي تُعتبر إحدى انتفاضاتٍ ثلاثٍ كان لها شأنٌ كبيرٌ في تاريخ الحركات الدينيَّة والسياسيَّة في العالم العربيِّ : الوهابيَّة في جزيرة العرب ؛ والسنوسيَّة في شمال إفريقيَّة ؛ والمهديَّة في السُّودان .

فما هي البواعث الحقيقيَّة لتلك الحُرُوب التي شنَّها محمد علي وأولاده على الحجاز ؟!!

وما هي حقيقة الدعوة الوهابيَّة وأهدافها الدينيَّة والسياسيَّة ؟!!

أما هذه الدعوة ـ فهي ـ كما قُلْتُ ـ إحدى الانتفاضات الدينيَّة التي

---

(١) ـ العدد : ١٠١٩ ـ بتاريخ : ١٢ ـ ١ ـ ١٩٥٣ : للأُستاذ محمد كامل حته .

انفعل بها العالم العربيُّ ؛ والتي كانت مُنبعثةً من صميم الإحساس بما وصل إليه كُلُّ المُسلمين من الجهل بحقيقة الإسلام ؛ وتدهور العقيدة ؛ وتحلُّل مقوِّماتها في النفوس ؛ مما تخلَّف بهم عن مكانهم الطبيعيِّ في الصدارة ؛ وجعلهم خَوَلاً للأجنبيِّ ؛ يطأ أعناقهم ؛ ويستولي على بلادهم ؛ ويسلبهم ما بقيَ من مُقوِّمات حياتهم وميراث تاريخهم .

وفي قرية « عيينة » من قُرى نجدٍ ؛ وُلِدَ محمد عبد الوهَّاب صاحب هذه الدعوة ؛ في مطلع القرن الثامن عشر ؛ وقضى صدر شبابه مُرتحلاً إلى الأحساء والحجاز والبصرة وبلاد فارس ؛ وتتلمذ على ما كتبه ابن تيمية وأتباعه ؛ وخاصَّةً ابن القيِّم وابن كثير ؛ وهم من الأئمَّة السلفيين الذين كان لهم في تاريخ التوحيد الإسلاميِّ جُهُود ضخمةٌ ـ ردَّت إليه اعتباره ؛ وجدَّدت شريعته السَّمحة البيضاء .

إذن ؛ فقد اجتمع للرَّجُل في اتصاله بحياة المُسلمين في كثيرٍ من الأقطار ؛ وفي فقهه لأسرار الشريعة الإسلاميَّة ـ ما ملأ قلبه غيرةً على حال المُسلمين ؛ وحسرةً على ما وصلوا إليه من جهالةٍ وضعفٍ وانحلالٍ !! ؛ وحفَّزه ذلك إلى الجهاد في سبيل تجديد إيمان هذه الأُمَّةِ ؛ وتسديد عزائمها إلى مواطن العزَّة والشَّرَف .

وكانت الجزيرة العربيَّة لذلك العهد مُمزَّقة الأوصال ؛ مُتعدِّدة الولايات والولاة ؛ لا تهدأ بينهم نار الحرب ؛ ولا تخبو الإحن والثارات ؛ وكذلك كان الشأن بين البدو والحضر ؛ وبين القبائل بعضها وبعض ؛ بل وبين أبناء البيت

الواحد ممن يتنافسون على المناصب والمغانم ؛ حتى أن أحد أشراف مكّة لم يتورّع عن قتل أخيه ؛ ثم طبخ لحمة وقدّمه إلى بقيّة إخوته في وليمةٍ ساهرةٍ !! .

وكانت الخُرافات والعقائد الضّالة قد استحوذت على العقول ؛ حتى لأوشكوا أن يرتكسوا في جاهليةٍ عمياء ؛ وهي شرٌّ من الجاهليّة الأولى ؛ لأن أهلها يزعمون مع ذلك أنهم مُسلمون !!

وبدأت دعوة محمد بن عبد الوهّاب بالعمل على إصلاح العقيدة الدينيّة ؛ وهل إلى ذلك من سبيلٍ غير الرجوع إلى منابعها الصافية : الكتاب والسُّنَّة ؟!!

ومن خصائص العرب في جميع العُصُور : أن طبيعتهم السمحة القويّة ؛ وبيئتهم البادية المُتصلة بالكون ؛ المُتفاعلة فيه : هي أقرب الطبائع البشريّة إلى رُوح الإسلام وطبيعته ؛ وليست كذلك طبيعة الأُمم التي أغرقتها الحضارة ؛ واستغرقتها العقائد الماديّة ؛ وأنهكها الترف العقليُّ ؛ وخدّرتها أوهام التصوف وتهاويل الفُنُون .

ولذلك استطاع الإسلام أن يُحقّق بأولئك العرب - بعد أن زالت عن طبيعتهم السمحة القويّة أدران الجاهلية ؛ وتطهّر جوهرها النقيُّ مما شابه من عقائدٍ وأفكار - ؛ استطاع أن يُحقّق بهم أروع وأسرع مُعجزةٍ في فتح الأمصار ونشر كلمة الله !!

فلمّا اتصلت حياتهم بتلك الأمصار ؛ وتذوّقوا ما فيها من ألوان الحياة

الحضاريَّة ؛ وبهرتهم دُنياهم الجديدة بما فيها من زينةٍ وزُخرفٍ ومتاعٍ ـ تأثروا بـذلك كُلّه ؛ فـضعُفت قُـواهم المُبدعـة الغلاّبـة ؛ ولم يـستطيعوا أن يُتـابعوا جهادهم بعد الفتح في تطوير عقائد تلك الأمصار ؛ وانبعاث صُورٍ جديدةٍ للحياة في شتّى مناحيها العقليَّة والاجتماعيَّة ؛ يتَّصل إلهامها برُوح الإسلام وطبيعته ؛ فكان أن ظهرت العقائد الموروثة التي حاربها الإسلام بقرونها من جديدٍ ؛ في صُورٍ مُوشَّاةٍ بألوانٍ تُخيِّلُ للرائي أنها صُـورةٌ إسلاميَّـةٌ ؛ وإن كانت في مادَّتها ووحيها بعيدةً كُلَّ البُعدِ ـ أو بعضه ـ عن مادَّة الإسلام ووحيه !!

وانظر معي الآن ـ ولا تجزع ـ إلى ذلك الميراث الضخم الذي خلَّفته العُصُورُ الإسلاميَّةُ مُنذُ انحسر عنها مَدُّ العُرُوبة المُسلمة أو غاض ؛ وانطلقت غرائزها تبني للإسلام حضارته العُمرانيَّة والعقليَّة ؛ في : مصر ؛ وفارس ؛ والهند ؛ وتركيا ؛ وغيرها من الأمصار ـ فتُنشئ العمارة ؛ وتُمارس العلم والفلسفة ؛ وتصوغ فُنُون الحياة ؛ أترى معي حقيقةً ـ إذا تجرَّدنا من أوهام ذلك التاريخ الذي نعيش فيه ؛ وتحرَّرنا مما رسب في أعماقنا من معايير وموازيين ـ أن هذه الحضارة الإسلاميَّة في ماضيها وحاضرها ؛ وذلك الميراث الضخم الذي تزهو به ؛ وتلك الحياة التي أبدعت هذه الحضارة وذلك الميراث ؛ والتي نحياها الآن على نمطٍ قريبٍ مما كان يحياها أُولئك الآباء والأجداد ؛ أتراها معي حقيقةً : حضارةً إسلاميَّةً بكُلِّ ما في هذه الكلمة من معنى ؟!! ؛ أم أنها حضاراتٌ مُتعدِّدةٌ تمتدُّ جُذُورها إلى أعماق الأُمم التي

صنعتها ؛ في مصر ؛ وفارس ؛ والهند ؛ وتركيا ؛ وغيرها من الأمصار ؟!!

قد تتهمني بالمُغالاة والتجنِّي على مُقوِّمات الحضارة الإسلاميَّة !! ؛ وقد تقول : إنَّ هذا التعدُّد في ألوان الحضارة الإسلاميَّة لا يتصل إلا بمظاهرها ؛ وبالقدر الذي تختلف به طبيعة كُلِّ أُمَّةٍ ومُؤثراتها الخاصة ؛ وإنها في جوهرها ومجموعها تنبع من معينٍ واحدٍ ؛ هو معين الإسلام .

وفي هذا الاعتراض نوعٌ من المُغالطة !! ؛ فإن هذه الألوان المُتعدِّدة في معالم الحضارة الإسلاميَّة ؛ لا يقتصر تعدُّدها واختلافها على المظهر فحسب ؛ ولا يرجع ذلك التعدُّد والاختلاف إلى تأثير البيئة واختلاف الطبيعة - وإذن لهان الأمر - ؛ ولكنه أعمق من ذلك جذوراً أو أبعد أُسَّاً ؛ ذلك لأن هذا الاختلاف في المظاهر لا يُقاس إلى ما بين العقائد والأفكار والمشاعر التي تكمُن وراءها من تباعُدٍ واختلافٍ ؛ وبالقدر الذي يُباعد بين هذه العقائد والأفكار والمشاعر الموروثة ؛ وبين الإسلام في حقيقته الأُولى وتمثُّله للكون والحياة .

وفي هذا الاعتراض كذلك شُبهةٌ لا يُمكن إزالتها إلا بالاحتكام إلى الإسلام ذاته ؛ لا عن توهُّم أنه دينٌ تأبى طبيعته التطور ؛ ويُنكر حقَّ العقل في بحث أسرار الكون وإخضاع نواميس الطبيعة ؛ ولكن عن إدراك طبيعة الإسلام باعتباره ديناً يقوم على « التوحيد » في كُلِّ شيءٍ : التوحيد الذي يسمو بالإنسان عن توحيد عبوديَّة إلا لله ؛ ويجعل المُسلم قوَّاماً على الحياة والكون ؛ يُسيطر عليهما ويُسخِّرهما لتحقيق الرسالة التي جاء بها الإسلام لخير الفرد والمجتمع ؛ لا أن يكون عبداً للكون والحياة ؛ تستخدم مواهبه في

الفُنُون حتى يكاد يعبد ما خلق !! ؛ وتستغرق عقله بالفلسفة حتى تصرفه عن العمل !!

على أنّي أُراني قد أبعدت كثيراً فيما أُعالج من أمر الدعوة الوهابيّة وبواعثها وأهدافها ؛ فلندع هذا الحديث الذي لا تُوفيه هذه الإلمامة حقّه من الحُجّة والبيان ؛ ولنعُد إلى حديثنا عن صاحب الدعوة محمد بن عبد الوهّاب :

أراد هذا الإمام أن ينهض بدعوته ؛ وهل لها إلا تلك ((الخامات)) العربيّة التي تنطوي على عناصر الحُريّة ؛ والاتصال المباشر بالكون ؛ والاستواء على أقطار الحياة يُبرئها مما أصابها من غشاوة الجهالة ؛ ويرُدُّها إلى فطرتها السمحة ؛ ويُغذّيها بوحي الكتاب والسُّنّة ؛ ثم ينطلق بها خفيفةً مُؤمنةً صابرةً ؛ تحمل أعباء الدعوة ؛ فتنشر الهدى المُحمديّ ؛ وتُقِرُّ الأمن المضطرب ؛ وتحمي البيت الذي يتُخطّف الناس فيه ؛ ثم تمضي برسالتها إلى أبعد الآفاق .

تلك كانت دعوة محمد بن عبد الوهّاب ؛ وهذه وسيلته ؛ ولقد نجح هذا الداعية في المرحلة الأولى - مرحلة الانتصار على أهواء الجاهلية ؛ وأدواء الجهالة ؛ واستنفار الإخوان للدعوة إلى سبيل الله - نجاحاً كاد أن يتجاوز حدّهُ فيقع بهم في السرف ؛ أو قد كان !!

وكانت دعوة محمد بن عبد الوهّاب تسير جنباً إلى جنبٍ مع مراحل الدولة السُّعوديّة ؛ فلما دانت الجزيرة العربيّة لآل سعود في مطلع القرن التاسع عشر ؛ كانت هذه الدعوة تُزلزل قلوب كثيرٍ من السلاطين والولاة في

البلاد الإسلاميَّة ؛ ويرون فيها خطراً جائحاً يُخشى أن تمتد آثاره فتقضي على الأوضاع الظالمة والعقائد الفاسدة التي تقوم عليها كثيرٌ من العروش والتيجان .

أحسَّ بهذا الخطر سُلطان تركيا ؛ وكان يعيش في تلك الأسطورة التي تُوهمه ـ أو يُوهم هو بها الناس ـ بأنه ظلُّ الله في أرضه !!

وأحسَّ به محمد علي في مصر

وكان إحساس سلطان تركيا بخطر الدعوة الوهابيَّة مزدوجاً ؛ لأنه كان يُحسُّ في الوقت نفسه بخطر محمد علي في مصر ؛ فأراد أن يضرب الضربة يُصيب بها الاثنين معاً ؛ فطلب إلى محمد على أن يغزو الحجاز ؛ وأن يقضي على أولئك المُتمرِّدين العُصاة !!

ووجدها محمد علي فُرصةً يضرب بها ضربته : باسم خليفة المسلمين ؛ ظلُّ الله في أرضه !!

ثم كانت الغزوات والحروب التي ذهب وقودها مئات الألوف من أبناء مصر ؛ وعشرات الألوف من أبناء الجزيرة العربية ؛ والتي خلقت في نفوس الشعبين تلك الموجدة التي تذكو نارها تارةً وتخمد أُخرى !!

وكتب التاريخُ الزائف قصص البطولة والنصر لجيوش الخليفة وولاته في مصر على الدعوة الثائرة المُتمرِّدة في جزيرة العرب ؛ هذه الجيوش المغلوبة على أمرها ؛ والمُسخَّرة لأطماع الولاة وأهوائهم ؛ والتي حُبِسَت عشرات السنين عن أن تؤدي واجبها الحق حين كان أشراف مكة يرشون السلاطين

والولاة ؛ ثم يعيثون في الأرض المُقدَّسة فساداً ؛ فيقتلون ؛ ويسلبون ؛ ويغزون سفهاء البدو فيهدرون دماء الحُجَّاج ؛ وينهبون أموالهم ويهتكون أعراضهم ؛ ولا يُرسلون من هذه الجيوش إلا كتيبةً لحراسة « المحمل » وهي تحدو ركبه بالطبول والمزامير !!

ويبدو أن لتلك الحروب أثراً كبيراً في توقُّف الدعوة الوهابيَّة عند خطوتها الأولى ؛ وهي المُناداة بالشريعة الإسلاميَّة لتكون أساس الحُكم ؛ والرجوع إلى الكتاب والسُّنَّة في كُلِّ أمرٍ ؛ واستنفار أهل البادية ذوي الحميَّة والبأس للاضطلاع بأعباء هذه الدعوة ؛ أما ما وراء ذلك من خطواتٍ تتصل بتدعيم هذه الدعوة بالعلم ؛ وتخُرج أفواج الدُّعاة الذين لا يقتصرون على سورة الحماس الدينيِّ ؛ دون البصر بشريعة الإسلام في الحياة ؛ وتعبئة قوى الأمَّة للتحرُّر الدينيِّ والسياسيِّ ـ فذلك ما قصرت عنه الأسباب ؛ وما انتهى بالدَّعوة إلى أضيق الحُدُود .

ولقد كان من أثر ذلك أن الملك عبد العزيز ذاته ؛ حين أراد أن يخرج قليلاً من نطاق تلك الحياة الجامدة الراكدة ؛ وأن يدفع بلاده خطوات يسيرة في سبيل الحياة ؛ انقلب عليه أشدُّ أعضائه وأنصاره من الإخوان أعداء ألداء ؛ ووقعت بينه وبينهم فتنةٌ داميةٌ ؛ انتهت بغلبته عليهم ؛ ووقوع زعيمهم فيصل الدويش أسيراً في يده ؛ وعندئذٍ تنفَّس الملك عبد العزيز الصُّعداء ؛ وقال : من اليوم سنحيا حياةً جديدةً !! .



.....

❁ ـ الثَّوْرَةُ الوَهَابِيَّة (١).

.....

هذا الكتاب شرحٌ لمبادئ الدعوة السلفيَّة ؛ وعرضٌ لتاريخها وتاريخ رجالها ـ افتتحه المُؤلِّفُ بفصلٍ تحليليٍّ عن الثورة وطبيعتها وأقسامها ؛ والمُفاضلة بين الثورات السياسيَّة والثورات الدينيَّة ؛ كالثورة الوهابيَّة « المُؤسَّسة على أسمى المعاني الإنسانيَّة الخُلقيَّة ؛ المُنتزعة من رسالة جبريل سيِّد الملائكة إلى مُحمَّدٍ سيِّد البشر . » .

ووازن بينها وبين الثورة الفرنسية ؛ وبحث عمَّا أسدت ثورة فرنسا إلى الإنسانيَّة المسكينة من إخاءٍ وحُريَّةٍ ومُساواةٍ ؛ وأحال في الجواب على سوريا ومُرَّاكش والجزائر !!

ثم تكلَّم المُؤلِّف عن منشأ هذه الدعوة وتاريخها وسيرة صاحبها ؛ وتكلَّم عن أهمِّ ما دعا إليه وما أُنكر عليه ؛ وبيَّن أنَّ أوَّل مُقوِّمات هذه الدعوة ـ أستغفر الله ـ ؛ بل أول مُقوِّمات الإسلام : منع دُعاء غير الله ـ كدعاء الأموات ـ ؛ مهما كانت نيَّة الداعي ؛ ومهما كان مقام المدعو ؛ ومنع الاستغاثة بغير الله والاستعاذة به ؛ ثم منع الابتداع في الدِّين منعاً باتَّاً لا هوادة فيه ولا

---

(١) ـ العدد : ١٥٧ ـ بتاريخ : ٦ ـ ٧ ـ ١٩٣٦ : تأليف عبد الله القَصيميّ ؛ « ١٤٠ » صفحة ـ طبع مصر : نقد الأُستاذ « ع » : « دمشق » .

استثناء ؛ سواء في ذلك الأدعية الفاسدة والأذكار التي لم ترد عن صاحب الشريعة ؛ والشطح والرقص في الذكر والطُّرُق المُبتدعة ؛ وما إلى ذلك ؛ ثم الإيمان بما جاء في الكتاب والسُّنَّة من أن الله تعالى مُستوٍ على العرش استواءً يليق به ؛ لا كما يستوي المخلوق ؛ وكذلك الإيمان باليد والساق من غير تعطيلٍ ولا تشبيهٍ ؛ ثم إقامة الحدود الشرعيَّة ؛ وهذه منقبةٌ لو لم يكُن للحجاز غيرها لكفى ؛ وهل تُماثل حكومةٌ تُقيم حدود الله على الزاني وشارب الخمر ؛ بحكوماتٍ إسلاميَّةٍ تُجيز الزنا وشرب الخمر وتفتح لهما البيوت والحانات وتحمي أصحابها ومن يعكف عليهما ؟!!

ثم إنَّ للمُسلم أن يتفهَّم كتاب الله ويتدبَّره ؛ وألا يدع حُكم الله وحُكم رسوله لقول إنسانٍ ما ؛ وكل هذا حسنٌ بشرط ألا يفهم منه العاميُّ بأن له الاجتهاد ؛ وله أن يدع حُكم مذهبه إذا سمع حديثاً صحيحاً قد يكون منسوخاً بحديثٍ أصحّ منه ؛ بل عليه أن يتتبَّع أحكام المذهب إلى أن يرزقه الله من الاطلاع على كلام العرب وسننها ما يفهم به كتاب الله وسُنَّة رسوله على وجهما ؛ ومن معرفة الأصول ما يعلم به استنباط الأحكام ويعرف الناسخ والمنسوخ ؛ وكما أن القول بسدِّ باب الاجتهاد سُخْفٌ ؛ فكذلك القول بفتحه للناس كُلِّهم بلا تفريقٍ بين عاميٍّ ومُتعلِّم .

هذا ؛ وقد طال بيَ نفس القول ؛ ولم أصف من الكتاب إلا جُزءاً قليلاً ؛ ولا أجد بُدّاً من أن أقطع الكلام ؛ وأُحيل القارئ على هذا الكتاب القيِّم ليقرأه بنفسه ؛ فليس يُغني عن قراءته وصفي ؛ وإذا كان لي أن أختم هذه

الكلمة برجاءٍ أرفعه إلى جلالة الملك عبد العزيز بن سعود ـ فهو أني أرجوه أن يولي هذا الأُستاذ الجليل شيئاً من العناية ؛ ويأخذ بيده على ما هو فيه من خدمة الإسلام والدفاع عن السلفيَّـة ؛ وأن يُشجِّع أمثاله ـ وقليلٌ ما هم ـ على سلوك هذا السراط المستقيم .

وإني أرجو لجلالة الملك التوفيق والهداية ؛ وللأُستاذ المُؤلِّـف النجاح والأجر .



.....

❁ـ حَـرَكَاتُ الإِصْلاحِ الإِسْـلامِيَّـةِ أَزْمَـةٌ إِسْـلامِيَّـةٌ ؟!!! (١).

«(١)»

.....

أيوجد حقاً ما يُسمَّى أزمةٌ إسلامِّيةٌ ؟!!! ؛ وهل صحيحٌ أن الإسلام يجتاز في هذا العصر مرحلةً اجتماعيَّة خطيرةً ؟!!! ؛ وأنه يقف الآن عند نُقطةٍ فاصلةٍ ويمرُّ بدورٍ حاسمٍ في تاريخه ؟!!! ؛ وسيبُرهن على استحقاقه البقاء والخلود إذا مرَّ بها صحيحاً سليماً ؟!!!

كانت هذه الأسئلة تتردَّد في نفسي وتضطرب !! ؛ وكُنتُ أُعالج منها ضيقاً وحرجاً عندما كُنتُ أقرأ هذه الرسالة الصغيرة «الأزمة الإسلاميَّـة» للأستاذ ريشارد هرتمان .

تُرى هل أحسن المسلمون بهذه الأزمة التي لم تنل بالطبع عقيدتهم القويَّة وإيمانهم الصحيح الخالص ؟ ؛ أجل ؛ ولكنها نالت أمراً عزيزاً لديهم !!

---

(١) ـ العدد : ٣٦١ ـ بتاريخ : ٣ ـ ٦ ـ ١٩٤٠ : للدكتور علي حسن عبد القادر : دُكتور في الفلسفة والعلوم الإسلاميَّة من جامعة برلين ومُدرِّسٌ بكُليَّـة الشـريعة .

نالت حياتهم في أشكالها المُختلفة ؛ ومسَّت قوانينهم وشريعتهم ونُظمهم الاجتماعيَّة ؛ وأصبح المُسلم مُضطرباً في حياته !! ؛ تتقاذفه أمواجٌ شتَّى من حضارةٍ جديدةٍ ؛ وأفكارٍ حُرَّةٍ ؛ وتقاليدِ موروثةٍ ؛ ودينٍ راسخٍ !! ؛ لا يجد التوفيق بين ذلك كُلِّهِ سهلاً ميسوراً !! ؛ وهكذا فإنَّ المُسلمين في جميع البُلدان الإسلاميَّة يُعانون أزمةً وشدَّةً تكاد تودي بحياتهم !! ؛ وقد أودت بها فعلاً في بعض البلاد !!

لا شكَّ أن الناس لا يقرؤون التاريخ الحديث للإسلام ؛ أو كأنهم لا يُفكِّرون في كُتلةٍ تضمُّ المسلمين في أقطار الأرض ؛ فهم يُغمضون أعينهم عمَّا حصل وما يحصل في تركيا وبلاد الهند الإسلاميتين من حركاتٍ وثورات !! بل وما يحصل بين سمعهم وبصرهم في مصر ــ حيث الحياة قلقةٌ !! ؛ والنفوس ثائرةٌ !! ؛ والإسلام ينقبض في عُقر داره يوماً عن يومٍ !! ؛ وحيث سُلطان الشريعة الإسلاميَّة ضعيفٌ !!

أترى أن هذا لا يستحقُّ النظر الجدَّ والتفكير العميق ؟!! ؛ أو أنه يكفي الصُّراخ والعويل كُلَّما خرج خارجٌ من أفرادٍ أو دُولٍ ؟!!

حقّاً أن رجال الأزهر ؛ وهُم الذين يُمثِّلون جبهة الدفاع عن الإسلام والذَّود عن حياضه بما عُرِفُوا به من علمٍ صحيحٍ وفكرٍ مُستقيمٍ ــ هم وحدهم الذين شعروا بهذا الخطر الداهم الذي يُهدِّد حياة المسلمين ؛ وهم الذين أدركوا المُنحدر الذي قد ينحدرون إليه !! ؛ فهبُّوا يُؤدُّون رسالتهم التاريخيَّة في شجاعةٍ وصبرٍ ؛ مُضحِّين في سبيل هذا الواجب بهنائهم

وسعادتهم ؛ غير مُبالين بما يقف في طريقهم من صعابٍ ؛ لا يثنيهم عن عزمهم ما يُبيِّتُهُ لهم الخصوم ؛ ولا يصُدُّهم عن مُهمَّتهم ما يرميهم به ضعاف الإيمان ؛ وهم من أجل ذلك في أزمةٍ شديدةٍ قاسيةٍ ؛ مُضطربة نفوسهم وحياتهم أيما اضطراب !!

في رسالة الأُستاذ هرتمان بيانٌ شاملٌ دقيقٌ لحركات المُصلحين الذين تنوَّعت بهم طُرُق الإصلاح ؛ واختلفت لديهم سُبُل التجديد تبعاً للثقافات المُختلفة التي عرفوها والبيئات التي اتَّصلوا بها ؛ فمنهم من رأى الرُّجُوع إلى القديمِ والتمسُّك بالإسلام الأول ؛ ومنهم من رأى الأخذ بالجديد كُلِّهِ ؛ ومنهم من سلك سبيل التوفيق .

وعلى هذا يدور البحث في هذه الرسالة القيِّمة التي سدَّت فراغاً كبيراً في الأبحاث الإسلاميَّة الحديثة .

والأُستاذ هرتمان عالمٌ هادئ الطبع ؛ اتصلتُ به أثناء دراستي ببرلين ؛ فعرفته يمتاز عن غيره ممن بحث في العلوم الإسلاميَّة بنضوج الفكرة ؛ والرُّجُوع إلى الحقِّ إذا ظهر له ؛ لا يُصدر حُكمه إلا بعد تريُّثٍ وتروٍّ في رفقٍ وأدبٍ .

وهاأنذا أعرض عليك فصولاً من هذا البحث :

ـ ١ ـ

يقول الأُستاذ : قلَّما نجد بين الأديان الكبيرة ديناً ينفذ إلى حياة مُعتنقيه كُلِّها فرديَّةً كانت أم اجتماعيَّةً مثل الإسلام ـ ذلك أنه من وقت النَّبيِّ

والخلفاء أخذت السُّلطة الدينيَّة فيه شكل الدولة السياسيِّ ؛ وبقيَ عدم التفريق بين أمور الدين وأمور الدولة - على الأقل في المبدأ - قائماً إلى الوقت الحاضر .

وهكذا ؛ أليس الدين كُلَّ شيءٍ في ثوب التشريع والفقه ؛ وقد طوَّر عمل القرون المتوالية هذا الفقه إلى بناءٍ هائلٍ مُنظَّمٍ لكُلِّ أنواع المُعاملات والعلاقات الإنسانيَّة تنظيماً دقيقاً ؛ وأصبحت القوانين كُلُّها ذات ثوبٍ دينيٍّ تبعاً لهذا المبدأ الذي لا يُفرِّق بين أُمور الدين وأُمور السياسة .

حقّاً إنَّ مثل هذا القانون قد تكون فيه قُوَّةٌ ما دام حيّاً جديداً مُوافقاً للعصر المعمول به فيه ؛ ولكن هذا كان إلى حدٍّ محدودٍ ؛ فإنه في أثناء تطوره لم يكُن نافذاً معمولاً به على الإطلاق ؛ لأنه في الحقيقة لم يكُن من عمل الدولة وأعضائها ؛ ولكنه كان عملاً للمُؤلِّفين ؛ وأخيراً عندما اقتنع الناس بأنه تجب مُتابعة الخلف للسلف الأوَّل في كُلِّ أمرٍ ؛ وأنَّ كلَّ ما فُضِّلَ فيه السلف الصالح مرَّةً في وقتٍ يجب أن ترتبط به الأُمَّة الإسلاميَّة في كُلِّ الأوقات .

لَمّا حصل هذا الفقه المُحدِّدُ لكُلِّ حياة المسلمين في ثوبه الدينيِّ المُقدَّس - أصبح خطراً مُهدِّداً يقف أمام كُلِّ إصلاحٍ .

ولم يشعر أحدٌ بهذا الخطر ؛ ولم يكُن حادّاً ظاهراً ما دام العالم الإسلاميُّ على قمَّة الثقافة ؛ كان هذا في العصور الوسطى ؛ وكانت الحياة المسيحيَّة إذ ذاك تُشبهه إلى حدٍّ ما ؛ حيث كانت حياة المسيحيين تحت سلطان الكنيسة ؛ وكانت هناك ثقافةٌ ومدنيَّةٌ مسيحيَّةٌ ؛ كما كانت هناك ثقافةٌ ومدنيَّةٌ

إسلاميَّـةٌ ؛ وكلاهما بالرَّغم من تخالفهما في العقيدة كانا مُتقاربين ؛ ونشأت ومن ورائهما ثقافةٌ وثنيَّـةٌ ؛ وبينما كـان الـدين في الغـرب يرجـع إلى الـوراء وتضيق حدوده أثناء مرحلة التطور من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة وتحُلُّ محلَّ المدنيَّـة المسيحيَّـة للعصور الوسطى مدنيَّـةٌ وطنيَّـةٌ ـ بقيَ الإسلام سائراً في طريقه القديم القائم على الدين ؛ ومن هنا كانت الثغرة بين الشرق والغرب واسعةً ؛ وبقيَ للشرق وللغرب كُلٌّ له لُغته الخاصة إلى يومنا هذا .

وأخيراً نُوقشت مسائل التاريخ ؛ وفتح المسلمون أعينهم على وضع المدنيَّة الإسلاميَّة للقرون الوسطى إزاء المدنيَّة الحديثة ؛ فماذا كانت النتيجة ؟!!

إن العالم الإسلاميَّ يقف الآن عند نُقطةٍ فاصلةٍ !! ؛ فهو في أزمةٍ !! ؛ فهل قطع الإسلام ـ الذي يظهر مُرتبطاً بالعصور الوسطى ـ كُلَّ شوطه ؛ وأتـمَّ القيام بدوره ؟!!

وهل هذا المرض الباقي إلى الآن من الإسلام نفسه ؟!! ؛ أو أن الإسلام كدينٍ مُتفقٌ مع الإصلاح الحديث ؟!! ؛ وهل يستطيع الإسلام أن يتخلَّص من تأخُّر العصور الوسطى التي ارتبطت به ؟!! ؛ وهل هو في نفسه صالحٌ وقادرٌ علـى التطـور ؟!!

على جواب هذه الأسئلة يتوقَّف كيان الإسلام كدينٍ ؛ بل حتى في الأمور السياسيَّة والاقتصاديَّة بالنسبة لِمستقبل الشعوب الإسلاميَّـة .

ولقد كانت مسألة عدم استطاعة الإسلام لإصلاحٍ حقيقيٍّ ؛ وعدم صلاحيته للتقدُّم ـ عقيدةً سائدةً عند الغربيين مُنذ عشرات السنين ؛ ولم

تكُن هذه العقيدة سائدةً عند « أهل التبشير » ؛ وفي أوساط المُبشِّرين الذين لا يفهمون عن الإسلام إلا صُورةً ناقصةً جداً وغير صحيحة !! ؛ بل إنَّ الأمر تعدَّى إلى بعض مُؤرِّخي الأديان ؛ مثل « رينان » ـ الذي كان يقول : إن الإسلام عدوٌّ للعلم .!! .

بل قد تعدَّى إلى بعض السياسيين العارفين بشئون العالم الإسلاميِّ ؛ مثل اللورد كرومر ـ الذي حكم على الإسلام حُكماً قاسياً حين قال : إن إصلاح الإسلام يُخرج الإسلام عن أصله . !! .

ونحن لا نُنكر أن ما قيل من أن الإسلام عدوٌّ للإصلاح وليس مُلائماً للأفكار الحديثة ؛ قد يكون له بعض الأسباب ؛ ولكنَّا هُنا لا نُلقي الكلام على عواهنه ؛ ولا نعرض لأحوالٍ غير مفهومةٍ لعوام المسلمين الذين أثبتت المُلاحظات شيئاً من تعصُّبهم .

فإنَّ ذلك كُلَّهُ لا يرجع إلى الدين الإسلاميِّ نفسه ؛ بل إلى العناصر والبيئات التي حلَّ فيها ؛ أو إلى ما انتشر بين الناس من أن الإسلام ليس إلا تكراراً لليهوديَّة والمسيحيَّة ؛ فمثل هذه الأشياء قد تكون موانع للإصلاح ؛ ولكنها على أقصى حدٍّ أُمُورٌ تبعيَّةٌ شكليَّةٌ ؛ وليست أموراً أصليَّةً ؛ وأنه من البُعد عن موضوع البحث أن نتكلَّم عن هذه الظواهر الشعبيَّة في الإسلام ؛ التي هي عبارةٌ عن توفيقات بين تعاليم الدين وبين ما هو مُتأصِّلٌ قديمٌ في الشعوب من أفهامٍ ضعيفةٍ وأُخرى ساذجةٍ ؛ ولكي يحكم الإنسان على جماعةٍ دينيَّةٍ لابُدَّ له من أن يحكم على مبادئها الصحيحة ؛ وفي الإسلام يجب

علينا أن نفهم مبادئه بكُلِّ وضوحٍ ؛ وأن نستبعد عنه ما ارتبط به من أفهام العوام ؛ وحينئذٍ فقط يكون صحيحاً سليماً .

ولسنا في حاجةٍ اليوم ـ لكي نفهم الإسلام في أطواره التاريخيَّة ـ أن نُقرِّر أنه لا يجوز لنا أن نرجع مُباشرةً إلى صاحب الرسالة « ص » كما نعرفه تاريخيّاً ؛ فإن جاز لنا ذلك ؛ فإن الأمور تكون في غاية البساطة ؛ لأنه ليس من شك أن النَّبيِّ ـ الذي لم يكُن نبيّاً فقط بالمعنى الذي يفهمه الأوربيون ؛ بل كان سياسيّاً يُدير أُمور الدولة ـ كان في الحقيقة واسع الأُفق في دعوته ويحسب للأمور حسابها ؛ وجوابه المعروف : « اعقلها وتوكَّل » كلامٌ له مغزاه ؛ ويجب أن لا ننساه في مجرى التطورات الأخيرة في الإسلام .

ولكن الواقع أن الرُّجُوع إلى ما كان عليه الرَّسُول فقط لا يعرفه الإسلام التاريخيُّ على ما هو عليه كجُزءٍ من حقيقته الصحيحة ؛ فإن الإسلام كما يعتقد أهل السُّنَّة ليس إلا نتيجةً لتطورٍ طويلٍ كثير التقلُّب ؛ ذلك أنه لم يكُن الإسلام في عهد الرسول إلا إيماناً سهلاً وقوانين للحياة بسيطة ؛ وعندما انتشر بهذه السُّرعة الفائقة في بلادٍ ذات ثقافاتٍ مُختلفةٍ غير التي كانت في مهده الأول ؛ دعا الأمر إلى تحويرٍ وتشكيلٍ ؛ وهكذا تمَّ للإسلام إضافة أشياء إليه أثناء امتزاجه بالتراث العقليِّ الذي كان عند سُكَّان الأُمم المفتوحة ؛ حتى أمور العقائد التي بقيت بعد كفاحٍ شديدٍ مقصورةً على مبادئَ قليلةٍ خضعت لجولاتٍ واسعةٍ حُرَّةٍ من الشرح والتفسير ؛ وكان أكثر شيءٍ توسُّعاً وازدياداً هو تنظيم أمور الحياة ؛ أو بعبارةٍ أُخرى : الفقه والقانون .

ولكن هذا الفقه الإسلاميَّ الذي كان في نوعه دينيًّاً سياسيًّاً وثقافيًّاً ؛ والذي كان مُنذ اللحظة الأُولى أمراً لا يقبل التغيير؛ أُقفل نهائيًّاً وخُتِمَ في نهاية القرن الثالث الهجريِّ تقريباً ؛ فوقف نشاط حركةٍ دينيَّةٍ سياسيَّةٍ ثقافيَّةٍ نشيطةٍ ؛ سنُلمُّ بأسبابها في المقال الآتي .



.....

❁ـ حَرَكَاتُ الإِصْلاحِ الإِسْلامِيَّةِ أَزْمَـةٌ إِسْـلامِيَّةٌ ؟!!(١)

﴿ ٢ ﴾

.....

هكذا نرى أن التشريع الإسلاميَّ هو محور الدائرة التي تدور حولها حركات الإصلاح والتجديد في الإسلام ؛ والباب الذي ينفذ منه المُصلحون لتجديد الحياة الإسلاميَّة تجديداً عمليّاً ؛ وأن مسألة كون الإسلام قابلاً للإصلاح والتجديد والرُّجُوع به شاباًّ قويّاً ؛ إنما تقوم على مسألةٍ أُخرى ؛ وهي:

هل من المُمكن التخلُّص من أشكالٍ قديمةٍ جامدةٍ في الفقه الإسلاميِّ ؟!!

وإذا ما أردنا أن نُحدِّد البحث تحديداً أدقَّ لنتعرَّف العامل الأول الذي أملى على المُصلحين إصلاحهم وجرَّهم إلى التفكير في ذلك ؛ فلا يسعنا في حدود المؤرخ الدينيِّ أن نفكر أن ذلك يرجع إلى الأصل المعروف « الإجماع » ؛ ذلك الأصل الذي صبغ الفقه الإسلاميَّ بما لم يصبغه به غيره ؛ ودعَّم به أهل السُّنَّة وجهات نظرهم تدعيماً لم يقبل النقض ؛ وهو في

---

(١)ـ العدد: ٣٦٢ ـ بتاريخ: ١٠ ـ ٦ ـ ١٩٤٠ .

حقيقة الأمر المفتاح الذي نفهم به تطورات الإسلام في علاقاته المُختلفة في العقائد والتشريع والسياسة ؛ فما تقبلته الأُمَّـةُ حقّاً وصدقاً ؛ فهو حقٌّ وصدقٌ ؛ وما لا ؛ فلا ؛ ويكون صحيحاً فقط في الشكل الذي يعطيه له الإجماع ؛ حتى تفسير القرآن الكريم والسُّنَّة يكون صحيحاً منه ما يقابله إجماع الأُمَّة ؛ والعقائد ـ تلك التي خضعت لكفاحٍ قاسٍ في أول الأمر ـ أصبح مُوافقاً للدين منها ما ختم عليه الإجماع بخاتمه النهائيِّ ؛ وهؤلاء الرِّجَال وهذه الكُتُب تعتبر إمامتها إذا اعتبر هذه الإمامة إجماع المسلمين .

وهكذا نرى أن الإجماع قد لعب دوراً هامّاً في الإسلام بما لم يقُم به مبدأٌ مثله ؛ ومن المعروف أن هذا الإجماع لم يأت نتيجة اجتماعٍ مُنظَّم ؛ وإنما كانت دائرته أول الأمر الإحساس الجمعيُّ والرأي العام وصوت الأُمَّة .

وقد حاول العُلماء حدَّه زماناً ومكاناً ؛ أو ردَّه إلى إجماع الصحابة أو عُلماء السَّلف من أهل المدينة أو الحرمين ؛ ولكن هذه المُحاولات شيءٌ ؛ ومظاهره المُختلفة التي رأيت شيءٌ آخرٌ .

وأهمُّ من هذا ـ هو أنَّ الإجماع الذي حقَّق في الماضي قُوَّة التعادُل ومُطابقة العصر ؛ ليس بعيداً أن يكون نواة قُوَّةٍ لِمكافحة الجمود والنفوذ الشخصيِّ ؛ إذا ما أُستُغِلَّ استغلالاً مُرضياً ؛ وهو ما نتركه للمُستقبل .

وقد يظهر غريباً إذا قُلنا إن عوامل التجديد قد أظهرتها وحدَّدتها طريقة أهل السُّنَّة نفسها ـ ذلك أن طريقة أصول الفقه إن تكُن لا خلاف فيها في أوساط أهل السُّنَّة ؛ فقد وُجِدَ من العلماء المُفكِّرين من لم يقبل البقاء بعيداً

عن دائرة الاجتهاد ؛ وظهر له أن التقليد والتمسُّك بمذهبٍ بعينه أمرٌ لا يُحتمل !! ؛ وعند ذلك حدَّد هؤلاء العُلماء من أول الأمر - شعروا أم لم يشعروا - دائرة هذا الأصل الخطير - أعني أصل الإجماع - ؛ وضيَّقُوا من نتائجه - فالإمام الغزاليُّ نادى بالاجتهاد ؛ وكثيرٌ ممن جاء بعده فعلوا ذلك أيضاً ؛ مثل ابن تيمية والسيوطيِّ ؛ وقد استند المُصلحون من ناحيةٍ أُخرى في مُناهضتهم للإجماع إلى أن تحديده بقيَ وقتاً طويلاً مجالاً للأخذ والرَّدِّ ؛ حتى استطاع آخر الأمر أن يأخذ هذا المُحيط الواسع الذي انتهى إليه .

وقد جاهد الحنابلة من بين المذاهب الأربعة جهاداً كبيراً في سبيل الاجتهاد لأجل مصلحة السُّنَّة نفسها التي عُرِفُوا بإحيائها ؛ فابن تيمية وتلميذه ابن القيِّم استعملا هذا السِّلاح ضد البدع الكثيرة المُنتشرة ؛ وقامت على هديهم وفي رُوحهم حركة الوهابيَّة بجزيرة العرب أثناء القرن الثامن عشر - الذين حاربوا البدع وأزالوها من البلاد المُقدَّسة ؛ وتعاليم محمد بن عبد الوهَّاب - مُؤسِّس هذه الحركة - مُتَّفقةٌ تماماً مع تعاليم ابن تيمية ؛ فقد كان يدعو إلى التمسُّك بالدين في الشكل الذي كان عليه في حياة النَّبيِّ وصحابته ؛ وكان غرضه الرُّجُوع إلى الإسلام في الصدر الأول ؛ وذلك إنما يتمُّ بالرجوع إلى الكتاب والسُّنَّة وحدهما ؛ وإذا ما اتَّهمه خصومه بأنه مُخالفٌ للإجماع - حدَّد سُلطان الإجماع وحصره مُخالفاً في ذلك جمهور أهل السُّنَّة ؛ ولا يخفى أن هذه البدع التي حاربها بشدَّةٍ وعدَّها كُفراً كانت في الواقع مقبولةً بإجماع المُسلمين .

وقد بلغت درجة الكفاح أشدّها عندما اُتُّهِمَ ابن تيمية والوهابيون بأنهم خارجون عن الدين وعلى جماعة المسلمين وتعاليم أهل السُّنَّة السائدة ؛ ولكن الوهابيين وقفوا في مكانهم ثابتين مُتمسِّكين بمذهب الإمام أحمد .

وكما أن مرَّ الأيَّام قد خفَّف من الحُكم على ابن تيمية ـ فكذلك أخذ كثيرٌ من المسلمين بعد زوال الخطر الوهابيِّ يُغيِّرُون من رأيهم في هؤلاء العرب المُهاجمين .

ولم تنته آثار حركة الوهابيين بسقوطهم السياسيِّ وهدم عاصمتهم الرياض سنة ١٨١٨ ـ وذلك أن تعاليمهم وآراءهم بقيت مُنتشرةً في الجزيرة العربيَّة ؛ وفي سنة ١٩٢٤ ضمُّوا إليهم بلاد العرب ؛ وأصبح قائدهم الملك عبد العزيز بن سعود الزعيم المُعترف به في البلاد المُقدَّسة .

وإذا كان رُجُوعهم لم يُقابل بشدَّةٍ كما قُوبل به مُنذ مائة عام ؛ وإذا كانوا لم يُرفضوا بقُوَّةٍ إزاء تيَّارات التجديد الحديث ـ فإنهم مع ذلك لم يتركوا تعاليمهم ؛ وأصبح القول بخروجهم عن الدين غير موجودٍ الآن عند جمهور أهل السُّنَّة .

وأهمُّ من هذا كُلِّهِ في هذه الكلمة الإجماليَّة ـ هو أن هذه الحركة الوهابيَّة أخذت تدُبُّ في أثناء القرن التاسع عشر إلى بلادٍ إسلاميَّةٍ أُخرى ؛ وعلى الأخص : بلاد الهند ومصر ؛ ومن بين كُلِّ هذا قد أحدثت دعوتهم بالرجوع إلى الإسلام الأصليِّ الخالص وترك البدع التي حدثت بعد ذلك ؛ والبُعد عن تعقيدات الفُقهاء ومُماحكاتهم ـ قد أحدثت هذه الدعوة تذكيراً للمُسلمين

ومُفكِّريهم الذين لم يُريدوا مُعاداة أيِّ حركةٍ إصلاحيَّةٍ في الإسلام .

ومن هُنا نستطيع أن نُقرِّر : أن الحركة الوهابيَّة كان لها أهميَّةٌ كبيرةٌ بعيدة الأثر في هذه الحركات الإصلاحيَّة الإسلاميَّة التي ظهرت أخيراً ؛ وإن يكن الاتصال بينها وبين هذه الحركات غير مُباشرٍ وغير واضحٍ كُلَّ الوضوح .



.....

❁ ـ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّاب (١)

.....

أصدر صديقنا الأُستاذ الفاضل أحمد عبد الغفور العطّار: الأديب الشاعر الحجازيُّ المعروف كتابه الجديد عن هذا الزعيم العربيِّ المُصلح ـ فسدَّ في كُتُبِ التراجم فراغاً ملموساً ؛ وأسدى به إلى الزعيم المُسلم الصادق يداً سيذكرها له المُعجبون بمحمد بن عبد الوهَّاب في جميع الآفاق .

والكتاب برغم المآخذ القليلة التي يمكن تداركها في الطبعة الثانية ـ هو مصدرٌ نافعٌ ؛ يفيد كُلَّ من يريد الإلمام بالمُصلح النجديِّ ؛ كما يُلقي الضوء على هذه الشخصيَّة العربيَّة التي جدَّدت سُنَّة الرَّسُول الكَرِيم ؛ ودعت إلى العود بدينه إلى الفطرة التي صدر عنها وبشَّر بها ؛ واتخذ من رَسُول الله أسوته الحسنة في كُلِّ ما تجشَّمه بسبيلها .

ونحن في مصر نُرحِّب كُلَّ الترحيب بالكتاب الجديد ؛ ونتمنَّى له الذيوع والانتشار ؛ فإنه لهما أهل .



(١) ـ العدد : ٥١٩ ـ بتاريخ : ١٤ ـ ٦ ـ ١٩٤٣ : الأُستاذ دريني خشبة .

.....

قَضِيَّةُ شُعُوبِ القُوقَاز:

.....

❁ـ تَعْلِيقٌ وَتَحْقِيق (١)

.....

اطَّلعت في عدد « الرِّسالة »[٧٩٨] على ما كتبه الأُستاذ الداغستاني عن « شعوب القوقاز » ؛ فرأيت أن أنقل كلمات في الموضوع من تعليق العلاَّمة العبقريِّ الشيخ محمد زاهد الكوثري في « ترجمة دائرة المعارف الإسلاميَّة » العدد ٩ ج٦ ص٣٤٥:

إنَّ الكُتُب المُؤلَّفة في القوقاس والقوقاسيين إلى الآن غير كافيةٍ ولا شافيةٍ في الاطلاع على جليَّة أحوال تلك البلاد وأهليها ؛ لأنَّ أُمم جبل القوقاس كانوا أقوياء أشدَّاء لا يسمحون للأجانب أن يطئوا أرضهم وديارهم ؛ ولا أن يتوغَّلوا خلالها بعلَّة إجراء بحوثٍ علميَّةٍ ؛ واستمرَّ ذلك إلى سنة ١١٢٧ هـ عام انهزامهم النهائيِّ بعد حروبٍ دامت نصف قرنٍ ؛ ولم تمض مُنذ ذلك التاريخ مُدَّةٌ تتَّسع لبحوثٍ شاملةٍ عنهم ؛ ولا هنـاك حافـزٌ قـويٌّ يحمل البـاحثين على تجشُّم المشاق في سبيل اجتلاء حقـائقٍ عـن أُمَّـةٍ باسلةٍ قاربت حافَّـة الفناء !! ؛ ولذا نجد كلام من يتحدَّث عنهم من الأجانب لا يعدو حدَّ الحدس

---

(١)ـ العدد : ٨٠٠ ـ بتاريخ : ١ ـ ١١ ـ ١٩٤٨ : محمد أسامة عليبة .

والتخمين إلا في النُّدرة !! ؛ وليس بِمُستبعدٍ أن يأتيَ يومٌ يغوص فيه الباحثون على ما يتعلَّق بذلك الجبل ؛ ولا سيَّما لهجات القبائل التي أنجبها عهد الجنس الأبيض القوقاسيّ المُنتشر في بقاع الأرض ؛ حرصاً من هؤلاء الباحثين على تعرُّف صلة لُغات أُمم أُوربة اليوم بلغات تلك القبائل القديمة .

والمعلومات الوثيقة عنهم هي ما في بطون الكُتُب المُؤلَّفة في عهد الدولة الجركسيَّة بمصر ؛ لأنها مُستمدَّةٌ من أبناء القوقاس مُباشرةً في ذلك العهد ؛ ثم إنَّ لبعض الباحثين من أهل تلك الجهات بعض مُؤلَّفاتٍ عن الجبل وقبائله تُنير كثيراً من أحوال القبائل .

وأبناء القوقاسيين لهم أدوارٌ تجب دراسة كُلِّ دورٍ منها بعنايةٍ خاصَّةٍ ؛ منها ما قبل التاريخ الميلاديّ إلى أقدم عهدٍ ؛ ثم من أول التاريخ الميلاديّ إلى الفتح الإسلاميّ في عهد الفاروق ؛ ثم القرون الإسلاميَّة في العهدين الأُمويّ والعبَّاسيّ ؛ إلى استيلاء المغول على القوقاس ؛ ثم صلتهم بالدولة الأيوبيَّة ؛ ثم تأسيسهم الدولتين البحريَّة والبرجيَّة بمصر ؛ ثم صلتهم بالعُثمانيين قبل استيلائهم على البلاد العربيَّة وبعد استيلائهم عليها ؛ وصلاتهم بشتَّى الدُّول في القوقاس وغيره .

وتلك مباحثُ مُتشعِّبةٌ تتطلَّبُ جهوداً جبَّارةً !! ؛ ومما يجب على من يريد الإلمام بذلك أن لا يُهمل المصادر الصينيَّة وما كتبه مؤرخو الصين عن اللان والهون ؛ لأنه سبق للصينيين أن اتسعت رُقعة حُكمهم إلى الجهات الشرقيَّة من بحر الخزر ؛ وكذلك لابُدَّ لمن يريد أن يعرف تاريخ القوقاسيين من

الاطلاع على التواريخ القديمة التي ألّفها مُؤرِّخو بيزانطة ؛ لأنها تشتمل على أخبار الأقوام الآسيويَّة القديمة الذين اجتازوا إلى أُوربة عن شمال القوقاس أو جنوبه ؛ وهؤلاء الزاحفون من الطريقين ما كانوا كُلّهم من عُنصرٍ واحدٍ ولا كُلّهم أتوا من الشرق الأقصى أو من جهة الشمال ؛ بل كان للقوقاسيين الذين هم في طريقهم أثرٌ مُهِمٌّ في توجيههم وقيادتهم ؛ حتى أصبحت أسماء قبائل المُتزعِّمين على هؤلاء كأسماءٍ لجميعهم ؛ وها هي اللانة من أسماء جبل القوقاس ـ فيما حكاه ملطبرون وخونيه ـ قبيلةٌ فرعيَّةٌ من القبائل الأربع للجراكسة ؛ والآوار قبيلةٌ في الجبل يقطنون فيه مُنذ قديمٍ مُحتفظين بسحنتهم الخاصة ولهجتهم الخاصة ؛ وهم وايير أخوان في عداد الآص .



.....

❁ - عَلاقَـةُ الأَدَبِ العَرَبِيِّ بِالأَدَبِ السُّوفيتِيِّ في القُوقَاز (١).

.....

مُنْذُ سنتين ونيِّفٍ تقريباً قامت في الاتحاد السوفيتيِّ حملةٌ أدبيَّةٌ ـ الغاية منها العود إلى المنشأ الصحيح للأدب والفنِّ اللذين تمتاز بهما شُعُوب هذا الاتحاد.

وهذا ـ بحسب رأيهم ـ لا يعني أنَّهم يرفضون قبول أيّ أدبٍ صحيحٍ لأنه من الخارج ـ وإنما يُريدون أن يُثبتوا للملأ أن ما ينسبونه في أدبهم إلى أُممٍ أُخرى؛ هو في الواقع غير صحيحٍ.

وعلى هذا الأساس نشرت المجلَّة الأدبيَّة السوفيتيَّة «ليترانورنايا جازيتا» في عددها الصادر في ١٢ يناير لسنة ١٩٤٩ مقالاً مُطوَّلاً باللُّغة الرُّوسيَّة للأُستاذ كليموفتش في موضوع «المُهمَّة الأدبيَّة اليوميَّة الضاغطة» ـ عالج فيه هذا الموضوع مُعالجةً دقيقةً تخلَّص منها إلى نفي القول بأن الأدب في الجمهوريَّات السوفيتيَّة في القُوقاز يرجع إلى الأدب العربيِّ.

وقد آثرت نقل خُلاصةٍ عن هذا المقال ـ لخُطورته؛ لما له من العلاقة المُباشرة بنا.

---

(١) ـ العدد: ٩٤٢ ـ بتاريخ: ٢٣ ـ ٧ ـ ١٩٥١: للأُستاذ شاكر الدبس.

بعدما يتكلّم كليموفتش عن مكانة الأدب في حياة الشُّعُوب السوفييتيّة ؛ وعن الاهتمام بجعله يتفق مع « التاريخ الأدبيّ الخطير الذي امتازت به رُوسيا » ؛ يعود فيُلقى تبعةً كُبرى على الأُدباء في ضرورة تحرّى الحقائق في تاريخ الأدب في الشرق السُّوفيتيّ ؛ ومن ثَمَّ يبدأ بحث هذا الأدب وعلاقته بالأدب العربيّ ؛ فيقول : بأنه يعتقد بوجود علاقةٍ بين الأدب في هذه الجمهوريّات ؛ وبينه في تُركيا وإيران والعالم العربيّ ؛ ولكنه في نفس الوقت يُنكر كُلَّ الإنكار ما يذهب إليه بعض الأُدباء : بأن منشأ الأدب في هذه الجمهوريّات السُّوفيتيّة هو الأدب التُّركيُّ والإيرانيُّ « الفارسيُّ » والعربيُّ .

ولكي يضع النُّقط على الحُرُوف ؛ ويفهم شُعُوب الجُمهوريّات السُّوفيتيّة الشرقيّة ما هي علاقة أدبهم بالأدب العربيّ ـ يقول :

« إنَّ العرب عندما تخطوا حدود جزيرتهم العربيّة في القرن السابع الميلاديّ ؛ وتغلّبوا على بُلدانٍ أُخرى ؛ ألّفوا منها إمبراطوريتهم الإقطاعيّة التي عُرِفَت باسم الخلافة ؛ وهدوا شعوبها إلى الإسلام ـ عملوا على نشر لُغتهم كلُغةٍ رسميّةٍ ؛ على أساس أنَّ القُرآن قد أُنزل بها ؛ وأنها لُغة الله نفسه ؛ وأن ترجمة القُرآن إلى لُغات هذه الأُمم بان في نظرهم تجديفاً .

أما من ناحية مُستوى العرب الثقافيّ ـ فقد كانوا أقلَّ حضارةً وثقافةً من الكثير من الشُّعُوب التي تغلّبوا عليها ؛ ولكي يُحافظ العرب على سيادتهم عملوا على التخلّص من تُراث الأُمم الأُخرى الأدبيّ والفنيّ .

فبإمكاننا أن نقول : إن هذه الطريقة التي استخدمها العرب لترسيخ قدم

أدبهم وثقافتهم في البُلدان التي تغلَّبوا عليها ـ قد كانت السبب الرئيسيَّ المُباشر في فقد هذه البُلدان تراثها الأدبيَّ الذي كان لها قبل الفتح العربيِّ .

وعلى الرَّغم من نضال هذه الأُمم للإبقاء على أدبها وثقافتها ـ فقد اضطرت إلى استعمال اللُّغة العربيَّة ؛ هذه اللُّغة التي فرض العرب استعمالها فرضاً في إمبراطوريتهم المُترامية الأطراف ؛ التي امتدَّت من الصين والهند شرقاً ؛ إلى مُرَّاكش والأندلس غرباً .

وما يُسمَّى بالأدب العربيِّ والعلوم العربيَّة والثقافة العربيَّة ـ فقد أنشأها على الغالب غير العرب ؛ أي الأُمم التي تغلَّب عليها العرب وحكموها . » .

وقد استشهد كليموفتش في مقاله هذا بالأُستاذ روزين : أُستاذ اللُّغات الشرقيَّة في بطرسبرج « لينينغراد » في سنة ١٨٧٢ ؛ الذي قال :

« إنَّ العرب مدينون في أدبهم وعُلُومهم إلى الفُرس والسُّريان ؛ غير أنه لمَّا كان هذا الأدب وهذه العلوم قد دُوِّنَت باللُّغة العربيَّة ـ فقد عُزِيَ الفخر في هذا الجهد العلميِّ والأدبيِّ والثقافيِّ إلى العرب ؛ يوم كانت أوربا غارقةً في ديجورٍ حالكٍ من الجهل . » .

واستشهد أيضاً بما قاله كراتشوفسكي في سنة ١٩١٩ ؛ إذ قال :

« إنَّ القول بأن الأدب العربيَّ هو من صُنع الأُمَّة العربيَّة ـ إنما هو خطأٌ فادحٌ !! ؛ ذلك لأنَّ الفضل في وجود هذا الأدب يرجع إلى غير العرب ـ الأعاجم ـ الذين دوَّنوا أدبهم باللُّغة العربيَّة ؛ وحتى إلى اليهود والسُّريان والإسبان والأتراك والأقباط والبربر الذين اشتركوا في إيجاده . » .

« راجع كتاب : الأدب في الشّرق / لمؤلّفه : كراتشكوفسكي : ١٩١٩ » .

ثم يعود فيقول :

« ومن المعروف الآن أن العرب ـ بما حصلوا عليه من فخارٍ ؛ نُسِبَ إليهم في حقلي الأدب والعلم ـ مدينون إلى الكثيرين من مُواطنينا ؛ كالأُدباء الذائعي الصيت في أذربيجان وآسيا الوسطى ؛ ومنهم : الفارابيّ ؛ وابن سينا ؛ والخوارزميّ ؛ والبيرونيّ ؛ وسواهم .

ومما هو جديرٌ بالذكر : أنه قد ثبت لمجمعي العلوم في أذربيجان وأوزباكيان أثناء تحرّيهما العلميّ عن منشأ الأدب في بلاديهما : أنه ليس من أصلٍ عربيٍّ ؛ بل من أصل أذربيجانيٍّ وأوزباكيانيٍّ ؛ كان قائماً في البلدين قبل الفتح العربيّ .

وقد بحث المجمعُ العلميُّ في جمهورية يوزك السوفيتيّة منشأ العلم والفلسفة العربيين ـ فتوصّل بنتيجة ذلك إلى الحقيقة التالية ؛ وهي :

« أن الاصطلاح المعروف (بالفلسفة العربيّة) ليس صحيحاً !! ؛ ذلك لأنه قد اشتركت في إيجاد هذه الفلسفة مدارسٌ فلسفيّةٌ مُتعدِّدةٌ ضمّت أعضاءً ليس من العرب فحسب ؛ بل أيضاً من شعوب الشرق الإسلاميّ .

ومع هذا ؛ فإنّ عدداً من العُلماء قد تجاهلوا هذه الحقيقة ؛ وعزوا هذه الفلسفة إلى أصلٍ عربيٍ !! . » .

ويستأنف الأُستاذ كليموفتش مقاله بقوله :

« إنّ وحدة اللُّغة في بلدٍ ما لا تعني وحدة الأدب فيها . » .

واستشهد على صحـة نظريَّته هذه ـ بأن أعطى مثلاً على ذلك : وحدة اللغة بين إنكلترا والولايات المُتحدة الأمريكيَّـة ؛ في حين أن لكُلٍّ من هذين البلدين أدبه الخاص به .

وأعطى مثلاً آخر على ذلك : بُلدان غربي أوربا التي كتبت في العصور الوسطى باللُّغة اللاتينيَّة ؛ وفي نفس الوقت لم يكُن منشأ الأدب فيها لاتينيَّاً .

ثم استشهد بكتاباتٍ أدبيَّـةٍ أُخرى تُعرف باليوتوبية « الخياليَّـة » ؛ كتبها الكاتب الإنكليزيُّ « تُـوماس مُـور » باللغة اللاتينيَّـة ؛ ومع هذا لم تخرج عن كونها أدباً إنكليزيَّاً صرفاً .

وعلى هذا الأساس قال كليموفتش :

« إذا ما عثُرنا على قطعةٍ أدبيَّـةٍ أو فنيَّـةٍ أو فلسفيَّـةٍ ؛ وأردنا أن نعرف ما إذا كان منشؤها عربيَّاً أو فارسيَّاً أو من أيِّ أصلٍ آخرٍ ـ فيجب علينا ـ والحالة هذه ـ أن نتحقَّق أوَّلاً عن كاتب هذه القطعة؟ ؛ وأين كتبها ؟ ؛ وما هي مضامينها الفكريَّة ؟ ؛ وما هي صبغتها الوطنيَّـة ؟

مثال ذلك : إذا أردنا تحليل قطعةٍ أدبيَّـةٍ كُتِبَت باللُّغة العربيَّـة ؛ لنعرف منشأها ـ نجد أن قسماً غير قليلٍ منها ـ على الرغم من كتابته باللغة العربيَّـة ـ يتضمَّن مُيولاً مُعاديةً للعرب من قِبَلِ الشُّعُوب التي تغلَّب عليها العرب .

ونجد في غالب الأحيان أن كاتبي هذه القطع الأدبيَّـة يُعبِّرُون بوضوحٍ عن افتخارهم بكونهم ليسوا مـن أصـلٍ عربيٍّ ؛ ومن هـؤلاء الكُتَّـاب : شـاعر أذربيجان إسماعيل بن يسار ؛ الذي تنازع مع الخليفة هشام ؛ ونُفِيَ على إثر

ذلك إلى الحجاز في بلاد العرب . » .

إلى أن يقول أيضاً :

« وهُنالك أيضاً أُدباءٌ غير عربٍ استولى العرب على بُلدانهم - ترجموا أدبهم الخاص إلى اللُّغة العربيَّة ؛ ليس بقصد إغناء الأدب العربيِّ ؛ وإنَّما بقصد إعطاء العرب فكرةً صحيحةً عن أدبهم ؛ وفي نفس الوقت ليُنافسوا به الأدب العربيَّ ؛ ومن هؤلاء : عبد الله بن المُقفَّع ؛ الذي ترجم كتاب (كليلة ودمنة) إلى اللُّغة العربيَّة ؛ وقد قتله الخليفة في بغداد لدعايته المُعادية للعرب . » .

ومن ثمَّ يتخلَّص صاحب المقال إلى النتيجة التالية ؛ وهي قوله :

« إن ما كتبه الفارابيُّ وابن سينا والخوارزميُّ والبيرونيُّ وسواهم - لا يُمكن اعتباره أدباً عربيّاً صرفاً ؛ أما إذا أردنا أن نقول عنه أنه أدبٌ عربيٌّ ؛ فيكون تحليلنا له - والحالة هذه - تحليلاً ذا جانبٍ واحدٍ .

وأكثر خطأً من هذا أن نقول : إن ما كتبه السوفييت الشرقيين باللُّغة العربيَّة هو أدبٌ عربيٌّ لمُجرَّد أنهم كتبوه باللُّغة العربيَّـة - هـذه اللغـة الغريبـة عنهم - !! ؛ لأنهم لم تكُن لديهم لُغةٌ مكتوبةٌ خاصَّـةٌ بهم ؛ ومن هؤلاء شعوب شمالي القوقاز ؛ الذين دوَّنوا أدبهم باللُّغة العربيَّـة مُنذ القرن السابع عشر حتى ثورة أُكتوبر الكُبرى في سنة ١٩١٧ .

غير أن هذا لا يعني مُطلقاً أنه أدبٌ عربيٌّ - لأنهم مُنْذُ أن فُسِحَ المجال أمامهم - برعاية الحكومة السوفيتيَّـة - لتُصبح لديهم لُغةٌ مكتوبةٌ بعد الثورة ؛ رفضوا أن يكتبوا شيئاً باللغة العربيَّـة .

ومن جهةٍ ثانيةٍ ـ لم يكُن بإمكان شعوب شمالي القوقاز اعتبار القاهرة ودمشق وبغداد وسواها من عواصم الأدب العربيِّ عواصم حقيقيَّة لهذا الأدب؛ لأن هذه الأماكن كانت قبلاً ولايات في السلطنة العُثمانيَّة؛ ومن ثمَّ مُستعمرات (هكذا) إنكليزيَّة وفرنسيَّة.

وفضلاً عن هذا ـ فإن شمالي القوقاز كان قسماً من رُوسيا؛ وقد دخلت شعوبه في نطاق الثقافة التقدُّميَّة وتأثيرها النافع؛ هذه الثقافة التي يتنعَّم بها الشعب الرُّوسيُّ العظيم.».

«فالبلاشفة يعتبرون نفوسهم حُرَّاساً لمصالح الشعوب وحُريتها الوطنيَّة واستقلالها وثقافتها الماديَّة ـ الاقتصادية ـ والرُّوحية ـ العقليَّة ـ؛ ويجُاهدون ضدَّ الإنقاص من قدر حُرمة هذه الشعوب الوطنيَّة وفنُّونها.».

وقد استشهد على هذا بقول «ستالين»: بأن الشعوب السوفيتيَّة تعتقد بأنَّ لكُلِّ أُمَّةٍ ـ كبيرة كانت أم صغيرة ـ مُميزاتها الخاصة؛ والتي لا توجد في أيَّة أُمَّةٍ أُخرى؛ وأن هذه المُميِّزات التي تتمتَّع بها كُلُّ أُمَّةٍ تزيد في تُراث الثقافة العالميَّة العام وتُغنيه؛ ولهذا فإنَّ جميع الأُمم تتساوى من هذا القبيل بعضها ببعضٍ؛ فكُلُّ مُحاولةٍ ـ والحالة هذه ـ للحطِّ من الكرامة الوطنيَّة لأيِّ شعبٍ من الشعوب؛ أو لاستثمار حقوق هذه الشُّعُوب التاريخيَّة؛ بما في ذلك ثقافة هذه الشعوب ـ يجب شجبه شجباً حاسماً؛ كما هو الحال في الاتحاد السُّوفيتيِّ.

ثم يختم كلامه بقوله:

« إن لقضايا الميراث الأدبيِّ أهميَّةً حيويَّةً - فيجب إذن أن لا يُفسح المجال لأيِّ سوءٍ من هذا القبيل .

كما أنَّه من الضروريِّ أن يُفهم أن الرجعيين يستخدمون قضايا كهذه في جميع المُناسبات والأمور !! . » .



.....

❁ - مِن رَسَائِلِ الشَّيْخِ شَامِل (١).

.....

في شهر يونيو من سنة ١٩٤٣ أذاع الأُستاذ أغانوطيوس كراتشكوفسكي مُحاضرةً عن الثقافة العربيَّة في الاتحاد السُّوفيتيِّ ؛ جاء فيها ما يأتي :

« ولا يزال بعض سُكَّان داغستان يتكلَّمون بلُغةٍ عربيَّةٍ قديمةٍ إلى جانب لُغتهم الأصليِّ ؛ ويستخدمونها في التخاطُب والكتابة ؛ وحتى في نظم الشعر وفق الأوزان العربيَّة القديمة ؛ إلخ . » .

ونُشِرَت خُلاصة تلك المُحاضرة في بعض الصُّحُف المصريَّة يومئذٍ ؛ فقام أحد كبار الكُتَّاب المعنيين بالشئون القوقازيَّة ؛ وكتب مقالاً في إحدى الصُّحُف اليوميَّة الكبيرة ـ حاول فيه التشكيك فيما قاله المُحاضر عن ذيوع اللُّغة العربيَّة في بعض جهات الداغستان ؛ وكتبت في ذلك الحين مقالاً طويلاً شرحت فيه مكان اللغة العربيَّة في القوقاز ؛ وبيَّنت أنها عماد الثقافة العامة في الداغستان من أمدٍ بعيدٍ ؛ وقد تفضَّلت « الرِّسالة » الغرَّاء فنشرت ذلك المقال في العدد الأول من سنتها الثانية عشرة ـ يناير سنة ١٩٤٤ ـ .

هذه كلمةٌ وجيزةٌ أردت بها التمهيد قبل نشر بعض الرَّسائل التي عثرتُ عليها مما كتبه الشيخ شامل نفسه في شُؤونٍ مُختلفةٍ بلُغةٍ عربيَّةٍ سليمةٍ ؛ فيها

---

(١) ـ العدد : ٧٥٨ ـ بتاريخ : ١٢ ـ ١ ـ ١٩٤٨ : للأُستاذ بُرهان الدِّين الدَّاغستاني .

سلاسة العبارة ؛ ووضوح الفكرة .

وهي أربع وسائل ؛ عثرتُ عليها اتفاقاً عند أحد شُيوخ الدّاغستانيين في حمص - سورية - في الصيف الماضي ؛ وهذه الرسائل تفيدنا أن شاملاً كان يدعو نفسه - كما كان يدعوه أصحابه وأتباعه في القوقاز - : (أمير المؤمنين) .

كما نعرف منها : أن اسمه المعروف به هُناك هو « شمويل » ؛ وإن اشتهر في خارج بلاد القوقاز باسم الشيخ شامل .

.....

وهذه هيَ الرَّسَائِل :

- ١ -

من أمير المؤمنين شمويل : إلى والده الأعز جمال الدين ؛ وإلى أخويه الكريمين : الحاج على العسكري ؛ والقاضي حجيو ؛ وإلى أهل بيته ؛ وإلى كافة جماعة القريتين :

سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

أما بعد ؛ فلقد وقع بيننا وبين الكُفّار وقائعٌ وحُرُوبٌ ؛ بحيث لم يقع مثلها إلى الآن في ديار « ججان » !! ؛ بل في ديار داغستان !! : يومي الأحد والاثنين بالمدافع الكبار والصغار والسيوف الصوارم ؛ ونصرنا الله تعالى وأيّدنا تأييد النّبيِّ المُخْتَارِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّم - ؛ وخذل أولئك الملاعين أينما توجّهوا ورجعوا من أمام باب شُعيب إلى قلعة « أي سنقر » مقهورين مُنهزمين ؛ بحيث لا يرجعون إلى ديارنا بعد ؛ فحمدنا الله تعالى وشكرناه على

أياديه العظام وإعانته لنا ؛ وهذا بُشرى لكم أيُّها الكرام ؛ ولعلَّ هذا التأييد بسبب بركات دعواتكم وخُشُوعكم وتضرُّعكم .

ونحن نرجع إلى الأوطان بلا طول فصلٍ - إِن شَاءَ اللهُ تَعَالَى - ؛ والباقي يُخبركم الحامل بالتفصيل التام .

هذا والسَّلام .

.....

- ٢ -

من الكتاب الفقير شمويل : إلى إخوانه الكرام : قاضي وعُلماء وجميع جماعة « بن » :

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ؛ وصانكم الله تعالى من كُلِّ آفةٍ ما ظهر منها وما بطن ؛ آمين .

أمَّا بعد :

فاعلموا - يا إخواني - أني تركت أخذ كافلكم للرهن ثقةً بكم أن لا تخونوا دين الله تعالى ؛ ورجاء أن يكون ذلكم التُّرك سبباً لزوال الكُدُورة من بينكم ؛ وزيادة الأُلفة والمحبَّة فيكم ؛ فلا تحاسدوا ؛ ولا تدابروا ؛ ولا تباغضوا ؛ ولا يقصد بعضكم ضرَّ بعضٍ ؛ ولا تكونوا جواسيس « أنصال » لإيصال المضرَّة إلى بعضكم ؛ وكونوا عباد الله إخواناً .

هذه نصيحةٌ من الفقير ؛ فمن لم يقبلها ولم يعبأ بها وسعى بمُخالفتها - فإن أصابه منَّا تعزيرٌ بليغٌ - ولا شك أنه يصل إن شاء الله تعالى بعونه وقُوَّته

إما بالقتل أو ما هو أيسر منه ـ ؛ فلا يلومنَّ إلا نفسه ؛ والباقي يخبركم الحامل بأوضح بيان ؛ بالمُشافهة واللسان .

والسَّلام .

.....

ـ ٣ ـ

من أميـر المؤمنين شمويل : إلى خادم الكُفَّـار ؛ ومُحارب القهَّار ؛ وخليل الشيطان الغرَّار : أغـلار

سلامٌ على من اتَّبع الهُدى ؛ ونهى النفس عن موادَّات العِدَى

أمَّا بـعـد :

فإن هذا النَّصرانيَّ قـد اختار دين الإسـلام ؛ عن خدمة عبدة الأوثان والاصنام ؛ وإن اخترتـم العكـس !! .

هذا ؛ والسَّلام .

.....

ـ ٤ ـ

من أمير المؤمنين شمويل : إلى أخيه النائب أبي بكـر

سـلامٌ كثير

فالذي يقوله هؤلاء الحاملون من أخذ مزارع البنات المُتزوجة إلى الأُخرى ـ مما لا يقبله العقل والنقل ؛ فاحذر منه .

والسَّلام .

يوم السبت ٣ من جُمادى الأُولى سنة ١٢٧١ هـ .

.....

هذا هو نصُّ الرسائل التي عثُرتُ عليها ؛ وهي - كما رأى القارئ - : رسائلُ عربيَّـة الإهاب ؛ واضحة الأُسلُوب ؛ مع مُراعاة أنها كُتِبَت قبل نحـو مائة سنة ؛ وأن كاتبها رَجُلٌ لم يُغادر بلاده إلى بلادٍ عربيَّةٍ ؛ فضلاً عن أنه كان مدى ثلاثين سنةٍ مُتواصلةٍ في حربٍ مُستمرَّةٍ مع عدوٍّ قويٍّ جبَّارٍ .

والرسائل الثلاث الأُولى كُتِبَت في إبَّان الثورة ؛ وفي شُئُونٍ مُتَّصلةٍ بها أشدَّ اتِّصالٍ ؛ والرسالة الرابعة كُتِبَت ردَّاً على استفتاءٍ في شأنٍ من شُئُون الحياة ؛ وتمتاز عن بقيَّـة الرسـائل بأنهـا مُذيَّـلةٌ بتـاريخٍ ؛ وهو : السـبت ؛ الثالث مـن جُمادى الأُولى ؛ سنة إحدى وسبعين ومائتين وألفٍ من الهجرة ــ أي قبـل استسلام شامل بنحو خمسة أعوامٍ ؛ فقد اضطرَّ إلى التسليم في صفر سنة ستٍّ وسبعين ومائتين وألف .

والشيخ شامل كان لا يعرف اللُّغة الرُّوسيَّة مع أنه عاش في بلادٍ كان نفوذ الرُّوس فيها عامَّاً شاملاً في كثيرٍ من الأوقات !! ؛ بل كان لا يعرف إلى جانب لُغته الأصليَّة إلا اللُّغة العربيَّـة التي كان يُحسنها إحساناً ؛ فقد ذكر الفيكونت فيليب دي طرازي في « تاريخ الصحافة » ؛ [جـ٢ / صـ ١٧٣] عند كلامه عن سليم دي نوفل واستدعائه سنة ١٨٦١ م لتدريس اللُّغة العربيَّـة في جامعة بترستبورغ ما يأتي :

« واتفق أنَّ شاملاً المشهور الذي حارب رُوسيا مُـدَّة ٣٢ سنة ـ خضع وسلَّم لها في ذلك الزمن ؛ وكان لا يحُسن اللُّغة الرُّوسيَّة ؛ بل العربيَّـة ؛ فكان سليم تُرجماناً بينه وبين القيصر إسكندر الثاني . » .

وعلى ذكر القيصر إسكندر الثاني ؛ أقول :

« ذكر الفريق محمد فاضل باشا الدَّاغستاني ؛ الذي كان أسيراً لدى الرُّوسيين مع الشيخ شامل ـ هذه الحادثة :

كان الشيخ شامل مدعوَّاً إلى إحدى الحفلات المُقامة في قصر الإمبراطور إسكندر الثاني ؛ وبينما كان جالساً بجانب القيصر إسكندر الثاني على المائدة ـ التفت إليه القيصر ؛ وأظهر له عظيم الاحترام والتقدير !! ؛ وقال له :

(إنني فخورٌ جداً أن أرى في مثل هذا اليوم السعيد رَجُلاً عظيماً مثلكم في ضيافتي !!) . » .

فلم يترك شامل هذه التحيَّة تمرُّ بسلامٍ ـ فالتفت إلى القيصر ؛ وأجاب بهدوءٍ :

« لو أن شخصكم الكريم كان في أسرى وضيافتي ؛ لكان سُرُوري أعظم وافتخاري بذلك أجل !! . » .

رحم الله شاملاً وبرَّد أثره !! ؛ فقد عاش كريماً يُناضل في سبيل دينه ووطنه أكثر من ثلاثين عاماً ـ حتى إذا اُضطرَّ إلى إلقاء السلاح والاستسلام إلى عدوِّه لم تُفارقه رُوح الرَّجُل المُسلم المُناضل الحُر ؛ ولو كان جليسه

إمبراطور رُوسيا القيصر إسكندر الثاني !! .



.....

❁ - في المَسْجِدِ الأَقْصَى (١).

.....

وانتهى بنا السَّير مع هذه الآثار والذِّكر إلى التكيَّة البُخاريَّة ؛ وهي التي اتُّخِذَت متحفاً إسلاميّاً ؛ بعد أن ضُمَّ إليها قسمٌ من مسجد النساء .

صُفَّت في مدخل المتحف - وبداخل التكيَّة - رُءوسٌ من العمد القديم التي كانت بالمسجد الأقصى ؛ ونُقُوشٌ وحليٌ وكتابةٌ من آثار العُصُور الماضية .

وفي البهو الواسع الذي اقتُطع من المسجد آثارٌ قليلةٌ جليلةٌ ؛ صغيرةٌ في العين ؛ كبيرةٌ في القلب ؛ هي كسلاح البطل المُجاهد ؛ عُدَّةٌ قليلةٌ تُحدِّث أخبار طويلة !! ؛ وسُيُوفٌ ورماحٌ ؛ وهي عُنوانٌ لتاريخٍ من الكفاح .

رأينا فيما رأينا : المُصحف الذي كتبه بخطِّه السُّلطان عبد الحق - من سلاطين بني مرين بالمغرب - ؛ وقد كتب هذا السُّلطان التقيُّ بيده ثلاثة مصاحف ؛ أهداها إلى المساجد الثلاثة : في مكَّة ؛ والمدينة ؛ وبيت المقدس .

ورأينا في المتحف : سيف الشيخ شامل ؛ المُجاهد الذي أبلى أحسن البلاء في الدِّفاع عن البلاد الإسلاميَّة في القوقاز .



---

(١) - العدد : ٥٤٠ - بتاريخ : ٨ - ١١ - ١٩٤٣ : للدكتور عبد الوهَّاب عزَّام .

.....

- مِن قَادَةِ الإِصْلاَحِ فِي القَرْنِ الثَّالِثِ عَشَر: (١).

.....

✿ - الشَّيْخُ شَامِل
زَعِيمُ القُوقَاز ... وَشَيْخُ المُجَاهِدِين
﴿ ١٢١٢ - ١٢٨٧ هـ = ١٧٩٧ - ١٨٧١ م ﴾

.....

- ١ -

- الدَّاغِسْتَان:

تشغل بلاد الداغستان مُعظم القسم الشرقيِّ من بلاد القوقاز؛ وتمتدُّ على الساحل الغربيِّ لبحر قزوين؛ ما بين مصبِّ نهر « ترن » شمالاً؛ وشبه جزيرة « ابشرون » جنوباً؛ وتحدُّها قمم جبال القوقاز العالية؛ مثل « البرز » و « قازيك »؛ وممر « دريال » الشهير؛ وبعض بلاد الكرجستان غرباً؛ ومجرى نهر « ترن » شمالاً؛ وجمهورية أذربيجان جنوباً - هذه البلاد التي تُسمَّى بالداغستان.

ومعنى الداغستان: بلاد الجبال؛ وليست هذه المنطقة كلها جبالاً كما يتبادر لأول وهلةٍ؛ ولكن طبيعة الجبال هي الغالبة فيها.

---

(١) - العدد: ٧٢٧ - بتاريخ: ٩ - ٦ - ١٩٤٧: للأُستاذ بُرهان الدين الدَّاغستاني.

كانت هذه المنطقة المجاز الذي يجتازه الفاتحون الآسيويون إذا أرادوا الإغارة على أوربا وبلاد الرُّوسيين ؛ ويعبره الروسيون والتتار من الشمال إلى الجنوب إذا أرادوا التوغُّل في آسيا ؛ ولذلك كانت ـ دائماً ـ محط أنظار كل الفاتحين والغُزاة من قديم العصور إلى يوم الناس هذا .

وما كاد المُسلمون يبدءون عهد الفتوح أيَّام عمر بن الخطاب ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ حتى وصلت طلائعهم المُظفَّرة إلى هذه البلاد سنة ٢٢ من الهجرة ؛ يوم جاء : سُراقة بن عمرو ؛ وبكر بن عبد الله ؛ وعبد الرحمن بن ربيعة ؛ مع إخوانهم من المجاهدين ؛ ثم تتابعت الجيوش الإسلاميَّة إلى هذه البلاد وتلاحقت ؛ وكانت « دربند » ـ عاصمة الداغستان ـ ثغراً من ثغور المُسلمين التي يُرابط فيها في سبيل الله .

.....

ـ أَطْمَاعُ الدُّوَلِ الكَبِيرَةِ فِيهَا :

استقرَّ الحُكم العربيُّ الإسلاميُّ في هذه البلاد ؛ وسارت في طريقها المُهيَّأ لها في هذه الحياة ؛ حتى إذا زال عنها سُلطان العرب السياسيُّ حافظت هي على تُراث العرب الرُّوحيِّ ـ الإسلام وتعاليم الإسلام ـ ؛ فكانت تستقلُّ بشئون نفسها حيناً ؛ ويحتلُّها فاتحٌ جديدٌ أحياناً ؛ حتى كان أواخر القرن العاشر الهجريِّ ؛ فاحتلها العُثمانيون في عهد مُراد الثالث ؛ وهنا بدأت صفحةٌ جديدةٌ من تاريخ هذه البلاد ـ فقد نبَّه احتلال العُثمانيون لها أطماع

الرُّوسيين من الشمال ؛ وحفّز الإيرانيين من الجنوب ؛ فصارت مثار أطماع هذه الدول الثلاث ؛ فكانت تحتلُّها هذه فترةً ؛ وتلك فترةً أُخرى .

وهكذا إلى سنة ١٢٣٢هـ ـ ١٨١٦ م : حيث تنازل الإيرانيون عن كُلِّ حقٍّ لهم بهذه البلاد وحُكمها للرُّوسيين ؛ واحتلها هؤلاء .

.....

ـ أثَرُ هَذَا الاحْتِلالِ الجَدِيدِ في أهْلِ البِلاَدِ :

وكان طبيعيّاً أن يكون لهذا الفاتح الجديد أثره وتأثيره في البلاد وأهل البلاد ـ فأخذ يتودَّدُ إلى الأهالي ويستميلهم بكُلِّ ما وسعته الحيلة من ترغيبٍ وترهيبٍ ؛ ويظهر أن سياسة الترغيب هذه لقيت نجاحاً إلى حدٍّ ما ؛ وقد صوَّر الشيخ محمد طاهر القراخيُّ الداغستانيُّ هذه الفترة تصويراً دقيقاً ؛ إذ يقول :

« وفي هذه الآونة ـ حوالي سنة ١٢٤٠ هـ [١٨٢٤] ـ زاد اتصال الأهالي الداغستانيين بِمُستعمريهم ؛ طمعاً فيما يملكونه من مالٍ وسُلطانٍ ؛ أو يمنحونه من قُلادةٍ أو وسامٍ ؛ وكان من أول نتائج هذا الاتصال : أن ابتعد المُسلمون شيئاً فشيئاً عن أحكام دينهم الذي أُشربُوا حُبَّهُ ؛ وتغلغل في أعماقهم ؛ ونسوا أوامره ونواهيه ؛ وأصبحوا مُسلمين بأسمائهم فقط !! ؛ وكانت البلاد في هذه الفترة خاليةً من العُلماء العاملين والمُرشدين المُخلصين الذين يُحسنون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر !! .

فانتهز هذه الفُرصة بعض الجُهَّال المُتزيين بزيِّ العُلماء ؛ وعلى الخصوص قُضاة وحُكَّام منطقة (الزكستان) ؛ وأخذوا يتَّصلون بالجماهير ليُلقوا في

نفوسهم أن سياسة الحكومة القيصريَّة واستعمارهم لبلادهم. ولعلَّهم كانوا يعتقدون ذلك. هو عين العدل والإنصاف !!

وكان لعمل هذه الطائفة أثره الكبير في وسط الجماهير من المُسلمين ـ فازدادت صلاتهم بالمُستعمر؛ وأخذوا يُرسلون شُبَّانهم ليقُوموا ببعض الوظائف والأعمال والدواوين الرُّوسيَّة؛ ثم تطوَّرت الأمور إلى أبعد من ذلك؛ وصاروا يُحبِّذون السياسة الرُّوسيَّة التي تنتهجها نحو بعض الممالك الإسلاميَّة؛ وجنَّدوا أبناءهم في الجيوش الرُّوسيَّة المُوجَّهة لغزو بلاد المُسلمين !!.)).

.....

ـ مَوْلِدُ الشَّيْخِ شَامِل:

في مطلع هذه الحوادث؛ وفي هذا الجوِّ المُضطرب المُتقلِّب ـ وُلِدَ شامل سنة ١٢١٣هـ [١٧٩٧م] في قرية ((كمرا)) من قُرى منطقة ((آوار)) من بلاد الداغستان؛ ونشأ بها كما ينشأ لِدَاتُهُ؛ وتعلَّم في مدارس المساجد المُنتشرة في قُرى الداغستان ودساكرها؛ وأخذ بحظٍّ لا بأس به من الدراسات الدينيَّة والعربيَّة؛ وكانت الطريقة النقشبنديَّة قد بدأت بالانتشار في تلك الجهات على يد السيد جمال الدين القموميِّ والشيخ محمد اليراغيِّ؛ فانتظم في سلك مُريدي تلك الطريقة الصُّوفيَّة؛ فصار العالم الدينيُّ الصُّوفيُّ في آنٍ واحدٍ.

ولمَّا بلغ شامل الثلاثين من حياته سنة ١٢٤٢ هـ [١٨٢٦م] واشتد ساعده ـ ظهر في قرية ((كمرا)) العالمُ المُجدِّدُ المُصلحُ الشيخ الغازي مُحمَّد الكمراويُّ؛

الذي هاله ما وصلت إليه حال البلاد والعباد من التأخُّر الدينيّ !! ؛ والفساد الخُلقيّ !! ـ وقام يدعو الناس إلى الرُّجُوع إلى دينهم ؛ والتمسُّك بآداب وأحكام الإسلام ؛ فكان « شامل » من أوَّل التابعين له والداعيين بدعوته ؛ ولازمه مُلازمة الظلّ ؛ وأصبح أحد مريديه وأعوانه المُقرَّبين إليه .

واستمرَّت هذه الدعوة الاصلاحيَّة الليِّنة المُسالمة تسير في طريقها المُسلوكة ـ تلقي القبول والسمع تارةً ؛ والرفض والإباء والسُّخرية والإزدراء تارات !!

وفي سنة ١٢٤٥ هـ [١٨٢٩م] قرَّر « الغازي محمد الكمراويُّ » على أنه لابُدَّ لكُلّ دعوةٍ إصلاحيَّةٍ جديدةٍ من قُوَّةٍ تُسندها ؛ وإلا فلا آمل في نجاحها ـ ولذلك بدأ يجُنِّد بعض الذين استجابوا لدعوته ؛ ويخُوِّف بهم المُخالفين له والباغين عليه .

وفي هذه المرحلة أيضاً نجد « شاملاً » أحد قُوَّاد الفرق التي كان يبُثُّها الغازي محمد ؛ ويبعثها إلى الجهات للإغارة والتأديب .

وكثُرت مُصادمات الغازي محمد الكمراويّ مع العُصاة والمُخالفين الخارجيين على أحكام الدِّين ؛ ومع رجال الدولة المُستعمرة ـ فكان يحُالفه الظفر والنصر في بعض الأوقات ؛ ويخونه الحظُّ في أحيان ؛ ولكن « شاملاً » في كُلّ الحالات كان الرفيق المُلازم ؛ والمُريد المُخلص لأُستاذه وقائده .

ولَّما حاصر الرُّوسيُّون الغازي محمد الكمراويَّ وأصحابه في قرية « كمرا » في يوم الاثنين الثالث من جُمادي الآخرة سنة ١٢٤٨ هـ [٢٨ أكتوبر سنة ١٨٣٢ م] كان شامل مع الذين لازموه ؛ ودخلوا معه أحد المنازل في القرية

وتحصَّنوا في داخله ؛ فلما اشتدَّ الحصار ؛ وضيَّق الرُّوسيون الخناق ؛ قام الغازي محمد ؛ وقذف بنفسه على الرُّوسيين ؛ وقاتل حتى قُتِلَ أمام باب ذلك المنزل وسيفه في يده ؛ ورأى شامل استشهاد قائده ؛ فقام في رفاقه خطيباً ؛ وقال ما مُؤدَّاه:

« إذا كان الغازي محمد وقع شهيداً ؛ فلا ينبغي لنا أن نضيع وقتناً بالبُكاء عليه ؛ ولعلَّنا نسير في الطريق التي سار فيها ونلحق به ... ؛ إن حُور الجنَّة ينتظرن ذهابنا إليهنَّ شُهداء أبراراً ؛ فبدلاً من أن نموت كما يموت الجُبناء في مكانٍ مُغلقٍ مُسدَّدٍ ؛ نخرج ونُقاتل حتى تأتينا الشهادة ونموت كراماً . » .

ثم شدَّ على حُسامه ؛ ورفع صوته بكلمة التوحيد - لا إله إلا الله - ؛ وقذف بنفسه إلى حيث الموت الشريف أو الحياة الكريمة ؛ وقاتل شامل قتال المُؤمن المُوقن بما عند الله للمُجاهدين من إحدى الحُسنين ؛ وأُصيبَ في أكثر من موضعٍ واحدٍ من جسمه ؛ ولكنه كان مُؤمناً بالله وطالباً للشهادة في سبيله ؛ فلم تخر عزيمته ولا ضعُفَ ولا وهن ؛ فظل يُحارب ويُقاوم ؛ وانجلت المعركة ؛ ونجا شامل بنفسه ؛ ولكنه ما كاد يبعد عن هذا الجحيم ؛ ويسير في شَعَبٍ من تلك الشِّعاب بضع خطواتٍ حتى خارت قواه ؛ وضعُفَ جسمه ؛ فلم يستطع مُواصلة السير ؛ وقضى ليلته على قمَّة جبلٍ هُناك ؛ تحت رحمة المقادير !! ؛ مُعرَّضاً لتقلُّبات الطبيعة القاسية في تلك الأصقاع .

كان الهواء قاسياً قارساً ؛ وكان شامل عاري الرأس ؛ مجروح الصدر ؛ مُلطَّخاً بالدم فى جميع أجزاء جسمه !! ؛ ولكنه لم يك ليشتكي من هذه

الحال التي صار إليها أو يتألّم !! ؛ بل إنه كان يشكر الله سُبحانه ويحمده على لُطفه في القضاء !!

وفي اليوم التالي أتته النَّجدة ؛ فجاء بعض أعوانه ؛ وأركبوه فرساً ؛ وساروا به إلى حيث أهله وعياله وأُسرته .

ويبقى شامل طريح الفراش أسير الجراح ثلاثة أشهُرٍ كاملةٍ ؛ لا يبرح بيته ؛ ولا يستطيع الوقُوف على قدميه !!



.....

- مِن قَادَةِ الإِصْلاَحِ في القَرْنِ الثَّالِثِ عَشَر: (١).

.....

✿ - الشَّيْخُ شَامِل

زَعِيمُ القُوقَاز ... وَشَيْخُ المُجَاهِدِين

(١٢١٢ - ١٢٨٧ هـ = ١٧٩٧ - ١٨٧١ م)

.....

- ٢ -

- شَامِل تَحْتَ قِيَادَةِ حَمْزَة بِك:

وبعد أن استشهد الغازي الكمراويُّ في معركة يوم ٢ جُمادي الآخرة ١٢٤٨هـ - اجتمع العُلماء والأعيان وأصحاب الشأن في ولاية «آوار» وانتخبوا حمزة بك خلفاً للغازي محمد الكمراويِّ؛ وقائداً لحركة الإصلاح الدينيَّة؛ وحاملاً لِعَلَمِ الثورة الوطنيَّة - وسلك حمزة بك مسلك سلفه من أخذ الناس باللين والهوادة؛ ودعوتهم بالحُسنى إلى اتباع أحكام الدِّينِ ورعاية آدابه - فأخذ يطُوف القُرى والدساكر مُرشداً ناصحاً؛ يدعو إلى دين الله والعمل به - ولكنه أيقن - كما أيقن سلفه من قبل -: أن الدعوة التي لا

---

(١) - العدد: ٧٢٨ - بتاريخ: ١٦ - ٦ - ١٩٤٧: للأُستاذ بُرهان الدين الدَّاغستاني.

تُظاهرها القُوَّة وتُسندها : حقيقةً بالفشل ـ فبدأ يجمع المُتطوِّعين ؛ ويُنظِّم صفوفهم ؛ ويُوجِّههم إلى المُعاندين الذين كانوا يحولون بين الدعوة الإصلاحية وذُيوعها .

وهُنا أيضاً نجد شاملاً يشدُّ أزر حمزة بك ويعضده ؛ ويُلازمه في جميع حملاته التأديبيَّة ومعاركه الحربيَّة التي خاضها ؛ فإنه كما كان القائد المُحنَّك والمُريد المُطيع لدى الغازي محمد الكمراويِّ ؛ ظلَّ كذلك مع حمزة بك أيضاً ـ حتى قُتِلَ هذا غيلةً بينما كان ذاهباً لأداء فريضة الجُمعة في قرية « خنزاع » في أواخر سنة ١٢٥٠ هـ [١٨٣٤م] .

.....

ـ شَامِل في قِيَادَةِ الحَرَكَةِ الدِّينِيَّةِ الوَطَنِيَّة :

بعد اغتيال حمزة في أواخر سنة ١٢٥٠ هـ ـ اتجهت الأنظار إلى شامل ليقوم بقيادة الحركة التي بدأت من نحو خمس سنواتٍ بقيادة الغازي محمد الكمراويِّ ؛ ولكنَّ شاملاً لم يكُن بالرَّجُلِ الطامع في قيادةٍ أو رياسة ؛ فحسب أن يقوم بواجبه كيفما اتفق ؛ بل كان بودِّه أن يظلَّ بعيداً عن مشاغل القيادة ومشاكل الرياسة وما يتصل بها م مطامعٍ ومتاعبٍ ؛ ولذلك ثار وغضب لمَّا فُوتِحَ في أمر إسناد الرياسة إليه !! ؛ ولكن إصرار العُلماء والأعيان وأصحاب الشأن في منطقة « آوار » ـ مهد الحركة الثوريَّة ـ وإجماعهم على ضرورة قيامه بقيادة هذه الحركة ـ جعل شاملاً يستجيب لصوت الواجب ؛ ورضىَ

أن يتولّى الإمامة - كما كانوا يُسمُّونها - بعد سلفيه الغازي محمد وحمزة بك .

إنَّ تولّى شامل قيادة الثورة الوطنيّة الدينيّة في الداغستان - كان نُقطة التحوُّل في هذه الحركة ؛ فقد تبدَّل فيها كُلُّ شيءٍ وتغيَّر ؛ وانتشرت رُوح الحركة والنشاط في كُلِّ اتجاهٍ ؛ وظهرت نواحي العظمة والعبقريّة في هذا القائد الجديد سريعاً !! ؛ فدبَّت الحركة النشاط في الثَّورة والثُّوَّار ؛ واشتعلت نار الحماسة في صُدُور أُولئك الجبليين من أهل القُرى والأكواخ ؛ وتحوَّلت الثورة التي سارت خمسة أعوامٍ في بُطءٍ وهوادةٍ إلى : حربٍ مُنظَّمةٍ !! ؛ وقيادةٍ مُحكمةٍ !! ؛ وجنودٍ مُدرَّبين !! ؛ وأنظمةٍ ماليّةٍ وقضائيّةٍ كأحسن ما تكون الأنظمة الماليّة والقضائيّة في البلاد !! ؛ وإنشاء الإدارة المدنيّة في كُلِّ مدينةٍ أو قريةٍ وقعت تحت سُلطانه !!

كان كُلُّ شيءٍ قبل تولّى شامل الرياسة يسير على الفطرة والطبيعة الهادئة البدائيّة ؛ لا أثر للنظام والإحكام فيه ؛ كان واجباً على المُتطوِّع أن يكفي نفسه ويمُونها بما هي في حاجةٍ إليه من غذاءٍ وكساءٍ وسلاحٍ ؛ فوق ما يُصاب به في نفسه وماله ؛ وما يلحقه من جرَّاء اشتراكه في الثورة من متاعبٍ وخسائرٍ !! ؛ ولم يكُن لهؤلاء المُتطوِّعين نظامٌ يسيرون عليه ؛ وتدريبٌ يُعدُّهم للأعمال الحربيّة ؛ فكان كُلُّ واحدٍ منهم يقوم بما يستطيعه تحت مسؤليته وعلى حسابه وعلى الوجه الذي يتراءى له !!

وكما لم يكُن هُناك - قبل رياسة شامل - نظامٌ للمُتطوِّعين وتدريبهم ؛ فإنه

لم يكن عندهم ما يُسمَّى بالإدارة الماليَّة المُنظَّمة لحركة الثورة ؛ فكُلُّ شيء كان يسير - كما قدَّمتُ - حسب الظروف ؛ وعلى أساليبٍ فطريَّةٍ أوليَّةٍ ؛ لا أثر فيها للدقَّة ولا للنظام والإحكام !!

فلما تولَّى شامل قيادة الثورة - أنشأ - أول ما أنشأ - بيت المال على حسب نصوص الشريعة الإسلاميَّة ؛ وعيَّن لهذا البيت الجُباة والأُمناء والعاملين ؛ وجعل للمُتطوِّع حقّاً معلوماً في الغنائم ؛ فكان يُخمِّس كُلَّ ما يصل إلى يده من أموال الأعداء ؛ فيضُم خُمسه إلى بيت المال ؛ ثم يقسم الأخماس الأربعة الباقية بين المُجاهدين المُحاربين ؛ وأحيا بذلك سُنَّةَ الرَّسُولِ الأَعْظَمِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وخُلفائه في قسمة الغنائم بين بيت المال والمُجاهدين تطبيقاً لكتاب الله الكريم وعملاً بما جاء به :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ؛ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ؛ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ - [الأَنْفَال : 41] - ؛ فكوَّن بذلك أساس النظام الاقتصاديِّ ؛ وأمَّن الناحية الماديَّة في الثورة ؛ كما أغنى المُجاهدين المُتطوِّعين ؛ وسدَّ حاجاتهم بما ينالونه من الغنائم ؛ ولم يكتف بذلك - بل وجَّه نظره إلى تحسين الجيوش وتدريب المُتطوعين على نُظُم القتال والحُرُوب ؛ كما عنى العناية البالغة بأمر أسلحة هؤلاء المتطوعين ؛ وعمل على إبلاغها إلى الحال التي تصلُح للقتال بها مع جيوش الرُّوسيين ذات العُدَدِ وَالعَدَد .

ومع أنَّ هَمَّ شامل ـ كُلَّهُ أو جُلَّهُ ـ كان مُنصرفاً إلى الناحية الحربيَّة وإعداد المُحاربين ؛ وتهيئة كُلِّ الأسباب التي تُمكِّنهم من القيام بواجبهم الوطنيِّ على الوجه الأكمل ـ فإنه مع ذلك لم يكُن ليُهمل النواحي المدنيَّة والعُمرانيَّة ؛ فقد كان معنيَّاً جدًّاً بتوطيد نظام القضاء الشرعيِّ في تلك البلاد ؛ فكان يُعيِّنُ في كُلِّ قريةٍ يستولي عليها قاضياً يفصل بين أهلها فيما يعرض لهم من أحكام دينهم ؛ ويُقيم حدود الإسلام ؛ ويُنفِّذ أحكامه فيهم .

وليس هذا فقط ـ فقد كان يُوجِّه إلى الأقاليم والمناطق التي تخضع له « نُوَّاباً » عنه يقومون بالإدارة المدنيَّة في تلك الجهات ويُشرفون على جميع شئونها ؛ وكانت مهام هؤلاء النُّوَّاب في أقاليمهم شبيهةً بِمُهمَّة المُحافظين والمُديرين ؛ فكانوا مسؤولين عن جباية أموال بيت المال ؛ وتنظيم حركة المتطوعين ؛ والمُحافظة على السلام والأمن العام ؛ وحماية السُّلطة القضائيَّة ؛ وتنفيذ أحكام القُضاة ؛ وعلى العموم : فقد كان هؤلاء « النُّوَّاب » يقومون في أقاليمهم بِمُهمَّة الحُكَّام ؛ لهم ما للحُكَّام من إشرافٍ على مصالح الإقليم ؛ ورعاية حقوق الناس ؛ وصون أموالهم ونفوسهم ؛ وتنفيذ الأحكام التي يُصدرها القُضاة الشرعيُّون .

وإذا نحن تركنا الناحية المدنيَّة من إنشاء بيت المال وتنظيم إدارةٍ وما إلى ذلك ؛ ووجَّهنا نظرنا إلى الناحية الحربيَّة وآرء شامل فيها ـ وجدنا الفرق كبيراً والبون شاسعاً بين العهد الذي سبق شاملاً والعهد الذي نشأ بعد تولِّي شامل القيادة !! ؛ فالثورة في عهد الغازي محمد الكمراويِّ وحمزة بك كانت

أشبه ما تكون بتلك الحركات السلبيَّة التي تظهر في كُلِّ بلدٍ على إثر احتلالٍ جديدٍ من فاتحٍ أجنبيٍّ ؛ تظهر هُنا مـرَّةً وهُنـاك مـرَّةً أُخـرى ؛ وتظهر في آنٍ لتختفي في أحيان ؛ ولكن الحـال في عهـد شـامل مـن سنة ١٢٥٠ ـ ١٢٧٦ هـ [١٨٣٤ ـ ١٨٥٩ م] تغيَّرت تغيُّراً كبيراً !! ؛ فقد أصبحت الثورة حركةً عامَّةً شاملةً ؛ وأصبح لها قيادةٌ رسميَّةٌ ومقرٌّ يُصرِّف الأُمُور ؛ ويُوجِّه الحركات ؛ ويتلقَّى الأنباء ؛ ومُعتقلات لإيواء الأسرى ؛ وسجون لحبس الخارجين على أحكام الشريعة أو من صدرت ضدهم أحكامٌ قضائيَّةٌ .

وأنشأ الشيخ شامل حكومةً وطنيَّةً في الدغستان ؛ كانت في كثيرٍ من الأوقات ـ مدى رُبع قرنٍ ـ تبسط سُلطانها على أغلب البلاد الداغستانيَّة ؛ وتُنفِّذ فيها أحكام الشريعة الإسلاميَّة .

وإنَّ ما يبعث على العجب والإعجاب معاً ـ أن يستطيع الشيخ شامل الصمود أمام قُوَّات القيصريَّة الرُّوسيَّة خمسةً وعشرين عاماً ونيِّفاً يُناضل في سبيل دينه ووطنه من غير أن يكون له سندٌ يسنده أو مُعينٌ يُعينه غير إيمانه بالله ؛ وقُوَّة عزيمته ؛ وصبره ومُصابرته على المكاره والشدائد في سبيل الله !!

وإذا كان في هذا الصبر وذلك الصمود أمام قُوَّات تلك الإمبراطوريَّة العظيمة مدى رُبع قرنٍ ما يُثير الإعجاب ويبعث على العجب ـ فإنَّهُ ما سجَّله التاريخ لهذا المُجاهد البطل من انتصاراتٍ باهرةٍ على كبار القُوَّاد الرُّوسيين في معاركٍ مشهورةٍ فاصلةٍ ؛ فإنَّ تلك الانتصارات العجيبة تُعيد إلى الذهن ذُرى فُتُوحات الغُزاة المُسلمين في عصر ظهور الإسلام وانتشاره

والصدر الأول من حياة المسلمين !!

على أنه ـ رَحِمَهُ اللهُ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ـ لَمّا اضطُرَّ إلى التسليم آخر الأمر ـ لم يرضَ أن يُسلِّم نفسه إلا على شرط أن يُسلِّم هو ومن معه من قُوّاده ومُرافقيه إلى خليفة الإسلام والمُسلمين في القُسطنطينيَّة .

ولا يتَّسع هذا المقال الوجيز الذي أكتبه بمناسبة ذكرى وفاته السادسة والسبعين لذكر ما ينبغي ذكره من أعمال هذا المُجاهد العظيم ؛ ولذلك سأقتصر على بعض الخطوط والظلال التي تُصوِّره بصورةٍ إجماليَّةٍ ؛ وتُعطي القارئ فكرةً عامَّةً عنه ؛ كما أذكر بعض الأعمال والحوادث الهامَّة التي وقعت ؛ مُلتزماً في ذلك غاية الإيجاز :

١ ـ على إثر تولِّي شامل القيادة الثوريَّة وقيامه ببعض الإصلاحات والتنظيمات ـ أوعزت الحكومة الرُّوسيَّة إلى أحد صنائعها « شمخال غمر أنش » ؛ وكلَّفته الاتصال بشامل بقصد استمالته إلى جانب الرُّوسيين ؛ وإغرائه وإطماعه في إمارة الجبل ؛ فاتصل الشمخال بالشيخ شامل ؛ وطلب منه أن يتوجَّه إلى مقرِّ والي القوقاز في مدينة « تفليس » حتى يُعيِّنه هذا الوالي الرُّوسيُّ أميراً وإماماً لبلاد الداغستان ـ بعد اغتيال المرحوم حمزة بك ١٢٥٠ هـ ـ ؛ ولم يُعِر هذا العرض التفاتاً ؛ وضرب به عُرْضَ الحائط .

وفي سنة ١٢٥٣ هـ [١٨٣٧ م] تكرَّرت هذه المحاولة لاستمالة الشيخ شامل وإنهاء حال الثورة في بلاد الاغستان ؛ فقد اتَّصل القائد الرُّوسيُّ الجنرال « كلك » بالشيخ شامل ؛ وعرض عليه الذهاب إلى «تفليس » لمقابلة والي

القوقاز ؛ وأكّد له أن الوالي سيُعيِّنهُ أميراً على جميع المسلمين في الداغستان ؛ ورفض الشيخ شامل هذا العرض أيضاً ؛ لأنه كان يَعُدُّ نفسه أميراً مُنتخباً ؛ فلم يرضَ لنفسه أن يتلقّى الإمارة من يد عدوٍّ ومُستعمر بلاده ؛ وعقد العزم على مُواصلة القتال حتى يقضى الله أمره .

ثم تكرَّرت هذه المُحاولة سنة ١٢٥٥هـ [١٨٣٩ م] من جانب الرُّوسيين ؛ ولكنها فشلت أيضاً

٢ ـ في أوائل سنة ١٢٥٨ هـ انتصر الشيخ شامل على القائد الرُّوسيِّ الجنرال « كرف » انتصاراً باهراً في معركةٍ فاصلةٍ حاسمةٍ !! ؛ واضطُرَّ هذا القائد الرُّوسيُّ إلى الانسحاب العام !! ؛ ولجأ إلى قلعة « شورا » الشهيرة .

وكان لهذا النصر وقعه الحسن بين إخوان شامل ومُريديه ؛ فاقترحوا عليه أن يبعث وفداً من قِبَلِهِ لِمُقابلة خليفة المُسلمين السُّلطان عبد المجيد خان في القُسطنطينيَّة ؛ وبعد إلحاحٍ شديدٍ نزل شامل على إرادة أعوانه ؛ وألّف وفداً من ثلاثة أشخاصٍ اختارهم لهذه السَّفارة بينه وبين الخليفة ؛ وحمّلهم عريضةً كتبها باسمه واسم إخوانه المُجاهدين الداغستانيين إلى مقام الخلافة العُظمى .

ولسنا ندري مضمون هذه العريضة والغاية المرجُوَّة منها ؛ ولكنها على كل حالٍ لابُدَّ أن تكون عرضاً لأحوال المُسلمين في الداغستان ؛ وربما كانت مُضمَّنةً طلب العون والمُساعدة الماديَّة أو الأدبيَّة على الأقل من خليفة المُسلمين .

وسافر هذا الوفد إلى بلاد الجركس في طريقه إلى القُسطنطينيَّة ؛ ثم جاوزها إلى بلاد « أبازه » على ساحل البحر الأسود ؛ ليركبُوا من هناك أحد المراكب البحريَّة إلى عاصمة الخلافة ؛ إلا أن أخبار هذا الوفد كانت قد سبقته ؛ فوجد العيون والأرصاد في كُلِّ مكانٍ !! ؛ فلم يستطع أعضاؤه رُكُوب البحر ؛ لأن عيون الرُّوسيين كانت ساهرة ؛ وأخيراً استطاع أحد الأعضاء « الشيخ الجركويّ » أن يتسلَّل إلى أحد المراكب بدعوى أنه من الحُجَّاج القاصدين إلى الديار الحجازيَّة ؛ وحمل بين طيَّات ثيابه عريضة الشيخ شامل ؛ وأوصلها إلى رجال ديوان الخليفة ؛ غير أنه لقي مطلاً غريباً !! ووعوداً كاذبةً !! ؛ وقضى نحبه بعد مرضٍ يسيرٍ قبل أن ينال رَدَّ الخليفة على عريضة قائده وإمامه الشيخ شامل !!

وبذلك أُسْدِلَ الستار على هذه الرِّواية !!



.....

ـ مِن قَادَةِ الإِصْلَاحِ في القَرْنِ الثَّالِثِ عَشَر: (١).

.....

✿ ـ الشَّيْخُ شَامِل
زَعِيمُ القُوقَاز ... وَشَيْخُ المُجَاهِدِين
١٢١٢ ـ ١٢٨٧ هـ = ١٧٩٧ ـ ١٨٧١ م

.....

ـ ٣ ـ

٣ ـ كان الحاج جبرائيل من أهل قرية « جرقط » صانعاً ماهراً يجُيد صُنع كُلِّ ما تقع عينه عليه !! ؛ وفي ذات يوم من الأيَّام قصد إلى ساحل البحر الأسود ؛ وركب إحدى البواخر ؛ وتوجَّه إلى الحجاز ؛ وأدَّى فريضة الحج ؛ ثم رجع إلى مصر ؛ وأقام بها فترةً ؛ رجع بعدها إلى القُسطنطينيَّة ؛ ومنها إلى بلاده الأصليَّة في الدَّاغستان حيث كان الشيخ شامل ؛ فاتصل به ؛ وعرض عليه خبرته ومهارته الصناعيَّة ؛ واقترح أن يقوم بصبِّ المدافع وصُنعها محليَّاً ؛ ومُقاتلة الرُّوسيين بنوع أسلحتهم ؛ وأظهر شامل ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ خوفه من الفشل في هذا المشروع !! ؛ وعارض فيه بادئ ذي بدءٍ ؛ ولكنه ـ تحت تأثير الإلحاح والإغراء ـ قَبِلَ المُعاونة والمُساعدة ورضىَ بالمُساهمة في هذا المشروع ؛

---

(١) ـ العدد: ٧٢٩ ـ بتاريخ: ٢٣ ـ ٦ ـ ١٩٤٧: للأُستاذ بُرهان الدين الدَّاغستاني .

وقدَّم كُلُّ عونٍ مُمكنٍ لهذا الصانع الماهر الوطنيِّ المُخلص ؛ وقام الحاج جبرائيل بأوَّل مُحاولةٍ لصُنع المدافع ؛ فجمع بقايا المدافع المُحطَّمة التي تركها الرُّوسيُّون في بعض المعارك السابقة ؛ وأذابها ؛ ثم صبَّ منها مدفعاً جديداً ؛ ولكن هذا المدفع لم يقو على تحمُّل أول تجربةٍ أُجريت له ؛ فتحطَّم بعد قذف القُنبلة الأولى منه ؛ وكان في هذا الفشل الحافز الذي حفَّز شاملاً وإخوانه والحاج جبرائيل ومهارته ؛ وأُعِيدت المحاولة ؛ ونجحت !! ؛ ومن يومئذٍ أصبح في إمكان الشيخ شامل وجنوده الاعتماد على قُوَّة المدفعيَّة ومُقابلة الرُّوسيين بنفس سلاحهم الذي يُقاتلونهم به !!

وكان لصُنع المدافع في بلاد الداغستان ونجاحها ؛ واستعمالها في المعارك التي وقعت بعد ذلك أثرٌ كبيرٌ ؛ سواءٌ في تقوية الرُّوح المعنويَّة بين المُجاهدين المُسلمين ؛ أو في إيقاع الخوف والرُّعب في قلوب أعدائهم من الرُّوسيين وأهل البلاد الضالعين مع الرُّوسيين !! ؛ وكان ذلك حوالي سنة ١٢٥٩ هـ [سنة ١٨٤٣ م] .

٤ ـ كان الشيخ شامل من يوم صُنع المدافع في داغستان واستعمالها في الحُرُوب يسير من نصرٍ إلى نصرٍ !! ؛ وذاعت شُهرته ؛ وقويت شوكته ؛ وهابه خصومه بعد أن أوقع بهم في عِدَّة معاركٍ فاصلةٍ ؛ كان لها وقعٌ عظيمٌ في نفوس الفريقين المُتحاربين !! ؛ ولجأت القُوَّات الرُّوسيَّة إلى قلاعها وحُصُونها !!

في هذه الأثناء كان زُعماء الجراكسة وأعيانهم يُرسلون الرُّسُل والكُتُب

مُتابعةً بدعوة الشيخ شامل إلى بلادهم ؛ لِمساعدتهم على رفع نَيْرِ الاحتلال الرُّوسيِّ عن رقابهم ؛ مُظهرين الطاعة والإخلاص له ولدعوته الدينيَّة الوطنيَّة التي رفع رايتها في رُبُوع بلاد الدَّاغستان .

وفي أوائل سنة ١٢٦٢ هـ [١٨٤٦ م] عزم الشيخ شامل على اجتياز الحُدُود والذهاب إلى بلاد الجركس ؛ فجمع جمعاً عظيماً من الخَيَّالة والرجَّالة ؛ وأخذ معه سبعة مدافعٍ ثقيلةٍ ؛ ومقداراً وافراً من المُهمَّات والأسلحة الحربيَّة ؛ واجتاز نهر « ترن » ؛ ونزل في بلاد « قبرطاي » الواقعة في الشمال الغربيِّ للداغستان ؛ وأخذ ينشر تعاليمه ومبادئه عن طريق الوعظ والإرشاد ؛ وأقبل عليه الأهلون مُرحِّبين ؛ وأظهروا استجابتهم لدعوته ومُوافقتهم لها ؛ وبينما كان الشيخ شامل يقوم بهذه المُهمَّة ويُنظِّم الحياة الدينيَّة والمدنيَّة في تلك البلاد ـ جاءه النذير بأنه وقع في كمينٍ دبَّرهُ له الرُّوسيُّون !! ؛ إذ قطعوا عليه خطَّ الرجعة ؛ وسدُّوا المسالك وأقفلوا الجُسُور التي تصل ما بين بلاد الداغستان وأقاليم الجراكسة !! ؛ فأسرع شامل بالعودة من حيث أتى ؛ وبعد تصادُمٍ قويٍّ بينه وبين الرُّوسيين وتراشُقٍ بالمدافع ـ استطاع الشيخ شامل أن يُنقذ قُوَّاته ويجتاز بها نهر « ترن » ؛ ورجع إلى بلاده منهوك القُوى ؛ بعد أن خسر في هذه الرحلة كثيراً من قُوَّاته ومُهمَّاته ؛ وكاد يُصاب بهزيمةٍ مُنكرةٍ لولا حزمه وقُوَّة احتماله ؛ ولولا مهارة الحاج يحيى قائد المدفعيَّة في جيش شامل ـ الذي استطاع أن يستخدم ما معه من المدافع الثقيلة أحسن استخدامٍ في الوقت المُناسب .

٥ ـ كان لهذه الحادثة أثرٌ بعيدٌ في المعارك التي تلتها ـ فقد قويت الرُّوح المعنويَّة في الجُيُوش الرُّوسيَّة المُحاصرة في القلاع المُتناثرة هُنا وهُناك ؛ فقاموا بعدَّة كرَّاتٍ على قُوَّات شامل ؛ ووقعت بين الفريقين مُصادماتٌ عنيفةٌ ؛ وأخذت الحرب في بلاد الداغستان صبغةً رسميَّةً ؛ واسترعت اهتمام العالم أجمع !! ؛ وحشدت القيصريَّة الرُّوسيَّة أعظم قُوَّادها ؛ وأرسلت إلى الميدان جُمُوعاً كبيرةً من خيرة جُنُودها ؛ ونظم كبار شُعرائها القصائد الطُّوال في دعوة الناس إلى الجهاد في الداغستان ؛ ولكن شاملاً كان مع كُلِّ ذلك ـ كالعهد به ـ يعمل في صمتٍ وهُدوءٍ وبنفس الإيمان والثقة بالله وبنصره لعباده المُخلصين .

ولمَّا رأى مبلغ ما كان لصُنع المدافع من نفعٍ وتأثيرٍ حربيٍّ ـ أخذ يُشجِّع كُلَّ تفكيرٍ في صُنع شيءٍ جديدٍ يُمكن الاستعانة به في مُقاومة العدو .

وفي سنة ١٢٦٦هـ [١٨٤٩ ـ ١٨٥٠ م] ـ تمكَّن الصُّنَّاع الداغستانيون من صُنع البارود في بلادهم !! ؛ وأعدُّوا كُلَّ ما يلزم لهذه العمليَّة من آلاتٍ ومُعدَّاتٍ ؛ وأصبح في إمكان المُجاهدين المُسلمين استخدام البارود في حُرُوبهم ضدَّ الرُّوسيين من ذلك التاريخ ؛ كما يستعملون المدافع المصنوعة في بلادهم وبالأيدي الداغستانيَّة من نحو ثمانية أعوام !!

٦ـ اتَّسع نُفُوذ الشيخ شامل في جميع بلاد الداغستان ؛ وسارت بأخباره الرُّكبان ؛ وكثُرت مُصادماته الناجحة ضد الرُّوسيين ؛ وفي أوائل فصل الخريف : في اليوم العاشر من المُحرَّم سنة ١٢٧٠ هـ [١٣ أُكتوبر سنة ١٨٥٣ م] ـ

قام الشيخ شامل بحركةٍ جريئةٍ أوقعت الرُّعب في قُلُوب حاميات الرُّوس في بلاد القوقاز كُلِّهَا !! ؛ ففي ذلك اليوم ساق سيلاً عظيماً من قُوَّاته ومدفعيَّته ؛ واجتاز بها حدود بلاد « الكرج » ؛ وحاصر قلعة « زنطة » حصاراً محُكماً قويًّاً ؛ واضطرَّ حاميتها إلى التسليم في النهاية ؛ ثم بعث البُعُوث والسَّرايا إلى القُرى المُتناثرة في تلك الجهات ؛ فأغارت عليها ؛ وأخذت الأسرى ؛ وغنمت الأموال الكثيرة ؛ ثم رجع إلى مقرِّ قيادته في داخل حدود الداغستان بعد أن قتل من الأعداء نحو [2000] قتيلٍ !! ؛ وأسر نحو [894] أسيراً !! ؛ وغنم من الأموال والأسلحة مقداراً عظيماً !! ؛ وكان بين الأسرى الجنرال « جوجوزه » قائد حامية « زنطة » ؛ وبين السبايا زوجته وبنته وكثيرات غيرهنَّ من كرائم العقيلات وبنات الأشراف !!

بقيَ هؤلاء الأسرى عند الشيخ شامل نحو تسعة أشهُرٍ ؛ وجرت المُخابرات والمُفاوضات بين الشيخ شامل والقيادة الرُّوسيَّة العُليا لمُبادلتهم بالأسرى المُسلمين الذين كانوا في أيدي الرُّوسيين ؛ وفي النهاية تـمَّ الاتفاق بين الطرفين على طريقة هذا التبادُل ومكانه ـ فقد اتَّفق الفريقان على اختيار موقع « انصنفر » على ضفَّة نهر « مجك » ؛ كما حصل الاتفاق على مُبادلة الجنرال « جوجوزه » بأبي الشيخ شامل جمال الدين ؛ الذي كان رهينةً في أيدي الرُّوسيين من نحو ستَّة عشر عاماً ؛ ثم مُبادلة كُلِّ مُسلمٍ برُوسيٍّ ؛ وجعل لكُلِّ أسيرٍ زائدٍ وللسيِّدات والأولاد من السبايا فداءً محدوداً ؛ وفي أواخر سنة ١٢٧٠ هـ [١٨٥٤ م] تـمَّ هذا التبادل في (انصنفر) على ضفاف نهر (مجك) ؛

وأخذ المُسلمون أموالاً كثيرةً فداء الأسرى الزائدين والسبايا من النساء والأولاد ؛ وكان يوماً مشهوداً عمَّ فيه البِشْرُ بين الجميع !!

٧ـ بعد تبادُل الأسرى في أواخر سنة ١٢٧٠هـ تحاجز الفريقان بعض الشيء ؛ وخمدت نار الثورة الوطنيَّة والحركة الدينيَّة الإصلاحيَّة التي أشعلها الغازي محمد الكمراويُّ مُنْذُ نيِّفٍ وخمسٍ وعشرين سنة ؛ وكانت هذه الحادثة أشبه بهُدنةٍ غير رسميَّةٍ بين الفريقين .

كان قد مضى على نُشُوب هذه الثورة في تلك البلاد أكثر من رُبع قرنٍ ؛ من يوم أن رفع الغازي محمد الكمراويُّ عَلَمَ الثورة ؛ وكان مضى عليها أكثر من عشرين عاماً من يوم تولّى الشيخ شامل قياديها .

فلمَّا رجع أُولئك المُجاهدون إلى قُراهم وضياعهم بعد طول الغياب عنها ؛ والتنقُّل بين مُختلف البقاع وتلك البلاد الجبليَّة الوعرة ـ رأوا ما عمَّ قُراهم من الخراب والدمار !! ؛ وما حلَّ بأهليهم من الفاقة والفقر وسُوء الحال الاقتصاديَّة !! ؛ لأنَّ أكثر القُرى كانت قد خلت من الرِّجال الأشدَّاء القادرين على الأعمال الزراعيَّة ؛ وتولّى هذه الأعمال الشاقة النساء ومن هُم في حُكم النساء من الشيوخ الفانين والأولاد الضعاف ؛ فساءت حال الزراعات ؛ ونقصت الحاصلات ؛ وانتشر الفقر والضيق !!

ثم إنهم نظروا ـ فوجدوا أنهم في ثورةٍ مُتَّصلة الحلقات من نحو رُبع قرنٍ من غير أن تمتدَّ إليهم يدٌ بالعون والمُساعدة من خارج حدودهم ؛ ومن غير أن يستطيعوا حتى الاتصال بخليفة المُسلمين ليعرضوا عليه حالهم وما يُعانونه

من الشدَّة وسوء الحال !!

لابُدَّ أن هؤلاء المُجاهدين ـ أو أغلبهم ـ فكّروا في هذا كُلّه ـ فرأوا سُوء الحال المُنذر بأسوأ مصير !! ؛ فوهنت عزائمهم وتراخت !! ؛ وبدأ الناس يتسلَّلُون من حول شامل شيئاً فشيئاً !! ؛ ثم بدأت الحرب المعروفة بحرب القرم بين الرُّوس والحلفاء « الأتراك والإنكليز والفرنسيين » في النصف الثاني من سنة ١٢٧٠ هـ ؛ واستمرَّت إلى النصف الثاني من سنة ١٢٧٢ هـ ؛ ولكنَّ الشيخ شاملاً لا يستطيع انتهاز هذه الفُرصة المُواتية ـ لما قدَّمنا من الأسباب ـ ؛ ولم يستطع الحُلفاء مدَّ يد المُساعدة للشيخ شامل ؛ لأن الطريق بينه وبينهم كانت مُقفلةً تماماً !!

أقُول هذا على الرغم مما جاء في « لاروس » في أثناء ترجمة الشيخ شامل ؛ من « أن الحُلفاء لم يُقصِّرُوا في تقديم المعونة إلى شامل ؛ إذ كانوا يُقدِّمُون إليه ما يحتاجه من لوازمِ حربيَّةٍ » !!.

أُقرِّر هذا لسببين اثنين :

ـ الأول : أنَّ الطريق بين الحُلفاء والشيخ شامل كانت مُغلقةً تماماً من جميع الجهات ؛ فلم يكُن من المُمكن الاتصال به من الخارج !! .

ـ والسبب الثاني : هو أنَّ الذين أرَّخُوا لثورة الشيخ شامل وذكروا دقائقها وتتبَّعوا تفصيلاتها ـ لم يذكروا شيئاً عن هذا العون المزعوم !! .

على أنه لو كان حديث هذا العون صحيحاً ـ لرأينا شيئاً من الحياة والانتعاش في الثورة إبَّان حرب القرم ؛ ولكن على العكس من ذلك تماماً :

نجد شيئاً من الهُمُود والخُمُود يعُمُّ أرجاء البلاد طول تلك المُدَّة - إذا صرفنا النظر عن بعض الحوادث المُتفرِّقة التي وقعت هُنا وهُناك في فتراتٍ مُتقطِّعةٍ ؛ مما لابُدَّ من مثله بين فريقين طال أمدُ القتال بينهما أكثر من خمسةٍ وعشرين عاماً - .

٨ - لَمَّا انتهت حرب القرم ؛ ووقَّع الرُّوسيُّون شُرُوط الصُّلح مع الحُلفاء في باريس في ٣٠ مارس سنة ١٨٥٦م [٢٢ رجب سنة ١٢٧٢ هـ] - تفرَّغوا لقتال شامل ؛ ووجَّهُوا كُلَّ همِّهم للقضاء عليه ؛ وإنهاء حال الثورة في جبال القوقاز التي طال عليها الأمد - ولهذا نجد الرُّوسيين يجُهِّزُون قُوَّةً عسكريَّةً كبيرةً مُكوَّنةً من نحو [60000] رَجُلٍ ويُرسلونها إلى القوقاز !! ؛ ثم تتابعت حملاتهم العسكريَّة بعد ذلك ؛ كما نشط جواسيسهم ودُعاتهم لاستمالة بعض القبائل والأعيان إلى جانب الرُّوسيين بما كانوا ينثرونه من الأموال الطائلة ؛ فلمَّا كان أواخر سنة ١٢٧٤ هـ [١٨٥٨ م] - كان كثيرٌ من أهل الجهات النائية قد خرج على الشيخ شامل ؛ وأخذ يقوم ببعض الخدمات للقُوَّات الرُّوسيَّة ؛ كشقِّ الطُّرُق ؛ وحراستها ؛ وما إلى ذلك !!

وفي شهر رجب سنة ١٢٧٥ هـ [فبراير سنة ١٨٥٩ م] جاء الرُّوسيُّون بقُوَّةٍ كبيرةٍ ؛ وحاصروا شاملاً وأنصاره في مقرِّ قيادته في قلعة « بكى درغية » !! ؛ ضيَّق الرُّوسيُّون الحصار على شامل وأصحابه ؛ وقاتلوه قتالاً شديداً ؛ إلا أنهم لم ينالوا منه نيلاً ؛ لحصانة القلعة وشدَّة دفاع المُجاهدين ؛ وبعد نحو أربعة أشهُرٍ من هذا الحصار - تراجع الرُّوسيُّون ؛ وفكُّوا الحصار عن القلعة ومن

فيها ؛ فانتهز الشيخ شامل هذه الفُرصة ؛ وخرج مع جميع أصحابه ؛ ونقل كُلَّ ما أمكن نقله من المدافع والمُهمَّات والأرزاق ؛ وذهب إلى قرية « ايشجيلي » ورابط فيها ؛ إلا أن الرُّوسيين لاحقوه هُنا أيضاً ؛ وهاجموه ؛ وأحاطوا به ؛ وبعد أن استمرَّ القتال بين الطرفين نحو شهرين ـ اضطرَّ الشيخ شامل تحت تأثير قلَّة رجاله وسلاحه الذي بقيَ لديه إلى الانسحاب من هُنا أيضاً !! ؛ واتجه بأهله وعياله ومن رافقه من مُخلصي أصحابه إلى قلعة « غونيب » الحصينة وتحصَّن فيها .

كان ذلك في أوَّل المُحرَّم سنة ١٢٧٦ هـ [٣١ يوليه سنة ١٨٥٩ م] .

٩ـ تحصَّن الشيخ شامل بقلعة « غونيب » الحصينة ؛ ثم لحق به بعض المُجاهدين المُخلصين ؛ حتى بلغ عددهم نحو ثلاثمائة رَجُلٍ من المُحاربين ؛ غير النساء والأطفال من آل شامل .

ولكن ماذا عسى أن يصنع هؤلاء الثلثمائة رَجُلٍ أمام هذه الجيوش الجرَّارة التي أحاطت بالقلعة إحاطة السُّوار بالمعصم ؟!!

في هذه الأثناء صدرت إرادة قيصر الرُّوس إلى قائد قُوَّاته في القُوقاز بضرورة القبض على الشيخ شامل حيَّاً مهما كلَّف ذلك من ثمن !!

ولهذا أخذت القُوَّات الرُّوسيَّة تُضيِّق الخناق على قلعة « غونيب » ؛ وفي الوقت نفسه طلب قائد الحملة الرُّوسيَّة من الشيخ شامل التسليم ؛ ووعده بالإبقاء على حياته هو ومن معه من المُجاهدين والنساء والأطفال .



.....

ـ مِن قَادَةِ الإِصْلاَحِ في القَرْنِ الثَّالِثِ عَشَر: (١).

.....

۞ ـ الشَّيْخُ شَامِل

زَعِيمُ القُوقَاز ... وَشَيْخُ المجَاهِدِين

۞ ١٢١٢ ـ ١٢٨٧ هـ = ١٧٩٧ ـ ١٨٧١ م ۞

.....

ـ ٤ ـ

ولَمّا أبى الشيخ شامل التسليم ـ اقتحم الرُّوسيُّون الحصن من الخلف ؛ واستطاعوا التسلُّل إلى داخله ؛ فانسحب الشيخ شامل إلى مسجد الحصن وواصل القتال ؛ وهُنا طلب الرُّوسيُّون منه التسليم للمرَّة الثانية ؛ ووعدوه إن هو سلَّم نفسه أن يُسلموه هو ومن معه إلى خليفة المسلمين في القسطنطينية من غير أن يُصيبهم أذى .

كان لهذا العرض الأخير فعل السحر في نفوس المُجاهدين من إخوان الشيخ شامل !! ؛ فألان من جانبهم ؛ فأخذوا يحبِّذُون التسليم ؛ ويُلحُّون على الشيخ شامل أن لا يُفوِّت هذه الفُرصة النادرة !! ؛ فنزل الشيخ شامل على إرادتهم ؛ وسلَّمَ نفسه مع نحو عشرين شخصاً من صادقي أعوانه إلى القائد

(١) ـ العدد : ٧٣٠ ـ بتاريخ : ٣٠ ـ ٦ ـ ١٩٤٧ : للأستاذ بُرهان الدين الدَّاغستاني .

الرُّوسيُّ الجنرال « باريبا تنسكي » !! .

كان ذلك في اليوم الثامن من شهر صفر سنة ١٢٧٦ هـ [٦ سبتمبر سنة ١٨٥٩ م] .

وبذلك انتهت هذه الثورة الإصلاحيَّة الوطنيَّة ؛ التي استمرَّت أكثر من ثلاثين سنة !! .

وَنُقِلَ الشيخ شامل ومن معه من أعوانه وأهله وعياله إلى « بترسبورغ » ـ لينغراد ـ عاصمة القياصرة المُقدَّسة ؛ وقابل قيصر الرُّوس إسكندر الثاني ؛ فرحَّب به القيصر وأكرم وفادته ؛ وأمَّنه وجميع من كانوا معه على نفوسهم .

إلا إنه على الرغم من الوعد الذي أعطى الشيخ شامل قبل أن يُسلِّم نفسه ـ لم يسمح له بالسفر إلى خارج الحُدُود الرُّوسيَّة !! ؛ وألزمه بالإقامة بمدينة « كالوغا » مُدَّةً ؛ ثم نقله إلى مدينة « كييف » ؛ وظلَّ على هذه الحال نحو عشر سنين .

١٠ ـ كان الشيخ شامل لا يفتأ يُطالب قيصر الرُّوس إسكندر الثاني بإنجاز الوعد الذي وعد به قبل أن يُسلِّم نفسه بتسليمه إلى خليفة الإسلام والمُسلمين ؛ ولكنه لما طال به الأمدُ ولم يجد أُذناً صاغيةً ـ بعث إلى القيصر يطلب منه أن يسمح له بالسفر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ؛ وبعد أخذٍ وَرَدٍّ قَبِلَ القيصر أن يأذن لشامل وأصحابه بالسفر الحجاز عن طريق القُسطنطينيَّة .

وفي سنة ١٢٨٦ هـ [١٨٦٩ م] ؛ أي بعد عشرة أعوامٍ من تاريخ التسليم ـ

خرج الشيخ شامل من الحُدُود الرُّوسيَّة ؛ وجاء القُسطنطينيَّة ؛ ولقيَ من السُّلطان عبد العزيز خان خليفة المُسلمين ما هو جديرٌ به من الإعزاز والتكريم ؛ ثم واصل سفره إلى الحجاز لأداء فريضة الحج .

وهُناك ما يبعث على الظنِّ بأن الشيخ شاملاً عرَّج في طريقه إلى الحجاز على مصر ؛ وأنه شهد حفلات الخديوي إسماعيل التي أقامها بِمُناسبة افتتاح قناة السويس ؛ أو شهد بعضها على الأقل ؛ ولقيَ من الخديوي إسماعيل ترحيباً عظيماً وتقديراً كبيراً .

وبعد أن وصل إلى الحجاز وأدَّى فريضة الحجِّ في أواخر سنة ١٢٨٦ هـ ـ اختار المدينة المُنوَّرة للإقامة ؛ واتخذها موطناً لسُكناه .

ولم تطُل إقامته في مدينة الرَّسُول الكَرِيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فقد فارق هذه الدار الفانية ؛ وانتقل إلى جوار ربِّه : قُبَيْلَ غُرُوب شمس يوم الأربعاء ٢٥ من ذي القعدة سنة ١٢٨٧ هـ [٢٨ مايو سنة ١٨٧٠] .

وَدُفِنَ في البقيع بجوار قُبَّة العبَّاس عمِّ الرَّسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

١١ ـ مات الشيخ شامل بعد أن عاش نحو خمسةٍ وسبعين عاماً ؛ وبعد أن ملأ الدُّنيا دُويّاً ؛ ونشر قضيَّة بلاده أمام الرأي العالم العالميِّ ؛ وجعل العالم كُلَّهُ يتحدث عن القوقاز وقضيَّة القوقازيين !! ؛ وإذا كان لم يستطع أن يصل ببلاده إلى ما كان يرجوه لها من الاستقلال والتقدُّم ورغد الحياة ـ فإنه بذل كُلَّ ما ملك ؛ ولم يألُ جهداً ؛ ولم يدَّخر وسعاً ؛ حتى انتقل إلى جوار ربِّه راضياً مرضيّاً ؛ ولكن أثر جهاده وتضحياته ظلَّ خالداً ؛ وأثمر ثمره ـ فقد تنبَّهَ

الرُّوسيُّون لما يُعانيه أهل القوقاز من المصاعب والمتاعب وما هم فيه من سُوء الحال ؛ وعلموا أن للقوقازيين وللقوقاز قضيَّةً لابُدَّ من النظر إليها بعين الاعتبار .

وقدَّر الرُّوسيُّون جهاد شامل وبسالته ـ فأنشأوا في « تفليس » عاصمة القوقاز العامَّة متحفاً عامًّا لآثار القوقاز والقوقازيين ؛ وأودعوه كُلَّ ما عثروا عليه من آثار الشيخ شامل ؛ كالأسلحة التي كان يُحارب بها ؛ والأعلام التي كان يحملها جُنُوده وقُوَّاده ؛ وبعض الوثائق والمُستندات التي تُبُودِلَت بينه وبين القيادة الرُّوسيَّة في القوقاز ؛ وكان هذا المتحف ـ في الجُملة ـ مُشتملاً على كل ما وُجِدَ من آثار شامل !!

وقد زار هذا المتحف ووصفه أحسن وصفٍ سعادة رشاد بك المُستشار بالمحاكم الأهليَّة المصريَّة قبل الحرب العالميَّة الماضية في كتابه « سياحةٌ في رُوسيا » ؛ الذي نشره مقالات مُتفرِّقة في « المُؤيَّد » ؛ ثم جمعها في كتابٍ .

وبعد الانقلاب الشُّيوعيِّ سنة ١٩١٧م ؛ واستتباب الأمر للشيوعيين ـ وجَّهوا نظرهم إلى القوقاز ؛ وأنشأوا فيه أربعةَ جُمهوريات ؛ كانت أحد هذه الجمهوريات الأربع جمهورية داغستان ؛ وهي جمهورية ذات استقلالٍ ذاتيٍّ في شئونها الداخليَّة ضمن نطاق اتحاد الجمهوريَّات السُّوفياتيَّة العام ؛ وكان من أهمِّ ما عنيت به هذه الجمهوريَّة الناشئة : أن أسَّست متحفاً خاصًّا بالشيخ شامل في مدينة « محاج قلعة » ؛ جمعت فيه كُلَّ آثار هذا المُجاهد العظيم ؛ والبطل الوطنيِّ المُخلص .

ويرى زائر هذا المتحف الآن أعلاماً باليةً عليها كتاباتٌ عربيَّةٌ واضحةٌ ؛ مثل : (لا إِلَـهَ إِلاَّ الله ... مُحَـمَّـدٌ رَسُولُ الله) ؛ و : (نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيب) ؛ وما أشبه هذا ممَّا كان يُكتب على أعلام الشيخ شامل .

كما يرى الكُتُب والرَّسائل التي تبادلها مع الرُّوسيين ؛ وهي مكتوبةٌ بالخطِّ العربيِّ واللُّغة العربيَّة الفُصحى .

ويرى إلى جانب ذلك كُلِّهِ : قطع الأسلحة ونماذجها المُختلفة ممَّا كان يُستعمل إبَّان الثورة الداغستانيَّة التي حمل رايتها الشيخ شامل أكثر من رُبع قرنٍ .

رَحِمَـهُ اللهُ رَحْمَةً وَاسِعَـةً ؛ وَأَحْسَنَ إِلَيْـهِ ؛ وَبَلَّ ثَرَاهُ بِفَيْضٍ مِن رُضْوَانِهِ .



.....

❁ ـ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ وَالإِسْلاَم فِي الدَّاغِسْتَان (١).

ـ ١ ـ

.....

على الضفَّة الغربيَّة من بحر الخزر ؛ وعلى المُنحدر الشرقيِّ لجبال القُوقاز ــ بلادٌ جبليَّةٌ ؛ تُذكِّرُنا بمناظرها ؛ وأشكالها الطبيعيَّة ؛ وحياة سُكَّانها الاقتصاديَّة : جبال لُبنان ؛ لكنها أشدُّ برداً منها !! ؛ وأكثر وعورةً !! ؛ وأجمل منظراً !!

وهذه البلاد الجبليَّة هي التي تُعرف اليوم بـ : الداغستان ؛ أي : البلاد الجبليَّة ؛ وقد أطلق عليها العرب يوم احتلُّوها أسماء شتَّى ؛ منها : الجبال ؛ وبلاد الباب ؛ أو الباب والأبواب ؛ وبلاد صاحب السَّرير ؛ وبلاد الخزر ؛ إلى غير ذلك من الأسماء التي لم تكن تشمل كُلَّ البلاد ؛ بل قسماً منها أو أقساماً ؛ بعضها مُستقلٌّ عن البعض الآخر ؛ وأكثره واقعٌ في جنوبي الجبال ؛ وكان داخلاً في حُكم الفُرس حتى الفتح العربيِّ ـ كما يُؤخذ من البلاذُريِّ ؛ واليعقوبيِّ ؛ والطبريِّ ؛ وغيرهم ـ .

(١) ـ العدد : ٨٩٤ ـ بتاريخ : ٢١ ـ ٨ ـ ١٩٥٠ : للأُستاذ بُرهان الدين الداغستاني .

ويحُدُّ بلاد الداغستان هذه : من الجنوب جمهورية آذربيجان ؛ ومن الشمال نهر « ترك » ؛ ومن الشرق بحر الخزر ؛ ومن الغرب جبال « أبرز » ؛ و « قازيك » وممر « دريال » الشهيرِ وجُزءٌ من بلاد الكرج وأركس .

كانت هذه البلاد المجاز الذي يسلُكه الفاتحون الآسيويون إذا أرادوا الإغارة على أوروبا وبلاد الرُّوس الصقالبة ؛ ويعبره الروسيون والتتار من الشمال إلى الجنوب إذا أرادوا التوغُّل في أنحاء آسيا ؛ ولذلك كانت - دائماً - محطَّ أنظار الفاتحين والغُزاة من قديم الزمان إلى يوم الناس هذا .

ولم تكد جُيُوش الإسلام والعرب تحتلُّ أرمينيَّة وأذربيجان في عهد عُمر ابن الخطَّاب - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - ؛ حتى أصعدوا شمالاً نحو « باب الأبواب » .

وكان أول من سار إلى تلك الجهات هو سُراقة بن عمرو ؛ ومعه عبد الرحمن بن ربيعة ؛ وحُذيفة بن أُسيد ؛ وبُكير بن عبد الله ؛ وسلمان بن ربيعة ؛ مع نفرٍ من المجاهدين ؛ فوصلوا إلى « دربند » - باب الأبواب - ؛ وفتحوها في سنة ٢٢ هجريَّة ؛ وفي فتح « دربند » يقول سُراقة بن عمرو :

ومن يَكُ سائلاً عنِّي ؛ فإني
بأرضٍ لا يُؤاتيها القرارُ
بباب التُّرك ذي الأبواب بابٌ
لهُ في كُلِّ ناحيةٍ مغارُ
نَذُودُ جُمُوعهم عمَّا حوينا
ونقتُلُهم إذا باح السِّرارُ

سددنا كُلَّ فرجٍ كان فيها
مُكابرةً إذا سطع الغُبَارُ
وأقحمنا الجيادَ جبال قبجٍ
وجاور دُورهم منَّا ديارُ
وبادرنا العَدُوَّ بكُلِّ فَجٍّ
نُناهبهُم وقد طار الشّرارُ
على خيلٍ تُعادي كُلَّ يومٍ
عناداً ليس يتبعها المهارُ

ولكنهم لم يكادوا يجاوزونها إلى « بلنجر » حتى لقيهم خاقان الخزر في خُيُوله على نهر « بلنجر » ؛ فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً ؛ وقُتِلَ قائد الجشس سُراقة بن عمرو ؛ فتولّى القيادة بعده عبد الرحمن بن ربيعة الباهليُّ ؛ وواصل القتال ؛ وجاء المسلمين مددٌ من أهل الشام بقيادة حبيب بن مسلمة ـ فاشتد القتال بين المُسلمين والخزر ؛ حتى قُتِلَ قائد الجيش الإسلاميّ عبد الرحمن بن ربيعة أيضاً ؛ واستشهد معه خلقٌ كثيرٌ !! ؛ واضطرَّ الباقون إلى الانسحاب إلى « درنبد » بعد أن أخذ الراية سلمان بين ربيعة الباهلي ؛ وقاتل حتى استطاع أن يدفن أخاه بنواحي « بلنجر » ؛ وفي مقتل عبد الرحمن بن ربيعة الباهليِّ « ببلنجر » وقُتيبة بن مُسلم بالصين يقول عبد الرحمن بن جُمانة الباهليُّ :

وإنَّ لنا قبرين قبراً بلنجرٍ

وقبراً بصين استان يالك من قبرِ

فهذا الذي بالصين عمَّت فتُوحُهُ

وهذا الذي يُسقى به سُبُلُ القطرِ

وهُنا يروي المُؤرِّخُون أن خلافاً دبَّ بين جيوش المُسلمين على من يتولّى القيادة بدل عبد الرحمن بن ربيعة الباهليِّ ـ فأهل الكوفة يريدون تولية سلمان بن ربيعة الباهليّ شقيق عبد الرحمن ؛ وأهل الشام يريدون تنصيب أميرهم وقائدهم حبيب بن مسلمة ؛ وكادت تكون فتنة !! ؛ حتى قال شاعر أهل الكوفة يومئذٍ يذكر هذا الخلاف ؛ ويشرح أوجهة نظر الكوفيين :

فإن تضربوا سلمان نضرب جيبكم

وإن ترحلوا نحو ابن عفّان نرحلُ

ولا تقسطوا فالثغر ثغر أميرنا

؛ وهذا أمير في القبائل مُقْبِلُ

ونحن وُلاة الثغر كُنَّا حُماتهُ

.. ؛ ليالِيَ يُرمَي كُلُّ ثغر نُوكّلُ

وفي النهاية تمَّ الاتفاق على تقليد سلمان بن ربيعة الباهليِّ إمارة الجيش مكان أخيه عبد الرحمن بن ربيعة الباهليِّ ؛ فعبَّأ سلمان جيشه ؛ وسار نحو « بلنجر » ؛ فلقيه على نهرها خاقان الخزر في خيوله أيضاً ؛ فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً ؛ حتى قُتِلَ سلمان بن ربيعة الباهليُّ أيضاً ؛ وَقُتِلَ معه خلقٌ كثيرٌ

من رجاله قيل أربعة آلاف قتيل !! ؛ واضطرَّ المُسلمون مرَّةً أخرى إلى الانسحاب بعد أن حملوا معهم جُثَّة سلمان بن ربيعة الباهليِّ وكثيراً من جرحاهم إلى « دربند » ؛ ولكن الجيوش الإسلاميَّة المُنسحبة في هذه المرَّة لم تقف في « دربند » ؛ بل تفكَّك شملها ؛ وتشتَّت في كُلِّ اتجاهٍ !!

وبعد هذا الانكسار الذي مُنِيَ به المُسلمون في هذه الجهة ـ فترت حركة الحملات العسكريَّة إلى هذا الميدان النائي بفعل الحوادث الداخليَّة التي أعقبت مقتل عُثمان بن عفَّان ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ وحروب معاوية وعليٍّ ؛ وما تبع ذلك من الفتن ـ حتى إذا ولي الخلافة الإسلاميَّة الوليد بن عبد الملك جهَّز جيشاً كبيراً بقيادة مُسلم بن قتيبة ؛ ووجَّهه سنة ٨٩ هـ إلى أرمينيَّة ؛ فالداغستان ؛ فقاتل الخزر ؛ وفتح كثيراً من البلاد ؛ وغنم الغنائم ؛ ثم قفل راجعاً .

ثم وجَّه الوليد بن عبد الملك أخاه مسلمة بن عبد الملك على رأس جيشٍ قويٍّ إلى تلك البلاد أيضاً ؛ فقاتل أهلها ؛ وغلبهم على كثيرٍ من بلادهم ؛ وغنم غنائم كثيرةً ؛ ثم رجع بها .

وفي سنة ١٠٥ هـ وجَّه يزيد بن عبد الملك جيشاً إلى هذه البلاد بقيادة الجرَّاح بن عبد الله الحكميِّ من مذحج ـ فسار إلى الخزر ؛ فقتل منهم مقتلةً عظيمةً ؛ وسبى وغنم ؛ ثم رجع إلى جنوبي أرمينيَّة ؛ فجاشت الخزر ؛ ولحقت به ـ فحاربهم في صحراء « ورشان » ؛ فانحازوا إلى ناحية أردبيل ؛ فواقعهم على أربعة فراسخ مما يلي أرمينيَّة ؛ فاقتتلوا ثلاثة أيَّامٍ ـ فاستشهد

الجـرَّاح هُناك ؛ وَقـُتِلَ كثيـرٌ مـن جُنده ؛ وتفـرَّق الباقون ؛ وتـشتَّتُوا في اضطرابٍ !! وَسُمِّيَ نهـرٌ هُناك باسم الجرَّاح ؛ كما سُمِّيَ جسرٌ عليه جسر الجرَّاح أيضاً .

ثُمَّ كان أن عاث الخزر في البلاد ؛ وفقد العرب هيبتهم ـ فانسحبوا من أطراف أرمينيَّة !!

حتى إذا وليَ الخلافة هشام بن عبد الملك ـ ولَّي أخاه مسلمة بن عبد الله صقر بني أُميَّة وبطلها المُجرَّب أرمينيَّة ؛ وأمره أن يسير إليها برجاله وقُوَّاده ليُطهِّر البلاد من الخزر وممن طمع فيها بعد قتل الجرَّاح ؛ فسار إليها في سنة ١١٢ هـ ـ وقد وجَّه على مُقدِّمته سعيد بن أسود الحرسيَّ ؛ ومعه كثيرٌ من القوَّاد بينهم الوليد بن القعقاع العبسيُّ ؛ وسار مسلمة مُظفَّراً منصوراً حتى وصل إلى مدينة « باب الأبواب » ؛ وفتحها من جديد ؛ وكان في قلعتها ألفُ أهل بيت من الخزر ؛ فحاصرهم ورماهم بالحجارة ؛ ثم عمد إلى غير ذلك من وسائل الهجوم حتى اضطرَّهم إلى الهرب وإخلاء القلعة ؛ فلمَّا فتحها وغيرها من القلاع الحصينة ؛ أخذ يتقدَّم في البلاد ويحتلُّها ؛ إلى أن تمَّ له فتحها كُلّها ؛ فعاد إلى « باب الأبواب » بجيشه الذي استصحبه معه من الشام ؛ وكان عدده أربعةً وعشرين ألفاً ؛ فأسكنهم المدينة المذكورة على العطاء ؛ ثم احتلَّ مواقع أُخرى هامَّة ؛ وقبض على البلاد بيدٍ من حديدٍ !!

وفي سنة ١١٨ هـ وجَّه هشام بن عبد الملك قائداً جديداً إلى هذه البلاد ؛ وهو أسد بن زعفر ـ فثبَّت مُلك العرب وقوَّى سُلطان المُسلمين .

وفي عصر الوليد بن يزيد بن عبد الملك ـ أرسل الوليد إلى هذه البلاد مروان بن محمد ـ آخر الخُلفاء الأُمويين ـ على رأس جيشٍ كبيرٍ ؛ فكان أكبر مُساعدٍ على تثبيت مركز الإسلام ؛ ودعَّم أُسس الدولة الإسلاميَّة العربيَّة في تلك الرُّبُوع ؛ إذ لم يكُن أقلَّ من عمِّه مسلمة ثباتاً وعزماً وبُعْدَ نظرٍ ؛ فواقع الخزر ؛ وأبلى بلاءً حسناً ؛ ولما انصرف مسلمة إلى الشام بعد ذلك بقيَ مروان في أراضي «باب الأبواب» يتعهَّد ثغورها وأحوالها ؛ ويُوطِّد السُّلطان العربيَّ الإسلاميَّ فيها ـ حتى أقرَّ له القريب من القبائل وملوكهم والبعيد ؛ وهابته الخزر ؛ وأخذت تتودَّد إليه ؛ وتُؤدِّي له الطاعة والجزية .

قال البلاذُريُّ : أنه لمَّا بلغ عظيم الخزر كثرة من وطئَ به مروان بلاده من الرجال ؛ وما هُم عليه في عُدَّتهم وقُوَّتهم ـ نخب ذلك قلبه ؛ وملأه رُعباً !! ؛ فلمَّا دنا منه ؛ أرسل إليه رسولاً يدعوه إلى الإسلام أو الحرب ؛ فقال : قد قبلت الإسلام ؛ فأرسل إليَّ من يعرضه عليَّ ؛ ففعل ؛ فأظهر الإسلام ؛ ووادع مروان ؛ فأقرَّه في مملكته ؛ وسار مروان معه بخلقٍ من الخزر ؛ فأنزلهم ما بين السمور والشابران في سهل أهل «اللكز» ؛ ثم دخل مروان أرض صاحب السرير ـ فأوقع بأهلها ؛ وفتح فيها قلاعاً ؛ ودان ملك السرير وأطاعه ؛ فصالحه على ألف رأسٍ وخمسمائة غُلامٍ وخمسمائة جاريةٍ سُود الشعور والحواجب وهُدب الأشفار في كُلِّ سنةٍ ؛ وعلى مائة ألف مُدٍّ تُصَبُّ في أهراء «الباب» ؛ وأخذ منه الرهن .

وهكذا كان يصنع مع جميع مُلُوك الجبل وما وراءه ـ فكان يحملهم على

الصُّلح وتأدية الجزية ؛ ثم يُقرُّهم على مُلكهم ؛ فكان من نتائج هذه السياسة الحكيمة في تلك البلاد أن رسخت قدم العرب فيها ؛ وانتشر فيها دينهم بسُرعةٍ عجيبةٍ ؛ حتى لم يبق للأديان القديمة التي سبقته أثرٌ يُذكر !! ؛ وانتشرت مع الإسلام لُغته العربيَّة ؛ فأصبحت بعد قليلٍ من الزمن لُغة الكتابة والتعليم والتفاهم بين أهل الجبل المُختلفي اللُّغات واللهجات !! .

وهي لا تزال كذلك إلى اليوم ؛ مع تخاذُلٍ في بعض الأنحاء اقتضته الظروف والأحوال الحاضرة .

وكُلُّ ذلك يرجع إلى سياسة بني أُميَّة الحازمة ؛ وعلى الأخصِّ سياسة هشام بن عبد الملك وأخيه مسلمة وابن أخيه مروان بن محمد ـ آخر الخُلفاء الأُمويين ـ .

وفي هذه المرَّة استطاع مسلمة بن عبد الملك أن يبسُط سُلطان الإسلام في هذه الرُّبُوع ؛ فأكمل فتح أنحاء الداغستان ؛ ولم تأت سنة ١١٥ هـ حتى كان سُلطان الإسلام باسطاً جناحيه في كُلِّ قريةٍ ومدينةٍ ؛ وحتى انتشر الدُّعاة والحُكَّام والأُمراء المُسلمون يُعلِّمُون ويُرشدون ؛ ويبنون المساجد ؛ ويُقيمون منارات الدِّين والهُدى في كُلِّ مكان .

ومن ذلك التاريخ أصبح هذا الإقليم إسلاميّاً يدين بالإسلام ويُخلص له ؛ وأصبحت مدينة « دربند » ـ أو « باب الأبواب » ـ ثغراً من ثغور المُسلمين يُرابط فيه في سبيل الله .

ولذلك لم تخرج هذه البلاد على العرب يوم شُغِلُوا عنها بحروبهم الأهليَّة

التي نقلت المُلك إلى بني العبَّاس ؛ بل بقيت في أيديهم إلى ظهور السلاجقة .

وإذا كان سُلطان العرب السياسيُّ قد انكمش عن هذه البلاد بعد ذلك ـ فإنَّ أهل البلاد حافظوا في جميع الأدوار التي مرَّت بهم وفي عصور جميع الفاتحين والغُزاة لبلادهم بعد ذلك وإلى أن وقعت في أيدي الرُّوسيين في أوائل القرن التاسع عشر : حافظوا بأمانةٍ وإخلاصٍ في جميع تلك الأدوار على شيءٍ من استقلالهم الداخليِّ ؛ ودينهم الجديد ؛ وتقاليدهم الموروثة ؛ وحافظوا على التفاهُم باللُّغة العربيَّة مُحافظةً غريبةً لا نعهدها في غير هذه البلاد !! ؛ يدُلُّك على ذلك : أنَّ اللُّغة العربيَّة لا تزال إلى اليوم لُغة التدريس والتأليف والتفاهُم بين عُلماء الداغستان والطلبة ؛ وهم يتكلَّمُون ويكتبون بها كأبنائها ؛ ولهم فيها مجلَّةٌ شهريَّةٌ تعنى بنشر الدين والأدب ؛ ينشرها الكاتب الشهير أبو سُفيان .



.....

❁ ـ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ وَالإِسْلاَم فِي الدَّاغِسْتَان (١).

ـ ٢ ـ

.....

وفي عهد الخليفة العُثمانيِّ مُراد الثالث ـ لجأ كثيرٌ من أُمراء وأعيان هذه البلاد إلى السُّلطان العُثمانيِّ يطلبون منه تخليص البلاد من طُغيان الفُرس الإيرانيين الذين كانوا يبسُطُون سُلطانهم على تلك الجهات ؛ ومذهبهم الشيعيّ الذي كانوا يحاولون فرضه على أهل البلاد بالقُوَّةِ في تلك الأيَّام ـ فجرَّد مُراد الثالث قُوَّات كبيرةً على تلك البلاد ؛ استولت عليها في أواخر القرن العاشر الهجريِّ ٩٨٦هـ [١٥٧٨ م] .

وهُنا بدأت صفحةٌ جديدةٌ في تاريخ هذه البلاد ـ فقد نبَّه احتلال العُثمانيين لها أطماع الرُّوسيين في الشمال أو إيقاظها من جديدٍ ؛ لأن أطماع الرُّوسيين في تلك الرُّبُوع قديمةٌ ؛ وحفَّزت الإيرانيين في الجنوب لاسترداد مركزهم وسُلطانهم في تلك الربوع ـ فصارت مسرح أطماع هذه القُوى الثلاث الجبَّارة : تتنازعها هذه مرَّةً ؛ وتلك مرَّةً أُخرى !! ؛ وبعد معاركٍ طاحنةٍ

(١) ـ العدد : ٨٩٥ ـ بتاريخ : ٢٨ ـ ٨ ـ ١٩٥٠ : للأُستاذ بُرهان الدين الداغستاني .

وحُرُوبٍ كثيرةٍ طويلةٍ ؛ وبعد مَدٍّ وجزرٍ استمرَّ أكثر من قرنين ـ استقرَّ الأمرُ هُناك للرُّوسيين في سنة ١٢٢١ هـ [١٨٠٦ م] ـ حين احتلَّها القائد الرُّوسيُّ الأمير ((كينياز سبيانوف)) ؛ وبسط سُلطان الدولة الرُّوسيَّة على تلك الجهات ؛ وقد قُتِلَ هذا القائد الرُّوسيُّ في تلك السنة بيد أحد أهالي الداغستان غيلةً .

وقامت الثورات الوطنيَّة في كثيرٍ من الأنحاء ـ بِمُساعدة الإيرانيين تارةً ؛ وبإيعاز العُثمانيين مرَّةً أُخرى ؛ وأنفةً من أهل البلاد أن يخضعوا للرُّوس تارات .

ولكن كُلّ ذلك لم يُغيِّر من احتلال الرُّوس شيئاً ـ فبقيت البلاد في قبضتهم من ذلك التاريخ .

وقد تولَّى أكبر تلك الثورات وأحكمها تنظيماً الأميرُ المُجاهد ((سورخاى خان)) ـ الذي جمع جميع عُلماء وأعيان وأشراف ((غازي قمون)) وسائر أنحاء الداغستان ؛ وكتب معهم عهداً وميثاقاً وطنيًّاً دينيًّاً : لِمُقاتلة العدوِّ الغازي المُحتل ؛ وِالمُحافظة على أحكام الشريعة الإسلاميَّة .

وهذا هو نصُّ ذلك الميثاق الوطنيِّ الدينيِّ ؛ وقد كتبوه ـ يوم كتبوه ـ باللغة العربيَّة الفُصحى :

((هذا بيانٌ للناس من هذا اليوم ـ وهو اليوم الأول ؛ من ربيع الأول ؛ من السنة الثامنة والعشرين بعد الألف والمائتين :

إن الأمير الكريم ((سورخاي خان)) ؛ والقاضي صنفور القمقيّ ؛ وسائر

أئمَّة بلـدة « غمـوق » ؛ ورؤسائهم ؛ وكُبـرائهم ؛ وعُرفائهم ؛ وخواصّهم ؛ وعوامهم ـ تعاهدوا على أن يتعاونوا على البرِّ والتقوى ؛ وعلى أن يكونوا في أمر المُقاتلة مع العدوّ سواء .

واتفقوا على أن يكون دية كُلّ قتيلٍ من أهل الولاية خمسةً وعشرين « توماناً » من فضّـةٍ رُوسيّةٍ أو قيمتها من غيـرها ؛ سواء كان القتل واقعاً قبل هذا البيان أو بعده .

وعلى أن يكون ثور فدية من سلَّ سيفاً أو خنجراً أو سكّيناً على مُسلم ؛ أو صاحب مثل الشخص المذكور لإعانةٍ ؛ وإن لم يسل هذا الصاحب شيئاً من المذكورات .

وكذا الفدية ممن اشترى عرقاً أو نبيذ عنبٍ ؛ وممن أعطى أو أخذ مالاً بقراضٍ فاسدٍ ـ كأن يدفع قروشاً إلى آخر سنةٍ مثلاً ؛ ليأخذ منه عند تمام السنة مع القروش رباً : كيل حَبٍّ ؛ أو شيئاً آخر .

وهذا المذكور مما مضى به الحكم ؛ وجفَّ به القلم ؛ فمن بدَّله لا يُسمع قوله ؛ ولا يُمدح فعله !! . » . أهـ .

وبعد عقد هذا الميثاق الوطنيِّ الدينيِّ ـ قام الأمير « سورخاي خان » بمُحاولاتٍ جديّةٍ للوقوف أمام سيل جحافل الرُّوسيين التي انتشرت في كُلِّ مكانٍ ؛ ولكن على غير جدوى ولا طائلٍ !! ـ فقد كان الأمر أخطر مما كان يُقدَّر !! ؛ فتمَّ للرُّوس الفتح وبسط السُّلطان ؛ واضطر الإيرانيون أصحاب السُّلطان الأسمى على البلاد إلى مُوادعة الرُّوسيين وعقد الصُّلح معهم .

فاجتمع الجنرال « أنشق ريتشجوف »: القائدُ الرُّوسيُّ الجديد في الداغستان؛ وممثل إيران أبو الحسن الشيرازيُّ؛ في مكانٍ يُقال له « كلستان » في « قره باغ »؛ في الثاني عشر من تشرين الأول سنة ١٢٢٨ ـ وعقدا مُعاهدة صُلحٍ عُرِفَت فما بعد « كلستان »: وتنازلت الدولة الإيرانيَّة بمُقتضاها عن كُلِّ حقٍّ لها في: كورجستان؛ وطالش؛ وقره باغ؛ وكنجة؛ وشكر؛ وشروان؛ وباكو؛ وقوبة؛ وجميع الداغستان !!

ولكن هذا لم يفُت في عضُد « سورخاي خان » ـ فقد ظلَّ يعمل ويجمع الجُمُوع لقتال الرُّوس الغُزاة.

وفي سنة ١٢٣٥ أصدر القائد الرُّوسيُّ في الداغستان الجنرال « يارمالوف » أمره إلى الجنرال « كينياز مدتوف » أن يتوجَّه مع جيشٍ رُوسيٍّ كبيرٍ؛ ومن انضمَّ إليه من جنود بعض الأُمراء المحليين المُوالين للرُّوس؛ مثل « أرسلان خان » حاكم « كورة » إلى جهة « غازي قموق » لقتال « سورخاي خان ».

والتقى الفريقان في قرية « جراغ » في قتالٍ شديدٍ واستبسالٍ؛ ولكن جموع « سورخاي خان » التي كان جمعها هُناك لم تقو على الوقوف أمام قُوَّات الرُّوس؛ فتراجع إلى « غاري قموق ».

وفي سنة ١٢٣٦ تقابل الجنرال « مدتوف » مع « سورخاي خان » مرَّةً ثانيةً بين قريتي « جراغ » و « خوشراك »؛ إلا أن أنصار « سورخاي خان » أُصيبوا في هذه المرَّة أيضاً بالانكسار؛ واضطرَّ هو ومن بقيَ معه من الجيش

إلى الانسحاب إلى « غازي قمون » ؛ ثم انسحب منها إلى جهة « عندال » في منطقة « آوار ».

ودخل الجنرال « كينياز مدتوف » إلى « غازي قمون » بغير قتالٍ ولا سفك دماء ؛ وأعلن بين الأهليين ضم إقليم « غازي قمون » إلى إدارة حاكم « كورة » الجنرال « أرسلان خان » على شرط الطاعة للدولة الرُّوسيَّة .

وأما « سورخاي خان » ؛ فإنه توجَّه إلى طهران في بلاد العجم ؛ وبعد مُحاولاتٍ كثيرةٍ استغرقت نحو خمسة أعوامٍ قضاها في إيران ـ رجع إلى الداغستان مع حملةٍ عسكريَّةٍ قويَّةٍ لقتال الرُّوسيين من جديد .

ففي سنة ١٣٤٢هـ اجتاز « شماخي » إلى « عندال » ؛ ومنها توجَّه إلى قرية « ثغراك » ؛ ولكنه انتقل إلى رحمة الله في « ثغراك » قبل أن يستطيع عمل شيءٍ جدِّيٍّ ؛ وَدُفِنَ فيها رَحِمَهُ الله .

وأما أولاده ؛ فقد تركوا تلك الجهات نهائيًّا ؛ وهاجروا إلى الدولة العُثمانيَّة بعد وفاة والدهم .

يقول مرزا حسن القداريُّ في كتاب « آثار داغستان » : كان المرحوم « سورخاي خان » عالمًا فاضلاً ؛ قويُّ المعرفة بالعلوم العربيَّة .

وبعد دخول هذه البلاد تحت حُكم الرُّوس بمقتضى معاهدة « كلستان » أو مُعاهدة داغستان المعقودة بين الإيرانيين والرُّوسيين سنة ١٨١٦ م ـ أخذ الرُّوسيون يجرون عليها أنظمتهم الإداريَّة العامة ؛ ويحتلُّون بجيوشهم المواقع الحربيَّة الهامَّة ؛ احتياطاً لما عساه يُفاجئهم ؛ لأنَّ الأمن لم يكُن استتبَّ في

البلاد بعد ؛ وأن بعض أُمرائها لم يكُن راضياً عن دخول البلاد في حوزة الرُّوسيين ؛ ولهذا كانوا ينتهزون الفُرص للانتقاض والفتك بحاميات الرُّوس الضعيفة ؛ وكانوا قد ألَّفوا لذلك جمعيَّةً سريَّةً حربيَّةً سنة ١٨١٨ م ؛ إلا أن قائد الجيوش الرُّوسيَّة الجديد الجنرال « برمالوف » لم يعبأ بذلك ؛ وظلَّ يسير بجيوشه إلى داخل البلاد ؛ يفتح ما بقيَ من حصونها المنيعة ؛ ويحتلُّ إمارةً بعد إمارةٍ ؛ إلى أن أذعنت له جميع الإمارات والمُقاطعات المُستقلة ؛ وأدَّت له الطاعة ؛ فخُيِّلَ إليه أن الأمن قد استتب ؛ فصار يُقلِّلُ من عدد الحاميات والجُيُوش ؛ ولكن سُرعان ما أظهرت الحوادث غلطه في حُسْنِ ظنِّه في الأهالي - إذا لم يمض على مُعاهدة داغستان بضع سنواتٍ حتى هبَّ في أوائل سنة ١٢٤٠هـ أحد أبطال الجبل : « الغازي محمد الكمراويُّ الأواريُّ » في قرية « كمرا » في رأسٍ من رؤوس الجبل ؛ وثار على الحكومة الرُّوسيَّة ؛ وعلى الأُمراء المحليين الذين استسلموا للرُّوسيين ؛ وطالب أن تكون المُعاملات وفقاً لأحكام الشريعة الإسلاميَّة لا للعادات القديمة الباقية من جاهليَّة أُولئك الأقوام ؛ وألَّف رسالةً في وجوب نبذ تلك العادات القديمة المُخالفة للشرع وسمَّاها « إقامة البُرهان على ارتداد عُرفاء داغستان » ؛ وكان من العُلماء المُتبحِّرين في العلوم العربيَّة والشرعيَّة ؛ وهو الذي يُلقبُهُ الرُّوسيُّون بـ « قاضي مُلاً » ؛ ثم أخذ يدعو الناس إلى الجهاد في سبيل الدين والوطن ويُوحِّد كلمتهم ؛ فاجتمع لديه في وقتٍ قريبٍ جمعٌ غفيرٌ من سُكَّان الجبل ؛ فبدأ في أوائل سنة ١٢٤٢ هـ يزحف بهم إلى القلاع المُنعزلة ويحتلُّها

ويقتل حاميتها ؛ ثم تحوَّل إلى عاصمة البلاد « درنبد » ؛ وشرع في حصارها ؛ واستنفر سُكَّان « طبسران » وأُمَّة « الججن » ؛ فنهضوا كُلّهُم لنجدته ؛ وظلُّوا يُحاربون الجيوش الرُّوسيَّة المُنظَّمة ؛ حتى استشهد الإمام « الغازي محمد الكمراويُّ » في معمعة القتال بقرية « كمرا » في ثامن جُمادى الآخر سنة ١٢٤٨هـ [٢٩ تشرين أول سنة ١٨٣٢ م] بعد حصارٍ طويلٍ !!.

على أنَّ استشهاده لم يضع حدًّا للثورة ؛ ولا أوهن عزيمة المُقاتلين ـ فخلفه على قيادة الثورة ورفع علم الجهاد من بعده الغازي الشهيد « حمزة بك » ؛ الذي قام بأعباء الثورة ونظَّم حركتها ؛ واستمرَّ يُقاتل ويجُاهد حتى استشهد بعد ذلك في أواخر سنة ١٢٥٠ هـ بقُرب مدينة « خنزاخ » ؛ فخلفهما في القيادة إمامٌ آخرٌ ؛ أشدُّ منهما مراساً ؛ وأبعد نظراً ؛ وأكبر هيبةً في نظر الجماهير من المُجاهدين والأعداء على السواء ؛ وأقوى على احتمال ويلات الحرب الجبليَّة ـ وهو الإمام الشيخ « شامل » ؛ الذي طبَّقت شُهرته الخافقين ـ لما أبداه من البطولة ؛ وحُسْنِ الإدارة ؛ وتنظيم العلم ؛ ثم بوقوفه أمام عدوٍّ عظيمٍ جبَّارٍ مُدجَّجٍ بالأسلحة الحديثة تلك المُدَّة الطويلة من سنة ١٢٥٠ هـ إلى أوائل سنة ١٢٧٦هـ !! ؛ أذاق خلالها جيوش الرُّوس الأمرَّيْن !! ؛ وحمَّلهم من الخسائر في المال والرجال ما يصعب تقديره !!

والشيخ شامل مثل الشيخ عبد القادر الجزائريّ ـ خرج من المشيخة إلى الإمارة ؛ وتناول السيف من طريق القلم ـ كما يقول المرحوم أمير البيان الأمير شكيب أرسلان ـ ؛ ولم يكُن الشيخ شامل في سعة علم سلفيه

ـ الغازي محمد وحمزة بك ـ ؛ ولكنه كان أحسن منهما إدارةً للأُمُور ؛ وبصيرةً بالحروب ؛ فشمَّر عن ساق الجهاد ؛ والتفَّ ذلك الشعب الأبيُّ من حوله ؛ فذبَّ عن حوض مِلَّتِهِ نحو ٢٥ سنة ؛ ظفر فيها بالرُّوس في وقائعٍ عديدةٍ ؛ وألقى الرُّعب في قلوبهم !! ؛ وأجلاهم عن جميع البلاد إلا بعض مواقع ثبتوا فيها في الناحية الجنوبيَّة ؛ وكانت أعظم الغارات التي والاها عليهم هي في سنتي ١٨٤٣ ـ ١٨٤٤ م ـ حيث افتتح جميع الحُصُون التي كانت لهم في الجبال !! ؛ وغنم منهم ٣٥ مدفعاً !! ؛ وأعتاداً حربيَّةً ومُؤناً وافرةً ؛ وأخذ عدداً وافراً من الأسرى !! ؛ فجرَّدت الدولة الرُّوسيَّة بعظمة مُلكها وسُلطانها جُيُوشاً جرَّارةً !! ؛ ونادت هي بالجهاد في الداغستان !! ؛ ونظم شُعراء الرُّوس القصائد في وصف تلك الحروب !!

وما زالت تُوالي الزحوف ـ حتى تمكَّنت من البلاد ؛ ولكن بقيَ الشيخ شامل عشر سنواتٍ أُخرى يُناوشها القتال في الجهات الغربيَّة من الجبال ؛ ولم يُسلِّم هذا المُجاهد العظيم للرُّوس إلا في ٦ سبتمبر سنة ١٨٥٩ م [صفر سنة ١٢٧٦ هـ] ؛ فنُقل هو ومن معه من عياله ومُرافقيه إلى بطرسبورغ ؛ فاستقبله القيصر إسكندر الثاني وأكرم وفادته ؛ ثم نُقِلَ إلى كالوغا ؛ ومنها إلى كييف .

وبعد أن قضى ـ خلافاً للعهود التي كانت أُعطيت له قبل التسليم من أنهم سيُرسلونه إلى خليفة المُسلمين في القُسطنطينيَّة ـ في الأسر عشرة أعوامٍ ـ أُذن له بالسفر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ؛ فسافر هو ومن معه إلى

القُسطنطينيَّة ؛ حيث احتفل به السُّلطان عبد العزيز خان وأكرم وفادته ؛ ومنها ذهب إلى مكَّة المُكرَّمة ؛ حيث أدَّى فريضة الحج في ١٢٨٦ هـ ؛ ثم ذهب إلى زيارة الرَّسُول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في المدينة المُنوَّرة ؛ وبقيَ فيها حتى لقيَ رَبَّهُ : قُبَيْلَ غروب شمس يوم الأربعاء ؛ الخامس والعشرين من ذي القعدة ؛ سنة ١٢٨٧ هـ [٢٨ مايو سنة ١٨٧٠ م] ؛ ودُفِنَ بالبقيع - عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللهِ وَرُضْوَانُهُ - في مُواجهة قبر العبَّاس عمِّ النَّبيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

وانتهت بذلك الحرب في الجبل تقريباً ؛ ودخلت البلاد في دورٍ جديدٍ من حياتها ؛ نستطيع أن نُسمِّيه : دور التقرُّب بين الحكومة الغالبة وبين الأهالي ؛ ودور العمل على نشر الحضارة الجديدة بينهم !! - فقد رأت الحكومة بعد ما عاينته مُدَّة الحُرُوب الأخيرة من تعلُّق سُكَّان الجبل ببلادهم وحُريَّتهم ؛ وشيوخهم وأمرائهم : أن تتقرَّب من هذه الطبقة صاحبة السُّلطان الحقيقيِّ في الجبل ؛ فردَّت إليهم أملاكهم التي كانت حجزتها أيَّام الحرب ؛ وأرجعت من كانت أبعدتهم عن مراكزهم أو وظائفهم إلى ما كانوا عليه وصارت تعاملهم بالحُسنى ؛ ثم إنها تساهلت مع الشعب فتركت له سلاحه ؛ وأعفته من الخدمة العسكريَّة ؛ وأقامت له محاكم شرعيَّة ؛ ثم حطَّت عنه بعض الضرائب ؛ وخصَّصت مبلغاً معلوماً يُنفق سنويَّاً على حاجيات البلاد من الخزينة المركزيَّة ؛ مُراعيةً في كُلِّ ذلك عواطف الشعب وعاداته القديمة واقتصاديات البلاد - فتمكَّنت بذلك من إرضاء أكثر السُّكَّان ؛ وإخماد رُوح الثورة إلى حدٍّ ما بين سُكَّان البلاد - إذا نحن صرفنا النظر عن بعض حوادث

الثورة التي كانت تظهر بين الفينة والفينة هُنا وهُناك في بعض أنحاء تلك البلاد ؛ وأهمها تلك الثورة التي حدثت سنة ١٨٧٨ م عندما كانت الدولة الرُّوسيَّة مُشتبكةً في حربٍ مع الدولة العُثمانيَّة ؛ ولكن سُرعان ما تفرَّغت الحكومة الرُّوسيَّة لإخماد هذه الثورة بعد تصفية حسابها مع العُثمانيين – فاستطاعت أن تقضي عليها بسُرعةٍ ؛ وعرضت على سُكَّان الجبل الطاعة التامَّة مع الإخلاص ؛ أو الجلاء عن البلاد والخروج منها إلى حيث يريدون – ففضَّل كثيرٌ من سُكَّان تلك البلاد الهجرة منها إلى تُركيا ؛ فأنزلتهم حكومتها في بعض جهات الأناضول ؛ وفي سورية ؛ وفي شرق الأُردن ؛ وفي العراق : حيث لا يزالون يُقيمون في تلك الأنحاء مُواطنين مُخلصين لأوطانهم الجديدة حيث يلقون من أهل البلاد وحكوماتها كُلَّ رعايةٍ وعطفٍ واحترام .

وبقيَ آخرون في بلادهم مُتمسِّكين بعُرَى أحكام دينهم وتقاليدهم ؛ واستمرَّت الحال على ذلك حتى كان الانقلاب الشيوعيُّ الذي قلب القيصريَّة الرُّوسيَّة سنة ١٩١٧ م .

هذا عرضٌ مُوجزٌ للأدوار التي مرَّت على الإسلام واللُّغة العربيَّة في الداغستان قبل الثورة الشيوعيَّة سنة ١٩١٧م .



تم الكتاب



✿ ـ دِيوَانٌ شِعْرِىٌّ:

كُلُّ النِّسَاءِ بِلا شَرَف

لِشَاعِرِ الشَّمَال

مُحَمَّد مَحْمُود دَحْرُوج

الشَّهِيـر بِـ:

« نِزَار شَاهِين المِصْرِى »

✿✿✿✿✿ ✿✿✿✿✿ ✿✿✿✿✿

.....

✿ ـ إهْـدَاء



رَبَاب «...» لَحْـنٌ قَـدِيمٌ لَـم يَرْتَضِ طُهْرِى

وَمَا عَـرِفَ الوَفَاء «

حَنَـان «...» غَانِيَـةُ مَـدِينَةِ الـرِّيَاض «...»

وَكَانَت البدَايَـة «

إلْهَام «...» تَرْنِيمَةٌ مِن سِفْـرِ الجَحِيم «

.....

إلَى الأَرْوَاحِ الَّتِى مَـا عَرِفَت طُهْـرَاً وَلاَ بَـرَاءَةً

أهْـدِى هَـذِهِ القَصَائِـد

.....

كُـولِـرِدْج العَـرَب

نِزَار شَـاهِـين المِصْـرِى

[1981ـ 2013]



.....

✿ ـ تَصْدِير



﴿ وَعُدتُ أَدْرَكْتُ الحَقِيقَةَ وَاليَقِين !!
وَخُضْتُ فِى عَبَثِ الخَنَا طَلَّقْتُ
سَنَوَاتِ الهَوَى أَلْقَيْتُ ذَاتِى وَسْطَ
عِشْقٍ كَافِرٍ شَرِسٍ
لَعِين !!
وَذَهَبْتُ أَلْهُو مُلْقِيًا ثَوْبَ التَّكَلُّفِ
سَادِرًا فِيمَا أَشَاء !!
حُطِمَت حُصُونُ بَرَاءَتِى ضَاعَ
الجَمَالُ !!... ؛ وَلَعْنَةُ الرَّحْمَنِ
تَلْحَقُ بِالنِّسَاء !! . ﴾ .



.....

ـ مدخل



يَا إِلَهِى !! ؛ رَحِمَ اللهُ الهَوَى !! ؛
كَانَ قِدِّيساً !! ؛ فَعَانَدَهُ الزَّمَانُ !! ؛
فَقَد تَزَنْدَقَ أو غَوَى !!
كَانَ الْمُنَزَّهَ لِلشَّنَاعَةِ مَا
أَتَى إِى لِلْمَبَاذِلِ مَا اقْتَرَف !!
وَجَنَى الثِّمَارَ جَمِيعَهَا فِي
يَوْمِ أن عَرِفَ الحَقِيقَةَ مَحْضَهَا :
أَنَّ النِّسَاءَ بِلا شَرَف !! .



.....

✿ - بَيْنَ يَدَى الدِّيوَان :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

.....

« **كل النساء بلا شرف** !! » !! ؛ عُنْوَانٌ صَادِمٌ مُوجِعٌ !! ؛ وَسَيُخَالِفُنِى بَعْضُهُم أو أَكْثَرُهُم !! ؛ وَسَيُنْكِرُ عَلَىَّ مَن يُوَافِقُنِى الرَّأْىَ أَنَّنِى صَرَّحْتُ بِعَقِيدَتِى هَذِهِ عَلَى المَلأ وَقَد كَانَ فِي الإِشَارَةِ وَالتَّلْمِيحِ مُتَّسَعٌ !! .

وَمَهْمَا يَكُن مِن أَمْرٍ ؛ فَقَدِيمَاً قِيلَ : « لاَ جِدَالَ فِي مُعْتَقَد » ؛ فَلِكُلِّ فَتَىً أن يَرَى مَا يُرِيد ؛ وَلِكُلِّ امْرِىءٍ أن يَرُدَّ وَأَن يُعَقِّبَ ؛ وَمَن رَأى أَنَّ القَوْلَ مَذْمُومٌ أو مَجْرُوح ؛ فَإِنَّ بَابَ السِّجَالِ وَالنِّزَالِ غَيْرُ مُوصَدٍ أَوْ مُغْلَقٍ بَل مَفْتُوح ؛ وَلْتَكُن عَلَى حُذْرٍ مِمَّن تُقَاتِل !! ؛ فَإِنَّ بِالكِنَانَةِ مِنَ السِّهَامِ مَا يَقُومُ بِأَمْرِ الكَتِيبَةِ ذَاتِ العَدَدِ !! .

.....

إِذَا كُنَّا فِي زَمَنٍ قَلَّ فِيهِ الرِّجَالُ !! ؛ فَمَا تَكَادُ تَظْفَرُ فِي القَرْيَةِ العَامِرَةِ إِلاَّ بِرَجُلَيْنِ أَوْثَلاثَةٍ مِن بَيْنِ عَشَرَاتِ الذُّكُورِ ؛ فَإِنَّكَ إِن رُمْتَ البَحْثَ عَن الفَتَيَاتِ الصَّالِحَاتِ ؛ فَإِن أَصَبْتَ فِي المَدِينَةِ العَظِيمَةِ الَّتِى امْتَلأَت بِالأُنَاسِىِّ حَتَّى ضَاقَت عَلَيْهِم وَاحِدَةً بِهَذِهِ الصِّفَةِ ؛ مَعَ الاخْتِبَارِ وَالامْتِحَانِ وَالابْتِلاَءِ الشَّدِيدِ ؛ ثُمَّ جِئْتَ تُحَدِّثُنَا بِمَا رَأَيْتَ - كُنَّا كَمَن يُنْصِتُ لِحَدِيثٍ يَقُصُّ عَلَيْنَا بَعْضَ مَا جَرَى لِبَنِى إِسْرَائِيلَ فِي غَابِرِ الأَزْمَانِ وَسَالِفِ الدُّهُورِ ؛ فَلاَ

نُصَدِّقُ وَلا نُكَذِّبُ ؛ هَـذَا مَعَ جَزْمِنَا بِأَنَّ الرَّاوِى صَدُوقٌ لا يَكْذِبُ ؛ وَفَطِنٌ لَبِيبٌ لا يُخْدَعُ ؛ وَحَكِيمٌ مُجَرِّبٌ ؛ وَمَا زِدْنَا عَلَى قَوْلِنَا لَهُ :

« حَدِيثُ خُرَافَةٍ يَا أُمَّ عَمْرٍو !! »

مِن كَلَامِ نَبِيِّ اللهِ دَاوُدَ ـ عليه السلام ـ : (وَجَدْتُ مِنَ الرِّجَالِ وَاحِداً فِي أَلْفٍ ؛ وَلَم أَجِد وَاحِدَةً فِي النِّسَاءِ جَمِيعاً .) .

فَهَـذَا نَبِيٌّ مِن أَنْبِيَاءِ اللهِ ـ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِم جَمِيعاً ـ ؛ فَلاَ مَجَالَ هَا هُنَا لِتَحْكِيمِ الْمَنْطِقِ فِي الحُكْمِ عَلَيْهِ أَوْ عَلَى مَقُولَتِهِ ؛ فَلَيْسَ هُوَ كَأَيِّ امْرِىءٍ مِن بَنِي آدَمَ ـ عليه السلام ـ حَتَّى نَحْكُمَ عَلَى عِلْمِهِ وَذَكَائِهِ وَحِكْمَتِهِ وَمَا دَارَ فِي هَذَا الفَلَكِ مِن مَعَان ؛ فَهُوَ مَعْصُومٌ ؛ وَالعِصْمَةُ حِجَابٌ بَيْنَ صَاحِبِهَا وَبَيْنَ الخَطَأِ ؛ فَمَن طَعَنَ فِي كَلامِ الأَنْبِيَاءِ ؛ كَانَ كَمَن طَعَنَ فِيهِم ؛ وَمَن طَعَنَ فِي نَبِيٍّ فَقَد دَلَّ عَلَى مَبْلَغِهِ مِنَ الحِكْمَةِ وَالعَقْلِ وَالعِلْمِ !! ؛ دَلَّ عَلَى حُمْقٍ وَطَيْشٍ وَجَهْلٍ .

وَمَن سَلَّمَ وَآمَنَ ـ عَلِمَ أَنَّنَا مَا جِئْنَاهُ بِقَوْلٍ افْتَرَيْنَاهُ وَاخْتَلَقْنَاهُ ؛ وَأَنَّنَا لا نَصْدُرُ فِي كَلامِنَا إِلاَّ عَن عِلْمٍ وَرَوِيَّةٍ وَفَهْمٍ .

•••••

المَرْأَةُ كَائِنٌ مُسْتَقْذَرٌ عَفِنٌ فِي أَكْثَرِ أَمْرِهِ !! ؛ لاَ يَحْسُنُ مِنْهَا فِي عَيْنِ النَّاظِرِ الَّذِى أُوتِىَ عِلْماً وَفَهْماً إِلاَّ ظَاهِرُهَا ؛ وَأَمَّا مَا بَطَنَ مِنْهَا مِن جَسَدِهَا فَهُوَ كَدَخِيلَةِ نَفْسِهَا الَّتِى تَخْفَى عَلَى الضَّمَائِرِ ؛ فَالبَطْنُ كَالبَاطِنِ ؛ وَالطِّينَةُ كَالطَّوِيَّةُ ؛ خَبَثٌ وَنَتَنٌ وَعَفَنٌ وَرَدَاءَةٌ !!

عَن وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ ؛ قَال : عَاقَبَ اللهُ المَرْأَةَ بِعَشْرِ خِصَالٍ : شِدَّةُ النُّفَاسِ

وَبِالحَيْضِ ؛ وَبِالنَّجَاسَةِ فِي بَطْنِهَا وَفَرْجِهَا ؛ وَجَعَلَ مِيرَاثَ امْرَأَتَيْنِ مِيرَاثَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ؛ وَشَهَادَةَ امْرَأَتَيْنِ كَشَهَادَةِ رَجُلٍ ؛ وَجَعَلَهَا نَاقِصَةَ العَقْلِ وَالدِّينِ ؛ لاَ تُصَلِّي أَيَّامَ حَيْضِهَا ؛ وَلاَ يُسَلَّمُ عَلَى النِّسَاءِ ؛ وَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُمْعَةٌ وَلاَ جَمَاعَةٌ ؛ وَلاَ يَكُونُ مِنْهُنَّ نَبِيٌّ ؛ وَلاَ تُسَافِرُ إِلاَّ بِوَلِيٍّ .

.....

وَمَا وُجِدَتِ المَرْأَةُ فِي مَكَانٍ إِلاَّ وَوُجِدَ الفَسَادُ وَالشَّرُّ وَالكَرْبُ !! ؛ فَهِيَ مِن قَادَةِ وَأَبْطَالِ الفِتْنَةِ وَالوَقِيعَةِ وَالبَغْضَاءِ !! ؛ وَهِيَ ذُلُّ الأَحْرَارِ !! ؛ وَضَيَاعُ العِزِّ !! ؛ كَم فَرَّقَت مِن أَحْبَابٍ !! ؛ وَكَم بَدَّلَت مِن مَوَاطِنِ الخَيْرِ وَالجَمَالِ ؛ فَأَحَالَتْهَا إِلَى أَرْضِ بُؤْسٍ وَشَقَاءٍ وَتَعَاسَةٍ وَخَرَابٍ !! .

وَقَد قِيلَ : الشَّيْطَانُ أُسْتَاذٌ لِلْعُصَاةِ مِنَ الرِّجَالِ ؛ وَهُوَ تِلْمِيذٌ لِلْمَرْأَةِ !!

قَالَ العُتْبِيُّ : سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ عَن نَاسٍ مِن أَهْلِ الشَّامِ : أَنَّ أَخَوَيْنِ كَانَ لأَحَدِهِمَا زَوْجَةٌ ؛ وَكَانَ يَغِيبُ وَيَخْلُفُهُ الآخَرُ فِي أَهْلِهِ ؛ فَهَوِيَتْهُ امْرَأَةُ الغَائِبِ !! ؛ فَأَرَادَتْهُ عَلَى نَفْسِهَا !! ؛ فَامْتَنَعَ ؛ فَلَمَّا قَدِمَ أَخُوهُ سَأَلَهَا عَن حَالِهَا ؛ فَقَالَت : مَا حَالُ امْرَأَةٍ تُرَاوَدُ فِي كُلِّ حِينٍ ؟!! ؛ فَقَالَ : أَخِي !! ؛ وَابْنُ أُمِّي !! ؛ وَإِنِّي لاَ أَفْضَحُهُ !! ؛ وَلَكِن للهِ عَلَيَّ أَلاَّ أُكَلِّمَهُ أَبَدًا .

ثُمَّ حَجَّ وَحَجَّ أَخُوهُ وَالمَرْأَةُ ؛ فَلَمَّا كَانُوا بِوَادِي الدَّوْمِ هَلَكَ الأَخُ وَدَفَنُوهُ ؛ وَقَضَوْا حَجَّهُم ؛ وَرَجَعُوا ؛ فَمَرُّوا بِذَلِكَ الوَادِي لَيْلاً ؛ فَسَمِعُوا هَاتِفًا يَقُول :

أَجِدَّكَ تَمْضِي الدَّوْمَ لَيْلاً وَلاَ تَرَى
عَلَيْكَ لأَهْلِ الدَّوْمِ أَن تَتَكَلَّمَا !!

وَبِالـدَّوْمِ ثَاوٍ لَـوْ ثَـوَيْتَ مَـكَانَـهُ
وَمَـرَّ بِـوَادِي الـدَّوْمِ حَيّاً لِسَلَّمَا !!

فَظَنَّت المَرْأَةُ أَنَّ النِّدَاءَ مِنَ السَّمَاءِ !! ؛ فَقَالَت لِزَوْجِهَا : هَذَا مَقَامُ العَائِذِ !! ؛ كَانَ مِن أَخِيكَ وَمِنِّي كَيْت وَكَيْت !! ؛ فَقَالَ : وَاللهِ لَوْ حَلَّ قَتْلُكَ لَوَجَدْتِنِي سَرِيعاً !! ؛ فَفَارَقَهَا ؛ وَضَرَبَ خَيْمَةً عَلَى قَبْرِ أَخِيهِ ؛ وَقَال :

هَجَرْتُكَ فِي طُولِ الحَيَاةِ وَأَبْتَغِي
كَلاَمَكَ لَـمَّا صِرْتَ رَمْساً وَأَعْظُمَا
ذَكَرْتُ ذُنُوباً فِيكَ كُنْتَ اجْتَرَمْتَهَا
أَنَا مِنْكَ فِيهَا كُنْتُ أَسْوَا وَأَظْلَمَا

وَلَم يَزَل مُقِيماً حَتَّى مَاتَ وَدُفِنَ بِجَنْبِ أَخِيهِ !! ؛ فَالقَبْرَانُ مَعْرُوفَان !!

فَانْظُر إِلَى شَأْنِ هَذِهِ المَرْأَةِ الفَاجِرَةِ !! ؛ كَيْفَ اسْتَحَلَّت أَن تُرَاوِدَ مَن خَرَجَ وَزَوْجُهَا مِن بَطْنٍ وَاحِدَةٍ ؟!! ؛ وَمَا كَفَاهَا هَذَا الأَمْرُ الشَّنِيعُ !! ؛ فَمَازَالَت بِهِمَا حَتَّى قَتَلَتْهُمَا ؟!!

.....

تَمْضِى وَفِي جَسَدِهَا يَكْمُنُ مَنبَعُ بُرْكَانِ الشَّهْوَةِ !! ؛ تَسْعَى بِقَدَمَيْهَا بَيْنَ النَّاسِ وَفِي عَيْنَيْهَا لَوتَأَمَّلْتَ يَسْتَقِرُّ عَرْشُ الخَنَا وَالفُجُورِ وَالزِّنَا !! .

قَالَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ : « إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ ؛ وَتُدْبِرُ فِي

صُورَةِ شَيْطَانٍ . .!!. (١)..

(١) ـ أخْرَجَهُ مُسْلِمٌ [1403] ؛ وَأَحْمَدُ فِي ((مُسْنَدِهِ)) ؛ [14537] ؛ وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْد فِي ((مُسْنَدِهِ)) ؛ [1061] ؛ ـ عَلَى مَا فِي ((الْمُنْتَخَبُ مِن مُسْنَدِ عَبْدِ ابْنِ حُمَيْد)) : نُسْخَةُ صُبْحِي السَّامِرَّائِي ؛ وَمَحْمُود مُحَمَّد خَلِيل الصَّعِيدِي ـ : جَمِيعاً بِهَذَا اللَّفْظِ تَامَّاً ؛ مِن حَدِيثِ أَبِي الزُّبَيْرِ عَن جَابِرٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ ؛ بِهِ ؛ وَلَم يُرْوَ هَذَا الحَدِيثُ إِلاَّ مِن هَذَا الطَّرِيقِ .
وَأَخْرَجَهُ مُقْتَصِراً عَلَى طَرَفِهِ الأَوَّلِ : أَبُو دَاوُد [2151] ؛ وَالتِّرْمِذِيُّ [1158] ؛ وَابْنُ حِبَّان فِي ((صَحِيحِهِ)) ؛ [5572] .
قُلْتُ : وَلَم يُرْوَ هَذَا الحَدِيثُ إِلاَّ مِن طَرِيقِ أَبِي الزُّبَيْرِ عَن جَابِرٍ ؛ وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ رِجَالُ الشَّيْخَيْنِ ؛ غَيْرَ أَبِي الزُّبَيْرِ هَذَا ؛ انْفَرَدَ مُسْلِمٌ فِي الاحْتِجَاجِ بِهِ ؛ بَيْنَمَا رَوَى لَهُ البُخَارِيُّ مَقْرُوناً ؛ وَهُوَ مُدَلِّسٌ ؛ وَقَد عَنْعَنَ فِي رِوَايَتِهِ هَذَا الحَدِيثَ ؛ وَلِذَلِكَ فَأَنَا أَحْكُمُ بِضَعْفِهِ ؛ وَإِن ذَهَبَ بَعْضُ الأَئِمَّةِ مِنَ المُعَاصِرِينَ إِلَى القَوْلِ بِصِحَّتِهِ ؛ وَعَلَى رَأْسِهِم أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الأَلْبَانِيُّ ـ رحمه الله ـ !! ؛ اعْتِمَاداً عَلَى أَحَادِيثِ ظَنُّوا أَنَّهَا تَشْهَدُ لِهَذَا الحَدِيثِ ؛ وَمَا هِيَ مِنَ الشَّوَاهِدِ فِي كَثِيرٍ أَو قَلِيلٍ !! ؛ وَلِذَلِكَ أَحْجَمَ الْمُتَقَدِّمُونَ عَن الجَزْمِ بِصِحَّتِهِ ؛ لِيَقِينِهِم بِأَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةَ مَا يَشْهَدُ لَهُ مِن صَحِيحٍ أَوْ ضَعِيفٍ ؛ وَلَم أَرَ مَن نَبَّهَ إِلَى هَذِهِ الفَائِدَةِ قَبْلِي ؛ فَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .
وَمَهْمَا يَكُن مِن أَمْرٍ ؛ فَإِنَّ هَذَا الحَدِيثَ وَإِن يَكُن ضَعِيفاً ؛ إِلاَّ أَنَّهُ يَصْلُحُ فِي

فَالمَرْأَةُ عِلَّةُ الفَسَادِ الأَخْلاَقِيِّ فِي كُلِّ أَرْضٍ وَفِي كُلِّ زَمَان !!

وَلِذَلِكَ قِيلَ : « نِعْمَ الصِّهْرُ لِلْمَرْأَةِ القَبْر »!!

وَمِن قَبْلُ قَالَ أَبُقْرَاط : « لِلْمَرْأَةِ سِتْرَان : بَعْلُهَا ؛ وَقَبْرُهَا » !!

.....

وَإِذَا أَقْبَلَت المَرْأَةُ فِي رِدَاءِ الغَدْرِ رَأَيْتَ مَا يُجَاوِزُ فِي قُبْحِهِ كُلَّ مَعْنًى مِن مَعَانِي الفَظَاعَةِ وَالبَشَاعَةِ وَالوَضَاعَةِ !! ؛ فَلَوْ كَانَت نَفْسُ المَرْأَةِ الغَادِرَةِ تَتَجَلَّى وَتَتَجَسَّدُ كَالأَبْدَانِ وَالأَجْسَادِ لأَبْصَرْتَ كِيَانًا حِسِيًّا تَهْرَبُ مِن رَهْبَةِ مَنْظَرِهِ وَصُورَتِهِ المُسُوخُ وَالشَّيَاطِينُ حَتَّى لاَ تَدْرِى فِي أَيِّ وَادٍ هَلَكَت !! ؛ مُؤْثِرَةً لأَيِّ أَمْرٍ سِوَى أَن تُبْتَلَى بِرُؤْيَةِ النَّفْسِ المُتَجَلِّيَةِ لِلْمَرْأَةِ الغَادِرَة !!

كَانَ صَخْرُ بْنُ الشَّرِيدِ - أَخُو الخَنْسَاءِ ؛ الشَّاعِرَةِ العَرَبِيَّةِ المَعْرُوفَةِ - فَارِسًا مِقْدَامًا ؛ وَكَانَ قَد خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ مَعَ رِفَاقِهِ فِي غَزْوَةٍ مِن غَزَوَاتِهِم ؛ فَقَاتَلَ فِيهَا قِتَالاً شَدِيدًا دَلَّ عَلَى شَجَاعَتِهِ وَفُحُولَتِهِ فِي القِتَالِ ؛ إِلاَّ أَنَّهُ أُصِيبَ بِجُرْحٍ عَظِيمٍ ؛ فَمَرِضَ مِنْهُ ؛ ثُمَّ طَالَ بِهِ المَرَضُ ؛ وَجَاءَ القَوْمُ يَعُودُونَهُ ؛ فَقَالَ أَحَدُهُم يَوْمًا لامْرَأَتِهِ سَلْمَى : كَيْفَ أَصْبَحَ صَخْرٌ اليَوْم ؟ ؛ فَأَجَابَتْهُ قَائِلَةً : لاَ حَيًّا فَيُرْجَى !! ؛ وَلاَ مَيِّتًا فَيُنْسَى !! ؛ فَسَمِعَ الفَارِسُ الجَرِيحُ - صَخْرُ بْنُ

مَقَامِنَا هَذَا ؛ فَلَيْسَ هُوَ بِشَدِيدِ الضَّعْفِ ؛ كَمَا أَنَّ مَوْضُوعَنَا الَّذِى نَخُوضُ فِيهِ لَيْسَ مِن قَبِيلِ الأَحْكَامِ الفِقْهِيَّةِ الَّتِى تَأْتِى بِتَحْرِيمٍ أَوْ تَحْلِيلٍ ؛ وَلِذَا فَهُوَ يُمَرَّرُ وَيُقْبَلُ عَلَى ضَعْفِهِ .

الشَّرِيد - كَلامَهَا هَذَا !! ؛ فَشَقَّ عَلَيْهِ وَبَلَغَ مِن نَفْسِهِ مَبْلَغاً عَظِيماً !! ؛ فَسَأَلَهَا : أَنْتِ القَائِلَةُ كَذَا وكَذَا ؟!! ؛ فَأَجَابَتْهُ غَيْرَ عَابِئَةٍ بِهِ : نَعَم ؛ غَيْرَ مُعْتَذِرَةٍ إِلَيْكَ !! ؛ فَبَلَغَ بِهِ الأَمْرُ مَا لا سَبِيلَ وَرَاءَهُ !!

ثُمَّ جَاءَ بَعْضُ عُوَّادِهِ يَوْماً ؛ فَسَأَلَ أُمَّهُ : كَيْفَ أَصْبَحَ صَخْرٌ اليَوْم ؟ ؛ فَأَجَابَتْهُ قَائِلَةً : أَصْبَحَ بِحَمْدِ اللهِ صَالِحاً ؛ وَلا يَزَالُ بِحَمْدِ اللهِ بِخَيْرٍ مَا رَأَيْنَا سَوَادَهُ بَيْنَنَا .

فَسَمِعَهَا صَخْر ؛ ثُمَّ أَخَذَ يَتَأَمَّلُ البَوْنَ الشَّاسِعَ وَالفَارِقَ الرَّهِيبَ بَيْنَ الزَّوْجَةِ وَالأُمِّ !! ؛ ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُول :

أَرَى أُمَّ صَخْرٍ مَا تَمَلُّ عِيَادَتِي
وَمَلَّت سُلَيْمَى مَضْجَعِي وَمَكَانِي !!
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَن أَكُونَ جِنَازَةً
عَلَيْكِ وَمَن يَغْتَرُّ بِالحَدَثَانِ ؟!!
فَأَيُّ امْرِئٍ سَاوَى بِأُمٍّ حَلِيلَةً
فَلاَ عَاشَ إِلاَّ فِي أَذىً وَهَوَانِ !!
لَعَمْرِي لَقَد أَنْبَهْتِ مَن كَانَ نَائِماً
وَأَسْمَعْتِ مَن كَانَت لَهُ أُذُنَانِ !!

فَلَمَّا دَبَّ إِلَى صَخْرٍ دَبِيبُ البُرْءِ وَشَعَرَ بِبَعْضِ العَافِيَةِ ؛ عَمَدَ إِلَى الزَّوْجَةِ الغَادِرَةِ ؛ فَعَلَّقَهَا بِعَمُودِ الفُسْطَاطِ ؛ حَتَّى خَرَجَت رُوحُهَا ؛ ثُمَّ انْتَقَضَ عَلَيْهِ جُرْحُهُ ؛ فَمَاتَ بَعْدَ أَن شَفَى غَيْظَهُ مِن هَذِهِ المَرْأَةِ الوَضِيعَةِ !! .

.....

مَا المَرْأَةُ سِوَى بِئْرٍ عَمِيقَةٍ لاَ تَشْبَعُ !! ؛ تَبِيعُ الدُّنْيَا مِن أَجْلِ لَذَّتِهَا الَّتِى تَشْتَعِلُ فِي ذَلِكَ المَوْضِعِ الخَبِيثِ مِن جَسَدِهَا !! ؛ إِذَا تَوَهَّجَت جَمْرَةُ شَهْوَتِهَا فَمَا تُبَالِى بِدِينٍ وَلاَ حُرْمَةٍ وَلاَ عُرْفٍ وَلاَ إِنْسَانِيَّةٍ !! ؛ لاَ تَرَى مِنَ الحَيَاةِ فِي سَاعَاتِهَا هَذِهِ سِوَى هَذِهِ النِّيرَانِ الشَّيْطَانِيَّةِ الَّتِى تَجُولُ فِي كِيَانِهَا كُلِّهِ !! ؛ وَلاَ تَنْظُرُ آنئِذٍ إِلاَّ لِمَن يُطْفِىءُ هَذِهِ النِّيرَانَ وَلَوْ كَانَ مَخْلُوقَاً كَرِيهَاً تَفُوحُ رَائِحَةُ إِبِطَيْهِ حَتَّى يَضَعَ يَدَهُ عَلَى أَنْفِهِ مَن تَفْصِلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هَذَا المَخْلُوقِ فَرَاسِخٌ وَأَمْيَال !!

أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ـ ﷺ ـ ؛ فَقَالَ : إِنَّ لِي امْرَأَةً كُلَّمَا غَشِيتُهَا تَقُول : قَتَلْتَنِي !! ؛ قَتَلْتَنِي ؟!! ؛ فَقَالَ عَلِيٌّ ـ ﷺ ـ : اُقْتُلْهَا وَعَلَيَّ إِثْمُهَا !!

وَعَلِيٌّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ـ ﷺ ـ هُوَ الرَّجُلُ الَّذِى امْتَلأَ مَعِينُهُ عِلْمَاً وَفَهْمَاً وَحِكْمَةً ؛ فَهُوَ بَابُ العِلْمِ (١) ؛ مُلْهَمٌ مُحَدَّثٌ ؛ فَإِذَا قَالَ فَآمِن وَسَلِّم .

---

(١) ـ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ؛ قَالَ : قَالَ ـ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : ((أَنَا مَدِينَةُ العِلْمِ ؛ وَعَلِيٌّ بَابُهَا ؛ فَمَنْ أَرَادَ العِلْمَ فَلْيَأْتِهِ مِنْ بَابِهِ .)) .

أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي ((المُعْجَم الكَبِير)) ؛ [ح : ١١٠٦١] ؛ وَالحَاكِمُ فِي ((المُسْتَدْرَك عَلَى الصَّحِيحَيْن)) ؛ [٤٦٣٧] ؛ وَقَالَ : ((هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الإِسْنَادِ ؛ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ)) ؛ = ...

٥٦

■........................

وَأَخْرَجَهُ فِي ((المُسْتَدْرَك)) أَيْضاً ؛[حـ ٤٦٣٨] ؛ وَقَالَ : ((وَلِهَذَا الحَدِيثِ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ)) ؛ وَأَخْرَجَهُ أَبُو الحَسَنِ الوَاسِطِيُّ المَعْرُوفُ بِابْنِ المَغَازِلِيِّ فِي ((مَنَاقِب أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِب)) ؛ [صـ : ١٣٦ ؛ حـ : ١٢١] ؛ وَفِي [ص : ١٤١ ؛ حـ : ١٢٣] ؛ وَفِي [ص : ١٤١ ؛ حـ : ١٢٤] ؛ وَابْنُ عَدِيٍّ فِي ((كَامِلِهِ)) ؛[جـ ١ / ٣١١] ؛[جـ ٣ / ٢٠١] ؛[جـ ٤ / ٤٧٣] ؛ وَالخَطِيبُ فِي ((تَارِيخِهِ)) ؛[جـ ٥ / ١١٠ ؛ رقم الترجمة : ٢٥٠٢] ؛ [جـ ٧ / ١٨١ ـ ١٨٢ ؛ رقم الترجمة : ٣٦١٣] ؛[جـ ١١ / ٥٠ ؛ رقم الترجمة : ٥٧٢٨] ؛ وَأَبُو القَاسِمِ بْنُ عَسَاكِرٍ فِي (تَارِيخ دِمَشْق) ؛[جـ٤٢ / ٣٧٨ ـ ٣٧٩] وَفِي [جـ ٤٢ / ٣٧٩] ؛ وَعِزُّ الدِّينِ بْنُ الأَثِيرِ الجَزَرِيُّ فِي ((أُسْد الغَابَة فِي مَعْرِفَةِ الصَّحَابَة)) ؛[جـ ٤ / ٨٧ ؛ حـ : ١١٠٧] ؛ وَأَبُو نُعَيْمٍ الأَصْبَهَانِيُّ فِي ((أَحَادِيث مُسْنَدَة فِي أَبْوَابِ القَضَاء)) ـ مخطوط ـ ؛[حـ : ٤] ؛ وَابْنُ قُدَامَةَ المَقْدِسِيُّ فِي ((جُزْء العَاشِرِ مِنَ المُنْتَخَب)) ـ مخطوط ـ ؛[حـ : ٩٥] ؛ وَالشَّمْسُ الذَّهَبِيُّ بِإِسْنَادِهِ فِي ((تَذْكِرَة الحُفَّاظ)) ؛[جـ ٤ / ٢١] .

قُلْتُ : وَفِي البَابِ عَن عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ؛ وَجَابِرِ بْنِ عَبْدِاللهِ :

١ ـ حَدِيثُ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله :

أَخْرَجَهُ ابْنُ المُقْرِىءِ فِي ((مُعْجَمِهِ)) ؛[حـ : ١٧٥] ؛ وَالحَاكِمُ فِي ((المُسْتَدْرَك)) ؛ [حـ : ٤٦٣٩] ؛ وَأَخْرَجَهُ ابْنُ المَغَازِلِيِّ فِي ((مَنَاقِب أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي =...

٥٧ ....

طَالِب))؛[صـ: ١٣٥ ؛حـ: ١٢٠]؛[صـ: ١٤١ ؛حـ: ١٢٥]؛وَابْنُ عَدِيٍّ فِي ((كَامِلِهِ))؛[جـ ١/ ٣١٦]؛وَالخَطِيبُ فِي ((التَّارِيخ))؛[جـ ٣/ ١٨١ ؛رقم الترجمة: ١٢٠٣].

٢ ـ حَدِيثُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ:

أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي ((الجَامِع الكَبِير))؛[جـ ٦/ ٨٢ ؛حـ: ٣٧٢٣]. نُسْخَة بَشَّار عَوَّاد ـ ؛بِلَفْظ: ((أَنَا دَارُ الحِكْمَةِ ؛وَعَلِيٌّ بَابُهَا)) ؛وَأَخْرَجَهُ ابْنُ المَغَازِلِيُّ فِي ((مَنَاقِب أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِب))؛[ص: ١٣٩ ؛رقم: ١٢٢]؛[ص: ١٤٢ ؛رقم: ١٢٦]؛ وَأَبُو الخَيْرِ الجَزَرِيُّ فِي((مَنَاقِب الأَسَدِ الغَالِب ؛ مُمَزِّق الكَتَائِب ؛ وَمُظْهِر العَجَائِب))؛[ص: ٣٠ ـ ٣١ ؛رقم: ٢٩]: ((أَنَا دَارُ الحِكْمَةِ ؛وَعَلِيٌّ بَابُهَا)) .

قُلْتُ: وَهَذَا مِن جُمْلَةِ الأَحَادِيثِ الَّتِي اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الحُكْمِ عَلَيْهَا اخْتِلافاً رَهِيباً !! ؛فَمِن مُصَحِّحٍ ؛ وَمِن مُحَسِّنٍ ؛ وَمِن حَاكِمٍ بِالضَّعْفِ اليَسِيرِ ؛ وَمِن ذَاهِبٍ إِلَى القَوْلِ بِالضَّعْفِ العَظِيمِ الشَّدِيدِ ؛ وَمِن جَازِمٍ بِالوَضْعِ!! ؛ وَلَسْتُ أُغَامِرُ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْضِعِ فَأُتَابِعُ صَاحِبَ حُكْمٍ لِمَحْضِ الجَلالَةِ ؛ فَالَّذِينَ اخْتَلَفُوا كُلُّهُم أَئِمَّةٌ نُقَّادٌ عَبَاقِرَة ؛ وَلِذَا فَأَنَا بِصَدَدِ الشُّرُوعِ فِي بَحْثٍ أُوقِفُهُ عَلَى النَّظَرِ فِي أَمْرِ هَذَا الحَدِيثِ عَلَى مِنْوَالِ مَا قَد فَعَلْتُ مِن قَبْلُ فِي أَبْحَاثِي: ((أَدَاءُ الأَمَانَه: بِتَخْرِيجِ حَدِيثِ التَّلْقِين: يَا فُلانَ بْنَ فُلانَه)) ؛ وَ: ((مُدَاوَاةُ الكُلُوم: بِتَخْرِيجِ حَدِيث: أَصْحَابِي كَالنُّجُوم)) ؛فَإِلَى هَذَا المَوْعِدِ ؛ وَاللهُ المُسْتَعَان .

بَل وَإِلَيْكَ دَلِيلٌ آخَرٌ ؛ وَهُوَ قَاطِعٌ دَامِغٌ!! :

قَالَ الأَصْمَعِيُّ: غَاضَبَت امْرَأَةٌ زَوْجَهَا ؛ فَجَالَ عَلَيْهَا يُجَامِعُهَا !! ؛ فَقَالَت: لَعَنَكَ الله !! ؛ كُلَّمَا وَقَعَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَرٌّ ؛ جِئْتَنِي بِشَفِيعٍ لاَ أَقْدِرُ عَلَى رَدِّهِ !!

أَلَم أَقُل لَك: إِنَّ المَرْأَةَ مَهْمَا طَنْطَنَت حَوْلَ مَعْنَى الحُبِّ (١). ؛ أَو مَعْنَى الكَرَامَةِ وَرِفْعَةِ القَدْرِ ؛ أَو احْتِرَامِ المَرْأَةِ ؛ أَو رُوحِهَا ؛ أَو إِبَائِهَا ؛ فَاعْلَم أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مَا هُوَ سِوَى سَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ؛ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً !!

.....

وَلاَ تَظُنَّنَ أَنَّ المَرْأَةَ لاَ تُؤْمِنُ وَلاَ تَرَى مِنَ الدُّنْيَا سِوَى هَذَا الأَمْرِ الَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ ؛ إِلاَّ أَنَّهَا تَضَعُ قُيُوداً وَشُرُوطاً وَضَوَابِطَ ؛ كَالْمُجَايَلَةِ وَمَا يَدُورُ فِي فَلَكِهَا ؛ كَمُوَافَقَةِ التَّفْكِيرِ ؛ وَاتِّفَاقِ النَّظْرَةِ ؛ وَاقْتِرَانِ المَشَاعِرِ ـ ضَلَّ وَجُنَّ مَن ظَنَّ ذَلِكَ !! ؛ بَل هِيَ لاَ تَنْظُرُ وَلاَ تَعْبَأُ بِسِوَى مَعْنَى الذُّكُورَةِ !! ؛ فَهِيَ تُقَدِّمَ ابْنَ الثَّلاَثِينَ عَلَى الكَهْلِ ؛ وَرُبَّمَا آثَرَت مِن لَم يُجَاوِزِ العِقْدَيْنَ عَلَى مَن

---

(١) ـ يُقَال ـ طَنْطَنَ الرُّجُلُ طَنْطَنَةً فَارِغَةً مِنَ المَعْنَى ؛ وَطَنَّ الذُّبَابُ: إِذَا مَرِجَ فَسَمِعْتَ لِطَيَرَانِهِ صَوْتاً ؛ وَرَجُلٌ ذُو طَنْطَانٍ: أَي ذُو صَخَبٍ .

يَكْبُرُهُ !! ؛ لِظَنِّهَا أَنَّ الذَّكَرَ كُلَّمَا كَانَ صَغِيراً كَانَ أَقْدَرَ عَلَى إِشْبَاعِ شَهْوَتِهَا المَرَضِيَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ !!

وَأَرَى الغَوَانِي لاَ يُواصِلْنَ امْرِءاً
فَقَدَ الشَّبَابَ ؛ وَقَد يَصِلْنَ الأَمْرَدَا

.....

وَللهِ دَرُّ الإِمَامِ عُمَرِ بْنِ الخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ - حِينَ قَالَ : ﴿ أَسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِن شِرَارِ النِّسَاءِ !! ؛ وَكُونُوا مِن خِيَارِهِنَّ عَلَى حَذَرٍ!! . ﴾ .

وَإِذَا تَجَسَّدَ إِبْلِيسُ فِى صُورَةِ أُنثَى ؛ فَقَد وَقَعَ الصِّدَامُ !! ؛ وَلَهْفِى عَلَى كُلِّ فَتَىً تَرَكَ نَفْسَهُ لِلرِّيَاحِ تُحَرِّكُهُ كَيْفَ شَاءَت !! ؛ فَمَن ابْتُلِىَ بِالوُقُوعِ فِي الشَّرَكِ المَخُوفِ وَأَسْلَمَ قِيَادَهُ لِهَذَا العَدُوِّ القَوِىِّ المُتَرَبِّصِ الخَاتِلِ !! ؛ فَلْيَكُن دَائِماً وَأَبَداً عَلَى حُذْرٍ !! ؛ وَلْيَتَمَثَّل فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَبَيْنَ كُلِّ غَمْضَةِ عَيْنٍ وَانْتِبَاهَتِهَا بِقَوْلِ القَائِلِ :

لا تَأْمَن الأُنْثَى حَبَتْكَ بِودِّهَا
إِنَّ النِّسَاءَ وِدَادُهُنَّ مُقَسَّمُ !!
اليَوْمَ عِنْدَكَ دَلُّهَا وَحَدِيثُهَا
وَغَداً لِغَيْرِكَ كَفُّهَا وَالمِعْصَمُ !!

وَلْيَكُن شِعَارُكَ عَلَى الدَّرْبِ مَهْمَا طَالَ وَامْتَدَّ:

تَمَتَّع بِهَا مَا سَاعَفَتْكَ وَلاَ تَكُن
جَـزُوعَـاً إِذَا بَانَت ؛ فَسَوْفَ تَبِينُ !!

وَإِن هِيَ أَعْطَـتْكَ اللَّيَانَ ؛ فَإِنَّهَا
.... لِغَيْـرِكَ مِن طُـلاَّبِهَا سَتَـلِينُ !!

وَخُنْهَا وَإِن كَانَت تَفِي لَكَ إِنَّهَا
عَلَى قِـدَمِ الأَيَّامِ سَـوْفَ تَخُـونُ !!

وَإِن حَلَفَت أَن لَيْسَ تَنْقُضُ عَهْدَهَا
فَلَيْسَ لِمَخْضُوبِ البَنَـانِ يَمِينُ !!

وَإِن أَسْبَلَت يَوْمَ الفِرَاقِ دُمُوعُهَا
.... ؛ فَلَيْسَ لَعَمْرُ اللهِ ذَاكَ يَقِـينُ !!

.....

عَلَى أَنِّى أَرَى أَنَّ العِصْمَةَ الحَقِيقِيَّةَ إِنَّمَا هِيَ فِي أَن يُعَافِيكَ اللهُ مِنَ المَرَضِ بِهِنَّ ؛ وَأَنْ يَحُولَ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ الدُّنُوِّ مِنْك !! ؛ فَإِنَّ القُرْبَ مِنْهُنَّ دَاءٌ عَيَاءٌ لاَ طِبٌّ لَهُ وَلاَ دَوَاء !! ؛ فَإِنَّ رِيَاحَهُنَّ عَوَاصِف !! ؛ وَالبَلاَءَ الَّذِى يَأْتِى مِن قِبَلِهِنَّ مَاحِقٌ قَاصِف !! ؛ فَالنَّجَاءَ النَّجَاء !!

وَالأَقْدَامُ فِي أَيِّ الدُّرُوبِ أَرَادَت وَبِأَيِّ الطُّرُقِ رَغِبَت وَشَاءَت ؛ وَكُلُّ نَفْسٍ خَالَفَت الطَّرِيقَ الأَرْشَدَ ؛ فَقَد بِالخَسَارِ وَالخَيْبَةِ بَاءَت !! .

وَلَقَـد صَدَقَ الشَّيْخُ الرَّافِعِيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ يَوْمَ قَال : ﴿ وَأَشَدُّ سُجُونِ الحَيَاةِ فِكْرَةٌ خَائِبَةٌ يُسْجَنُ الحَيُّ فِيهَا !! . ﴾ .

.....

﴿ رَاهِبُ الأُدَبَاء ﴾

مُحَمَّد مَحْمُود دَخْرُوج

﴿ نِزَار شَاهِين المِصْرِى ﴾

كُولِرِدْج العَرَب

[1981ـ 2013]

مِن لا مَكَان !!... ؛لا وَطَن !!

✿✿✿✿✿ ✿✿✿✿✿ ✿✿✿✿✿

.....

۞ - دِيوَانٌ شِعْرِىٌّ:

كُلُّ النِّسَاءِ بِلا شَـرَف

لِشَاعِرِ الشَّمَال

مُحَمَّد مَحْمُود دَخْرُوج

الشَّهِيـر بِـ:

« نِـزَار شَاهِين المِصْـرِى »

۞۞۞۞۞ ۞۞۞۞۞ ۞۞۞۞۞

«كُلُّ النِّسَاءِ بِلا شَرَف»

قَصَائِدُ

مِن طَوَايَا الغَيْبِ المَجْهُول !!



.....

٥- « بُعِثَ النَّبِيّ »

.....

« بُعِثَ النَّبِيّ !!

بُعِثَ النَّبِيّ !!

بِرِسَالَةِ الكُفْرَانِ وَالطَّيْشِ الغَبِيّ !!

يَا أَيُّهَا الرُّهْبَانُ فِي دَيْرِ المَعَاصِي

وَالغِوَايَةِ إِنَّهُ بُعِثَ النَّبِيّ !!

فَلْتَشْرَبُوا خَمْرَ البَشَاعَةِ وَالعَبَس !!

وَلْتَشْرَبُوا نَخْبَ احْتِضَارِ الرُّوحِ مَرْحَى

لا جُنُودٌ لِلْفَضِيلَةِ بَعْدَ هَذَا اليَوْمِ كَلاَّ

وَلا عَسَس !!

مَاتَت شِعَارَاتِي القَدِيمَةُ فِي جَحِيمِ

هَزَائِمِي !!

كُلُّ ذَنْبٍ قَد يَكُونُ فَإِنَّهُ نَصْرٌ وَتَبًّا

لِلْخَصِيمِ اللاَّئِمِ !!

إِنِّي نِتَاجُ العَصْرِ يُنْكِرُ كُلَّ خُلْقٍ فِي

البَرِيَّةِ فَاضِلٍ !!... ؛ وَيَرَى التَّفَاحُشَ

وَالمَجَانَةَ تَاجَ رَأْيِ عَاقِلٍ !!

حَمَلَ الأُلَى غَبَرُوا نُبُوَّاتٍ عَلَى قَدْرِ

القَرَائِحِ وَالفِكَر !!... ؛ كَانُوا بِأَزْمِنَةِ

الحَقَائِقِ وَالهُدَى !!... ؛ وَأَنَا نَبِىٌّ !!... ؛

فِى الزَّمَانِ الهَازِلِ !! ﴾ .

  

.....

ـ « وَذهبتُ للسُّوقِ القَدِيم »

.....

« وَذَهَبْتُ لِلسُّوقِ القَـدِيم
وَذَهَبْتُ لِلسُّوقِ القَدِيم
أَمْشِى وَلا أَمْشِى فَإِنِّى حَائِرٌ
فِى ذَلِكَ الزَّمَنِ الَّذِى مَا كَانَ
يَوْمَاً بِالرَّحِيم !!
وَذَهَبْتُ لِلسُّوقِ القَدِيم
أَمْشِى لِتَأْخُذَنِى الحَيَاةُ عَن
المَآسِى وَالهُمُـوم !!
أَمْشِى تُرَاوِدُنِى خَيَالاتٌ !! ؛
فَهَذَا طَيْفُ آمَالِى وَذَا طَيْفٌ
حَزِينٌ لا غَيْرَ الكَآبَةِ
وَالوُجُـوم !!
فِى ذَلِكَ السُّـوقِ القَدِيم
النَّاسُ فِى حَشْرٍ فَهَذَا ذَاهِبٌ
أَو ذَا يَجِىء

مَا بَيْنَ فَلاَّحٍ عَجُوزٍ أو فَتَىً
نَظَرَاتُهُ أوْشَت بِأنَّ كِيَانَهُ مَا
كَانَ يَوْمَاً بِالبَرِىء
فِى ذَلِكَ السُّوقِ القَدِيم
حَيْثُ الزِّحَامُ وَحَيْثُ مَعْرَكَةُ
الحَيَاة !!
حَيْثُ أطْفَالُ الشَّوَارِعِ وَالثَّكَالَى
وَالنِّسَاءُ العَابِرَات
وكُنْتِ وَاقِفَةً !!
وكُنْتِ وَاقِفَةً بِمَتْجَرِ بَائِعٍ فِى
كُلِّ مَن يَأْتِى وَمَن يَغْدُو فَإِنَّكِ
تَنْظُرِين
وَنَظَرْتُ لِلعَيْنَيْنِ مِنْكِ عَلِمْتُ
أنَّكِ تَحْلُمِين !!
عَيْنَانِ سَاحِرَتَانِ أخْبَرَتَا عَلَيْكِ
حَبِيبَتِى حَتَّى وَإن لَم تَنْطِقِ !!... ؛
وَتَقُولُ أحْلُمُ بِالفَتَى الغَجَرِىِّ يَأْتِى
كَى لِهَذَا الوَعْرِ يَوْمَاً يَرْتَقِى !! ؛
يَغْزُو الجِبَالَ الشُّمَّ فِى عَسْفٍ

بِغَيْرِ تَرَفُّقٍ !! ؛
وَيُحَطِّمُ الحِصْنَ الأَبِىَّ وَكُلَّ بَابٍ
مُغْلَقٍ !!
مَعْ كُلِّ فَجْرٍ إِنَّنِى أَدْعُوهُ كَى
يُنْصِتَ لِلَهْفِى أَو عَظِيمِ
تَحَرُّقِى !!
عَيْنَانِ سَاحِرَتَانِ مِن تَحْتِ
النِّقَاب !! ؛
أَخْبَرَتْنِى أَنَّ الفَتَاةَ تَقُولُ مَن
يَأْتِى لِيَمْحُو مَا أُعَانِى وَسْطَ
أَزْمِنَةِ العَذَاب ؟!!
فَنَظَرْتُ أَعْطَتْنِى بِنَظْرَتِهَا بِلا
مَهَلٍ عَلامَاتِ الإِشَارَه !!
فَأَتَيْتُهَا عَلِّى أُزِيلُ عَن الحَيِيَّةِ
بَعْضَ أَحْمَالِ المَرَارَه !!
أَقْدَمْتُ لِلْمَجْهُولِ مِن بَعْدِ أَن
وَاتَت تَصَارِيحُ المُرُور
وَعَلِمْتُ أَنَّ الحَرْبَ لا تَعْرِف
سِوَى المَأْسُورِ أَو نَصْرِ الفَتَى

الفَـذُّ الجَسُـور

أَنَا قُلْتُ جِئْتُكِ عَاشِقاً !! ؛ أَنَا
مُنْذُ أَيَّامٍ وَهَا عَلَى بَابِ حُبِّكِ
لَـم يَعُد عِنْدِى اصْطِبَار !!
قَـالَت عَلِمْتُ بِيَوْمِهَا !! ؛ وَلِـذَا
تَرَانِى اليَوْمَ وَاقِفَةً كَأَنِّى فِى
انْتِظَار !!
قَـالَت أَتَصْدُقُ فِى الحَدِيثِ عَن
الهَوَى العَاتِى الدَّفِـين ؟!!
فَأَجَبْتُهَا فِى كِذْبَـةٍ قَـدَرِيَّـةٍ إِنِّى
أُحِبُّكِ مِن سِنِين !!
طَالَ الحَدِيثُ فَـزِدتُ مِنْهَا فِى
اقْتِرَاب !!
قَـالَت كَفَـاكَ جَرَاءَةً مَا هَكَذَا فِى
عُـرْفِ أَرْبَـابِ الصَّـبَابَـةِ تُفْتَـحُ
الأَبْـوَاب ؟!!
أَنَا قُلْتُ إِنِّى مُولَـعٌ وَلِـذَا تَـرَانِى
فِى اشْتِيَـاق !!
قَـالَت أَظُنُّ !! ؛ وَإِنَّمَا فِى عُرْفِنَا

يَأْتِى الكَلامُ قُبَيْلَ أن يَأْتِى
العِنَاق
البَدْرُ كَانَ بِوَجْهِهَا فَوَدِدتُ
تَقْبِيلَ اللِّثَامِ الأَسْوَدِ !!
قَالَت نُؤَجِّلُ فِى لَقَاءٍ آخَرٍ ... ؛
إن جِئْتَ أَنْتَ لِمَوْعِدِى !!... ؛ أَنَا
قُلْتُ بَعْدَ ثَلاثَةٍ آتِى وَآخُذُ مَطْلَبِى !!
... ؛ قَالَت لِى تَبّاً يَا مُسَوِّفُ !! ؛ بَل
سَتَأْتِى فِى الغَدِ !! ✻ .

  

.....

✪ـ ﴿ وسط الليل ... قديس وشيطان !! ﴾

.....

﴿ سَأَبقَى وَحدِى وَسْطَ اللَّيْلِ قِدِّيساً
وَشَيْطَانَا !!
لأَنَّ النَّاسَ جَازُونِى عَلَى الإِحْسَانِ
كُفْرَانَا !!
سَئِمْتُ الصَّبْرَ حَتَّى قَالَ لِلنَّفْسِ الَّتِى
فَاضَت إِلَيْكِ اليَوْمَ فَاحْتَشِدِى
وَثُورِى !!
فَرَأَيْتُهَا انْطَلَقَت وَعَاثَت لَم
تَذَر حَطَمَت هُنَالِكَ كُلَّ شَامِخَ
أَو عَتِيدٍ مِن جُسُورِى !!
أَبقَت فَلَم تَعبَا بِآمَالِى وَحِصْنِ
فَضَائِلِى أَطْفَأَتِ مَا قَد كَانَ مِن
ضَوْئِى وَنُورِى !!
وَخَرَجْتِ غَاضِبَةً ظَلامُكِ غَالَ
مَا قَد كَانَ مِن حُسْنٍ وَخَيْرٍ فِى
طِبَاعِى أَو شُعُورِى !!

مَن أنتِ ؟!! ؛ بُرْكَانٌ يَعِيشُ بِقَهْرِهِ
شَيْطَانٌ قُيِّدَ مِن قُرُونٍ
أو عُصُور ؟!!
أو كَالجَحِيمِ تَفُورُ فِى غَيْظٍ إذَا وكَأن
أتَى يَوْمُ المَلاحِمِ وَالنُّشُور ؟!!
حُرِّرْتِى مِن سَجْنٍ فَبُثِّى اليَوْمَ
هَاذِى النِّقْمَةِ الكُبْرَى !!
أحِلِّ اللَّعْنَةَ السَّوْدَاءَ أنْفُثِى نَارَ
العَذَابَ وَأخْفِ العُجْمَ
وَالعُرْبَا !!
ذَرِى مَن يَقْتَرِب يَوْمَاً يَضِيعُ
وَيَشْتَهِى الهَرَبَا !!
أطِيعِى الرَّغْبَةَ الحَمْرَاءَ
حَسْبٌ وَاشْكُرِى السَّبَبَا !!
تَمَادِى فِى غِوَايَاتِك !!
فَهَيَّا فَانْشُرِى فِى كُلِّ أرْضٍ
لِلْفَسَادِ هُنَاكَ مَا شِئْتِ مِن
أعْلامِكِ الغَضْبَى
وَرَايَاتِك !!

وَلَن تَجِدِى المَـلامَ فَإِنِّى قَد
قَتَلْتُ بَرَاءَةَ الدَّرْبِ القَدِيمِ
سَأَمْشِى فِى طَرِيقِكِ لَسْتُ
أَعْبَا !!..... ؛
وَأَمْضِى فِى حَمَاقَاتِك !! » .



.....

۞ ـ ﴿ بُكَاءٌ !!... ثُمَّ مَاذَا ؟!!! ﴾

.....

﴿ أُرِيدُكِ أَن تَكُونِى لا لِهَذَا !!
فَهَاذِى الدَّمْعَةُ الحَرَّى لِمَاذَا ؟!!

سَتَرَيْنَ فِى غَدِكِ صَبَابَاتِ
المُنَى
لا حُزْنَ بَعْدَ اليَوْمِ لا سُهْدٌ
هُنَاكَ وَلا ضَنَا !!

سَيَصِيرُ هَذَا الحُزْنُ فِى
الذِّكْرَى كَأَمْس
وَسَتَعْرِفِينَ الحُبَّ فِى سُكْرٍ وَفِى
طَرَبٍ وَهَمْس !!

سَتَرَيْنَ كَيْفَ العِشْقُ لَن يَبْرَح
هُنَالِكَ لَن يُفِق !!
سَيَكُونُ حُلْمٌ بِالحَقِيقَةِ
مُتَّفِق !!

وَسَتَعْلَمِينَ مَتَى السَّعَادَةُ فِى

سَمَـاءِ العِشْقِ تَعْلُـو !!... ؛

وَتَـأْتَـلِـق !!. ﴾٥﴿ .

  

.....

٥- « كَلامٌ ... من أودية الجحيم !! »

.....

« كَانَ فِى البَدْءِ كَلامٌ مَعْهُ لَم
أَخْشَ غَيَابَاتِ الغَدِ
سَارَ فِى دَرْبٍ وَدِيعٍ كُلَّ لَيْلٍ
فِى رِحَابِ المَوْعِدِ
ثُمَّ جَاءَ الرَّعْدُ يُنْذِرُ فِى فُجَاءَةٍ
بِالمَصِيرِ الأَسْوَدِ !!
كَانَ النَّسِيمُ وَثَمَّ قَد مُلِئَت دُرُوبِى
بِالضَّبَابِ وَبِالدُّخَان !!
كَانَ الحَدِيثُ عَن البَرَاءَةِ وَالطَّهَارَةِ
وَالوَفَاءِ ... ؛ وَثَمَّ صَارَ الكُلُّ مَطْرُوداً
مُهَان !!
حَلَّت جُيُوشُ مَحَبَّةٍ لا تَعْتَرِف بِسِوَى
صَدَى الأَنَّاتِ أَو بِالخَفْقَةِ الحَرَّى
وَبِاللَّمْسِ !!
وَخِلْتُ رُوحِى وَاهِماً وَكَذَبْتُ

نَفْسِى !!
وَعُدتُ أدْرَكْتُ الحَقِيقَةَ وَاليَقِين !!
وَخُضْتُ فِى عَبَثِ الخَنَا طَلَّقْتُ
سَنَوَاتِ الهَوَى أَلْقَيْتُ ذَاتِى وَسْطَ
عِشْقٍ كَافِرٍ شَرِسٍ
لَعِين !!
وَذَهَبْتُ أَلْهُـو مُلْقِياً ثَوْبَ التَّكَلُّفِ
سَادِراً فِيمَا أشَاء !!
حُطِمَت حُصُونُ بَرَاءَتِى ضَاعَ
الجَمَالُ !!... ؛ وَلَعْنَةُ الرَّحْمَنِ
تَلْحَقُ بِالنِّسَاء !! . ☙ .

  

.....

۞ - « لِقَاءٌ !!... فِي جَهَنَّمَ !! »

.....

» بَرِيئَةٌ أَنْتِ !!... ؛ كَبَرَاءَةِ الدَّمَعَاتِ
يَسَّاقَطْنَ مِن عَيْنِ البَغِىِّ !!
قِدِّيسَةٌ أَنْتِ !!... ؛ وَلَكِن فِى قَدَاسَةِ
الجَسَدِ الَّذِى مَا كَانَ يَوْمَاً بِالأَبِىِّ !!
أَنْتِ الشِّفَاءُ عَزِيزَتِى مِن كُلِّ
أَشْكَالِ العَذَابِ أَو الجِرَاح !!
أَنْتِ التَّقِيَّةُ وَالنَّقِيَّةُ قَد عَلِمْت !!
فِى كُلِّ وَقْتٍ تَبْتَدِى الصَّلَوَاتِ فِى
دَيْرِ السِّفَاح !!
أَيَا دَوَاءً طَبَّ مِن كُلِّ المَوَاجِع !!
يَا رَبَّةَ الأَمْرِ الَّذِى مَا كَانَ يَوْمَاً
طَاهِرَاً !! ؛ إِى لَم يَرَ فِى طُولِ هَذَا
العُمْرِ غَيْرَ العَيْشِ فِى ظِلِّ
الفِرَاشِ أَو المَضَاجِع !!
أَنْتِ كَنَهْرٍ مِن جَحِيم !!... ؛ ظَمْآنِ
لِلَهَبِ المُقَدَّسِ هُوْ لَعَمْرُ أَبِيكِ

قُرْبَانُ النَّعِيم !!
أَنْتِ كَبِئْرٍ جَـوْفُهُ نَاءٍ بَعِيد !!... ؛ لَم
يَمْتَلِىء يَوْمَاً يَقُولُ بِكُلِّ أَوِنَةٍ
قَلِيلٌ كُلُّ مَا يَأْتِى وَإِنِّى أَشْتَهِى
هَل مِن مَزِيد !!
كُلُّ كِلْمَاتِ الطَّهَارَةِ مَحْضُ
مَكْرٍ مَحْضُ زَيْفٍ
وَاسْتِعَارَه
قُولِى الحَقِيقَةَ يَا فَتَاه ؟!!... ؛ أَنْتِ
يُنْبُوعُ الرَّذِيلَةِ !!... ؛ أَنْتِ إِكْسِيرُ
الدَّعَارَه !! . ✿ . (١) .

---

(١) ـ لا يَذْهَبَنَّ بِكَ الظَّنُّ الوَاهِمُ أَنِّى مِن أَهْلِ كَبِيرَةِ الزِّنَا !! ؛ تَاللهِ مَا كَانَ ذَلِكَ أَبَدَاً !! ؛ تَخَيَّل مَا يَكُونُ بَينَ الشَّابِّ وَالفَتَاةِ إِذَا ضَمَّتْهُمَا العُزْلَةُ الشَّيْطَانِيَّةُ ؛ وَلَكِن إِيَّاكَ أَن تَظُنَّ أَنِّى وضَعْتُ السَّهْمَ فِى القَوْسِ !! ؛ مَا كَانَ ذَلِكَ أَبَدَاً ؛ وَرَحِمَ اللهُ أَبَا مُحَمَّدَ بْنَ حَزْم [ت ٤٥٦ هـ] حِينَ أَخَذَ فِى ذِكْرِ مَا قَد عَرِفَ وَرَأَى مِن مَسَاوِىءِ النِّسَاءِ وَفُجُورِهِنَّ ؛ ثُمَّ قَال :
« وَلا يُحَاسِبُنِي رَبِّي بِكَبِيرَةِ الزِّنَا مُذ عَقِلْتُ إِلَى يَوْمِي هَذَا . » .
« طَوْقُ الحَمَامَةِ » ؛ [ص : ٢٧٢] ؛ نُسْخَةُ الدُّكْتُور إِحْسَان عَبَّاس .

.....

۞ـ « كُلُّ النِّسَاء بِلا شَرَف !! »

.....

« يَا إِلَهِي !! ؛ رَحِمَ اللهُ الهَوَى !! ؛
كَانَ قِدِّيساً !! ؛ فَعَانَدَهُ الزَّمَانُ !! ؛
فَقَد تَزَنْدَقَ أو غَوَى !!
اليَوْمَ يَظْفَرُ بِالأَمَانِي الْمُشْتَهَاةِ !! ؛
وَيَوْمَ عَاشَ الطُّهْرُ بِالأَوْطَانِ
أَدْرَكَهُ التَّشَرُّدُ وَالنَّوَى !!
يَا إِلَهِي !! ؛ رَحِمَ اللهُ الهَوَى !! ؛
مَا عَادَ بَعْدَ اليَوْمِ حُبٌّ
أَوْ جِرَاحٌ أَوْ جَوَى !! ؛
يَا إِلَهِي !! ؛ رَحِمَ اللهُ الهَوَى !! ؛
غَابَت رِيَاحُ الحُزْنِ وَالآلاَمِ فِي
زَمنِ البَرَاءَةِ وَالدُّمُوع !!
صِرْنَا بِغَيْرِ إِرَادَةٍ فِي عَهْدِ خِزْيٍ
وَالْمُحَالُ أُخَيَّ أَن نَرْقُب إِيَابَاً أَن
نَرَى عَوْدَاً هُنَالِكَ أَوْ رُجُوع !!

هَـذِهِ الشُّطْآنُ قَد أَضْحَت عَن
الأَنْظَارِ فِي مَنْأَىً بَعِيد !!
كَالشَّمْسِ جَاءَت لَم تَطُل
لِهُنَيْهَةٍ وَلَّت هُنَاكَ قُبَيْلَ
مَوْعِدِهَا وَثَمَّ صَوْتُ الرِّيحِ
يَعْوِي فِي ظَـلاَمِ اللَّيْلِ بَيْنَا
الحُلْمُ يَمْشِي عَارِيَاً خَجِلاً
هُنَالِكَ فِي دُرُوبٍ مِن جَلِيد !!
هَذَا النِّدَاءُ صَدَاهُ فِي الآفَاقِ
لَوْ يُجْدِي النُّوَاحُ أَو الصُّرَاخ !! ؛
عَهْدُ البَرَاءَةِ لَم يَعُد شَيْئَاً تَهَالَكَ
مُنْذُ أَزْمَانٍ غَدَا شَبَحَاً كَئِيبَاً
أَوْ حُطَامَاً بَالِيَاً ضَاعَت مَلاَمِحُهُ
وَشَاخ !! ؛
إِذَا ضَلَّت قَوَافِلُنَا !! ؛ بِأَرْضِ التِّيهِ
وَالحِرْمَانِ قَد صِرْنَا !! ؛ إِذَا ضِعْنَا !! ؛
هُنَاكَ عَلَى فَيَافِي القَهْرِ وَالحِرْمَانِ
إِن وُئِدَت أَمَانِينَا !! ؛ وَشَيءٌ لَم يَعُد
مِنَّا !! ؛

فَلاَ كَانَت دُرُوبُ العُمْـرِ قَـد تَأْتِى !! ؛
وَلاَ بَقِيَت هِىَ الـدُّنْيَا الَّتِى جِئْنَا !! ؛
وَلاَ كُنَّا !!
إِذَا بِالأَمْسِ طَيْفُ الحُبِّ أَقْبَلَ
قَـد رَأَيْنَـاهُ !! ؛
بِلاَ سَبَبٍ تَوَلَّى غَائِبَاً عَنَّا !! ؛
تَـمَادَى فِى مُفَارَقَةٍ !! ؛ بِلاَ جُـرْمٍ
فَقَـدْنَاهُ !! ؛
فَلاَ تَـجْزَع إِذَا قُلْنَا بِلاَ أَسَفٍ
بِلاَ شَكْوَى بِأَنَّا قَـد نَسِينَـاهُ !! ؛
يَا إِلَهِى !! ؛ رَحِمَ اللهُ الـهَوَى !! ؛
كَانَ قِدِّيسَاً !! ؛ فَعَانَدَهُ الزَّمَانُ !! ؛
فَقَـد تَزَنْدَقَ أَو غَـوَى !!
كَانَ المُنَزَّهَ لِلشَّنَاعَةِ مَا
أَتَى إِى لِلْمَبَاذِلِ مَا اقْتَرَف !!
وَجَنَى الثِّمَارَ جَمِيعَهَا فِي
يَوْمِ أَن عَرِفَ الحَقِيقَةَ مَحْضَهَا :
أَنَّ النِّسَاءَ بِلا شَـرَف !! . ✤ .

  

.....

○ـ «مازلت أرجىء قتل ملهاتى !!»

.....

«لا شَىْءَ يُبْرِىءُ قَرْحَ آلامِى وَتَعْذِيبِى !!
مَازِلْتُ غِرٌّ رَغمَ تَرْحَالِى وَتَجْرِيبِى !!
مَازِلْتُ أُرْجِىءُ قَتْلَ مَلْهَاتِى بِلا سَبَبٍ !! ؛
تَمْضِى الحَيَاةُ بِلا لَوْمٍ وَتَثْرِيبٍ !! ؛
وَلِفَرْطِ إِقْدَامِى وَكُفْرِ تَهَجُّمِى !!... ؛
وَلِفَرْطِ حُبِّى فِى مُدَاوَمَةِ التَّرَبُّصِ بِالغُثَاءِ
رَأَيْتُنِى وَحْدِى هُنَالِكَ بِالجَحِيمِ أَرَى لِوَاءَ
هَزَائِمِى
اللهُ لَم يَرَنِى خَشُوعاً إِثْرَ أَىِّ وَجِيعَةٍ وَكَأَنَّنِى
أُنسِيتُ أَنَّ اللهَ طِبُّ مَصَائِبِى !!... ؛ فَاليَوْمَ
أَجْنِى البَعْضَ مِن سَعْى المَسِيرِ
الخَائِبِ !!
الدَّمْعُ لا يُجْدِى فَقَد وَلَّى الزَّمَن !!
ضَيَّعْتُهُ فِى كُلِّ مَا يُرْدِى بِأَوْدِيَةِ العَفَن !!
العَوْدُ أُخِّرَ رَكْبُ أَهْلِ الخَيْرِ غَيَّبَهُ احْتِشَادِى
لِلْمَعَاصِى وَالذُّنُوب !!

كُلُّ الرِّفَاقِ أَتَوْا لِبَابِ الرَّبِّ وَحْدِي
قُلْتُ أَنَّ الوَقْتَ مُمْتَدٌّ وَلا لا لَن
أَتُوب !!
فَاضَ النَّعِيمُ عَلَى الصِّحَابِ فَرَبُّهُم
رَبٌّ كَرِيم !!
اللهُ يَا بَارِي الخَلائِقِ غَوْثُكَ المَرْجُوُّ لَهْفِي
إِن بَقِيتُ هُنَاكَ وَحْدِي فِي الجَحِيم !! ».



.....

﴿ الفِهْرِسُ الجَامِعُ لِمُحْتَوَيَاتِ مَادَّةِ هَذَا الكِتَاب ﴾

- تَنْبِيه .... : ١٠
- إِهْدَاء .... : ١٢ ـ ١٤
- تَصْدِير .... : ١٥
- مَدْخَل .... : ١٦
- كَلِمَةٌ قُبَيْلَ الشُّرُوع : .... : ١٧ ـ ٢١
- تَوْطِئَة : .... : ٢٢

.....

- البَابُ الأَوَّل:

من فصول النقد الأدبى

- .... : ٢٣ ـ ١٣٧

.....

- البَابُ الثَّانى:

من روائع الدراسات الأدبية

- .... : ١٢٨ ـ ١٦١

.....

- البَابُ الثَّالث:

أبحاث في اللغة العربية

ـ ....: ١٦٢ ـ ٢٠٤

.....

ـ الباب الرابع:

مقالات فكرية

ـ ....: ٢٠٥ ـ ٣٠١

«تمَّ الكتاب»



في الأدب والنقد واللغة

ومقالات في الحركة الفكرية العربية المعاصرة









دار المستقبل للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - أول شارع الشابسوغ
تلفاكس: 96264658263+
info.daralmostaqbal@yahoo.com
متخصصون بإنتاج الكتاب الجامعي

دار البداية ناشرون وموزعون
عمان - وسط البلد
هاتف: 96264640679+ تلفاكس: 96264640579+
info.daralbedayah@yahoo.com
خبراء الكتاب الأكاديمي